سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

البلاد السعيدة

تأليف

برترام توماس

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٢٨٤٣
الرقم الخاص :

ترجمة

محمد أمين عبد الله

١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

أعدّ ملاحق الكتاب

السير أرثر كيث

Sir ARTHER KEITH

دكتوراه فى الطب وعضو جمعية الجراحين الملكية بانجلترا

المعلومات والآراء الوارده بهذا الكتاب على **مسئولية المؤلف**

ولا تتحمـــــل حكومة سلطنة عمان ازاءها اية مســـــئولية

مقدمة المؤلف

يطلق بعض علماء الجغرافيا على الجزيرة العربية تعبيرا هو « البلاد السعيدة » ولعله من المفارقات أن يطلق هذا التعبير على منطقة من الأرض تكثر بها الصحراء المقفرة التى يتصارع انسانها منذ فجر التاريخ ضد عوامل الطبيعة .

على أن الكثيرين من العلماء يجعلون هذا التعبير (البلاد السعيدة) خاصا بالمنطقة التى تطل على المحيط الهندى ، وهو بهذا المعنى تعبير دقيق ، فان هذه المنطقة تختلف اختلافا بينا عن بقية البلاد وذلك بحكم طبيعتها ذات الجمال النادر والشهرة التاريخية . واذا كانت هناك منطقة فى شبه الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية ـ اذا استثنينا اليمن بأمجادها التاريخية ـ فهى بحق المنطقة التى تسمى « ظفار » والتى تشكل فى مجموعها خميلة من الغابات الخضراء التى تفترش المرتفعات الجبلية المطلة على البحر ، والجداول الرقراقة ، والحقول السندسية ، والسهول التى ترصع أديمها الأشجار والنباتات والأعشاب .

فى هذه البلاد ـ كما جاء فى سفر التكوين ـ حدّد الرب حدود العالم ذاكرا أنها تبدأ شرقا من جبل سفار (أى ظفار) . والى هذه البلاد جاء المصريون القدماء بحثا عن اللبان ليستعملوه فى تحنيط فراعنتهم ، وربما كانت أعمدة النبى سليمان ، مدفونة فى مكان ما بهذه المنطقة ، هذا اذا لم تكن ظفار هى نفس الجنة التى ورد ذكرها فى التوراة والسوق التقليدية لتجارة العاج وريش الطاووس قديما .

ولقد حاولت فى الصفحات التالية من الكتاب ، أن أسع وصفا شاملا للرحلة الأخيرة التى قمت بها الى صحراء الربع الخالى ، على ظهور الجمال ، وأن أضمنه الدراسات والبحوث التى أعددتها عن ظفار ، والتى تمثل فى نظرى فصل الخطاب فى هذه الرحلة الى منطقة اعتبرها المنطقة السعيدة الوحيدة فى عصرنا الراهن .

الربع الخالى منطقة بكر ــ الصحراء الجنوبية الكبرى :

ان الجهد الذى بذلته فى سبيل الجزيرة العربية ، لا يقل أهمية عن النجاح الذى حققته فى تحريتى هذه ، التى بدأت منذ ست سنوات عندما غادرت مقر عملى فى الأردن ، متوجها الى بلاط سلطان عمان ، تملأ رأسى أحلام كثيره . فلقد استطاع الانسان أن يكتشف المناطق النائية للكرة الأرضية ، بقطبيها الشمالى والجنوبى ، كما استطاع أن يكتشف منابع نهر الأمازون ومجاهل وأصقاع قارتى افريقيا وآسيا ، غير أن الربع الخالى ، ظل البقعة المجهولة الوحيدة لاسيما وأن الجزيرة العربية كانت مهد حضارة عريقة ، تلامس حدودها حضارتين قديمتين هما حضارة مصر وحضارة بابل .

ومع ذلك فقد بقيت جزيرة العرب الأرض المحرمة على المستكشفين . ولم يقدر لأكثر من عشرين مكتشفا أوروبيا أن ينفذوا الى بعض المناطق غير المأهولة . وان ثمة سببين رئيسيين لهذا الأمر :

السبب الأول : هو قلة هطول الأمطار فيها ، وقسوة الحرارة ، الأمر الذى لا يسمح الا بوجود بعض جماعات من البدو الرحل ، الذين تجتاحهم حروب دائمة تحرمهم من الاحساس بالأمن والاستقرار .

السبب الثانى : هو ان هؤلاء السكان متعصبون لعقيدتهم الدينية .

أما الأوروبيون فلم تتح لهم الفرصة للتغلغل فى شبه الجزيرة العربية الا نادراً وبشكل فردى ، وربما كان ذلك مرة واحدة فى كل تاريخها • وقد حدث ذلك فى عصر الدولة الرومانية ، عندما كانت جزيرة العرب ضالة الغزاة الأوروبيين المنشودة ، وفيما عدا ذلك فقد تركت هذه المنطقة معزولة عن العالم ، تمزق أهلها عوامل التعصب والانغلاق التى هى من التقاليد المتوارثة • ومن هنا فان هذه المنطقة التى تعادل مساحتها نصف القارة الأوروبية ظلت غير مدرجة فى خرائطنا •

ومن الذين استهوتهم جزيرة العرب « رينشارد بيرتون » ، الذى عرض خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية فى سنة ١٨٥٢ من أجل ما أسماه بـ « عملية محو هذا العار » من تاريخ المغامرة الحديثة ، ولكن هذا الأمل ذهب ضحية العراقيل الرسمية ، ولذلك تعذر عليه وضع خطته تلك موضع التنفيذ • أما أنا فقد استمتعت بهذا النجاح • ذلك أنى عملت ثلاثة عشر عاما قضيتها فى السلك السياسى بعد الحرب العالمية الأولى فى ثلاث جهات من الجزيرة العربية وقد مكننى هذا من اتقان اللهجات القبلية والعادات العربية والتأقلم معها • وقد كرست لنفسى سنوات كثيرة لمهمتين ، هما ، كيف أضمن وسيلة للوصول الى أغوار المنطقة ، ثم كيف يمكننى أن أكسب صداقة القبائل هناك •

وقد بدأت صلتى بالناس فى المنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية ، بعد أن عينت مستشارا فى مجلس وزراء عمان وذلك بالنظر الى العلاقات الودية القائمة بينى وبين سلطان البلاد وقد أتاح لى هذا الوضع أن أعقد صلات كثيرة وعلاقات وثيقة مع الشخصيات العربية ذات النفوذ فى تلك المنطقة • وقد أسفر هذا عن موقف يتسم بالتسامح والود تجاهى كرجل انجليزى ومسيحى فى نفس الوقت ، ولولا ذلك لكان من المستحيل علىّ أن أضع قدمى على تلك البقاع • ومن جهة أخرى فقد كنت أفهم عقلية السلطة البريطانية ، ولهذا لم أطلب من المسئولين البريطانيين التصريح لى

بما كنت أزمع القيام به ، .. ألم تكن قضية ريتشارد بيرتون درسا لى ... والواقع أننى كنت فى قرارة نفسى — أقر السلطة البريطانية على موقفها من مثل هذه المشروعات بسبب ما تلاقيه هذه الرحلات الاستكشافية من متاعب فى الصحراء العربية ، ولهذا فان الذكى من الناس يتجنب دائما مثل هـذه المهام والالتزامات لمـا تنطوى عليه من مسئولية .

وعلى هذا الأساس فقد كنت أعد خططى فى الخفاء ، حتى لا يُعرف من أمرى شىء الا بعد البدء فى الرحلة . وقد كنت أتحمل بنفسى نفقات هـذه الرحلات ، كما كنت المسئول الوحيد عن تنفيذها .

وعلى امتداد خدمتى فى مسقط ، اعتدت أن أقضى فصول الصيف هناك مستغلا اجازاتى (وهى التى كان المفروض أن أقضيها فى الهنـد هربا من الحر فى مسقط) . لأن عمليات البحث والاستكشاف فى أنحاء الجـزيرة العربية لا يمكن أن تتم الا فى فصل الشتاء ، وهو الفصـل الذى يمكن أن يتحمل الانسان فيه حرارة القيظ . وهكذا فى خـلال الإجازة بدأت أبحث وأضع خريطة للربع الخالى منطقة اثر منطقة .

وفى شتاء ١٩٢٧ — ١٩٢٨ — قمت برحلة على ظهور الجمـال مداها ٦٠٠ ميل ، عبر الحدود الجنوبية المطلة على المحيط الهندى الى ظفار .

وفى عام ١٩٢٩ — ١٩٣٠ — قمت باجتياز المنحـدرات الواقعـة الى الشمال فى ظفار حتى أطراف منطقة الرمال على امتداد ٢٠٠ ميل من تلك المنطقـة .

وفى كل المناسبات كنت أرتدى الزى البدوى ، كما كنت أتحدث باللهجة

المحلية الدارجة كذلك كنت أعيش كما يعيش أهل هذه المنطقة ، وامتنعت عن شرب الكحول والتدخين ، فى محاولة للتظاهر بالالتزام بعادات أهل المنطقة ، الأمر الذى كان يسهل من مهمتى فى اجتياز منطقة الصحراء الكبرى من البحر الى البحر .

ولقد أثبتت لى هذه الرحلات خطأ الاعتقاد بأن أفضل الطرق لاكتشاف شبه الجزيرة العربية انما تكون عن طريق العربات والطائرات .

ومنذ ثلاث سنوات ، وضع أحد الأثرياء الأمريكان خطة مشابهة لخطتى وكان ينوى تحقيقها باستئجار طائرة خاصة فاتصل بى مقترحا أن يشركنى فى هذه البعثة . ولهذا لم أشعر بالندم عندما فشلت فكرته ، وقد نكون هذه التجربة مفيدة بالنسبة للزمان والمكان . الا أنه لا يمكن تحقيق أى نتائج علمية حقيقية من ورائها . ولقد كانت المشاكل التى تبحث عن حل بالنسبة لهذه المهمة هى اكتشاف التراكيب ومنحدرات جنوب الجزيرة العربية ، ومواقع المياة والتركيبات الجيولوجية وتحديد المناطق الخالية على سطح الخريطة الى جانب الحيوانات وعادات السكان اللغوية وسلوكهم وتقاليدهم وطريقة حياتهم .

إن مثل هذه الأهداف لم تكن بأى حال من الأحوال تتحقق عن طريق المسح الجوى ، لأن هذا العمل لم يكن ليضيف أى اسم جديد على الخريطة ، أو حقيقة تتصل بالأصول الجنسية والحيوانية فضلا عن قلة المعلومات الجغرافية التى يمكن الحصول عليها بهذه الطريقة .

كما أن ادخال الآلة الى تلك المنطقة التى تتميز بالهدوء والسكينة كان يبدو أمراً غير مستساغ لأنه قد يشوه جمال الصحراء ، على أن الأحاسيس

التى تنشأ من خلال العمليات البطيئة لمثل هذه الرحلة ، وكيفية التعامل مع رفاق الرحلة عبر شهور طويلة ، رغم ما هم عليه من الطباع الصحراوية ، الى جانب ما كانوا يتصفون به من خصال الشجاعة والرجولة ، فان كل هذه الأشياء بما فيها المسيرات الطويلة ومنظر القافلة ، وحدة تجمعت لتشارك فى رسم تلك الصورة الساحرة للجزيرة العربية — كما سنرى .

BERTRAM THOMAS

الفصل الأول

بداية تبشر بالخير ومراجعة مبكرة للرحلة

كان الوقت منتصف ليل ٤/٥ أكتوبر سنة ١٩١٠ • وكان ميناء مسقط الغربى الصغير يستلقى فى هدوء تحت جنح الظلام • وخلال هـذا الهدوء كان السيد سعيد بن تيمور ولى عهد الأسرة الحاكمة الشخص الوحيد الذى كان يعلم بوصولى الى مسقط فى تلك الليلة وبالحركة التى كانت تجرى على الشاطىء • وما ان وصلت حتى تقدم قارب صغير ومنه نزل خادمى محمد يحمل معه الصندوق الغامض وبندقية وسروجاً للجمال •

ولقد كان وصولى الى مسقط فى تلك الليلة تمهيدا لتحقيق الحلم الذى طالما راودنى وهو الكشف عن أسرار الصحراء الجنوبية للربع الخالى •

وغدا فان أخبار اختفائى سوف تكون مفاجأة للبعض من الذين يحلو لهم أن ينسجوا الاشاعات حولى ، وكانت البارجة البريطانية « سيكلامين » راسية داخل المرفأ ، وكنت أسير على الافريز لاحضار ورقة جلب الحظ التى تركها لى عند الحارس قبطان البارجة ، الذى كنت قبل برهة احتسى معه أكواب الشاى • بعد ذلك تحرك القارب الذى جاء لنقلى الى عرض البحر ، وعندما كان القارب يبحر بنا فى ضوء القمر اكتشفت أن الورقة التى تركها لى قائد البارجة هى قصيدة « والتر دى لامير » التى يتغنى فيها بجزيرة العرب • وفى نفس الوقت أخذت أقرأ البرقية التى كانت قد وصلت الى ، وتتضمن إشعارا بوصول الباخرة البريطانية « جراندبير » الى مسقط فى الساعة السادسة من صباح يوم الأحد ، وأنها سترسو على بعد ثلاثة أميال من الشـاطىء •

كانت ناقلة النفط حمولة عشرة آلاف طن تتهادى وهى قادمة الينا وكان الاتفاق أن نقوم بارشاد الباخرة عن المكان الذى نوجد فيه بأن نرفع علما • وما أن اقتربت الباخرة التى كانت فى رحلة العـودة الى انجلترا ، حتى صعدت اليها ، وما هى الا لحظات حتى أقلعت بنا بعد أن اطلقت أربع صفارات ايذانا بابحارها •

كانت الخطة الموضوعة هى أن أنزل فى ظفار ، التى تقع فى منتصف الطريق على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ــ اذا كانت الأحوال الجوية تسمح بذلك • أما اذا تعذر ذلك بسبب الرياح الموسمية التى كانت تهب فى ذلك الوقت فلابد من الانتقال الى أول سفينة شراعية نلتقى بها فى المنطقة ، وفى اليوم التالى اضطرتنا رداءة الأحوال الجوية الى تخفيف سرعة السفينة بحيث أصبح احتمال وصولنا الى صلالة ضعيفا أثناء النهار . أما البقاء فى مكاننا طوال الليل فلم يكن رأيا سديدا ، ولهذا بادرنا الى الانتقال الى أول سفينة شراعية التقينا بها •

ولقد استجابت السفينة لأول اشارة منا • فبعثت بأحد قواربها الينا وارتديت أنا وخادمى الزى العربى ونزلنا الى القارب فور وصوله • أما الباخرة « جراندبير » فقد استدارت مستأذنة بالاقلاع بعد أن تمنت لنا حظا سعيدا • وقد أخذت السفينة الشراعية تسير بنا فى المناطق القريبة من الشاطىء وقد طلبت من ربان السفينة الشراعية « فتح السلام » وكان هذا اسمها بأن يأذن لنا بالنزول الى الشاطىء فلم يوافق وعلل اعتراضه بأن المنطقة التى كنا فيها مليئة بالصخور والنتوءات ، الأمر الذى قد يؤدى الى ارتطام السفينة بها • وحتى ولو كانت السفينة من سفن الصيد أو غيرها من السفن البريطانية • فانها قد تنقلب أو تجنح اذا حاولت الابحار فى هذه الميـاه • وذلك على عكس قوارب الصيد المحلية التى تسمى « البانوش » • فهذا النوع من القوارب يمكنه السير فى هذه المياه بسهولة دون أن يرتطم

(نخيل جوز الهند فى ظفار)

أو يجنح وفى مختلف الأحوال الجوية ، ودرجة حرارة مياه البحر التى قد تصل الى حد الغليان فى بعض الأوقات .

وتوفيراً للوقت فقد اقترحت على ربان السفينة بعد أخذ ورد ، بأن يتجه بنا الى ريسوت . وهو مرفأ آمن يقع على الساحل ولكن السفينة ظلت ساكنة فى مكانها بلا حراك ومع ذلك كنا نرى الحصن والجامع من خلال أوراق أشجار جوز الهند ، التى كنا نلمح من ورائها سلاسل جبال القـرا وكنا نشاهد هذه المناظر والسفينة فى مكانها لا تتحرك على الاطلاق . وفجأة ظهر فوق سطح الماء حوت كبير مخيف أثار الدهشة ، وكان فى حجم الغواصة عندما استقر فوق سطح المـاء الى جانب السفينة . ربما أراد أن يثبت لنا بأنه ليس أصغر حجما من السفينة ، ولكنه كان ودودا للغاية فأخذ يغوص فى المـاء محدثا صوتا مزعجا فوق سطح المـاء ثم غاص واختفى مخلفا وراءه غلالة هائلة من الفقاعات .

وقد أثار ظهور الحوت الرعب بين بحارة السفينة الذين أخذوا يضربون بقبضات أيديهم على صفائح الزيت لتخويف الحوت . بعد قليل عادت الريح تهب وبذلك تمكننا من النزول فى ريسوت[1] عند الظهر . وبمجرد نزولنا ركبنا الجمال . وأخذنا نسير بمحاذاة الشاطىء فمررنا بقرية صغيرة تقع على السهل تسمى « عوقد » ، ومنها أخذنا نسير بجانب صفوف من أشجار جوز الهند الى أن وصلنا ظفار عند الغروب فى الثامن من أكتوبر .

---

(١) كان البرتغاليون الذين وفدوا الى آسيا فى القرن السـادس عشر من اشرس الغزاة الأوروبيين وقد رأوا أن يخلدوا اعمالهم بانشاء عدد من التحصينات والمدرجات فى مدينة « ريسوت » . ولاتزال هذه الآثار باقية شاهدا على تاريخها . وتعتبر « ريسوت » آنذاك المحطة البحرية للطائرات فى هذا الجزء من جنوب الجزيرة العربية الذى يمتد مئات الأميال .

وقد حاولنا الراحة والنوم بعد يوم وليلة قضيناهما بلا نوم • بيد أنه لم يكن نوما مريحا فقد كان البعوض يطن من حولنا أفواجا بينما كانت الزنابير تبنى لها مخابىء فى السقوف • وكان هناك نوع آخر من الحشرات التى لا يمكن رؤيتها ولكنها كانت تهاجمنى طوال الليل وتمتص دمى •

كانت أخبار وصولنا قد ترامت الى السلطان فى صلالة • وكان المفروض ألا يعرف انسان عن خططى لأن السرية كانت أمرا حتميا بالنسبة لمشروع الرحلة لأن ذيوع الأمر قد يوقعنى فى مأزق وقد يثير العداء ضدى . ان أخبار الأحداث فى شبه الجزيرة تنتقل بين الناس بسرعة البرق . كما كنت أخشى أن تستغل الصحافة البريطانية خبر وصولى فنتناوله بالتعليق •

أين سهيل الراشدى ؟ •• لقد سألت عن هذا الشخص فور وصولى . ولما كنت أعرف أن الوعود لها قدسيتها عند البدو . فقد كنت أعلق آمالا كبارا على سهيل الذى رافقنى فى رحلة العام الماضى • وقد كان هناك اتفاق سرى فيما بيننا على أن نتقابل فى مدينة صلالة فى منتصف شهر ربيع الأول الحالى •

وكان من بين الأمور التى اتفقنا عليها أن يجهز لى سهيل قافلة من الجمال لتحملنى الى منطقة الرمال الكبرى بالربع الخالى • وقد أقسم أمامى أن شيئا لن يمنعه من البر بوعده غير الموت ولكنى عرفت أنه قد اختفى ولم يعد له وجود . ولعله رحل الى ديار قبيلته مع الخنجر الذى أهديته له علاوة على مائتى ريال وهى تعتبر ثروة هائلة بمقاييس المنطقة •

ولما كانت قبيلة الرواشد التى يتبعها سهيل هى أهم قبيلة فى منطقة الرمال الجنوبية فاننى لم أكن لأستطيع اجتياز الربع الخالى بنجاح دون مساعدتها •

كانت الأخبار التى ترد الينا من الربع الخالى تدعو الى التشاؤم ، فقد كانت قبيلتا الرواشد والصيعر مشتبكتين فى حرب مبلية • فالقبيلة الأولى هى التى أعلق الآمال على صداقتها أما الثانية فقد كانت العدو التقليدى لقبيلة الرواشد بمنطقة حضرموت الشمالية • وبالتالى فان أقرب المناطق الداخلية الينا أصبحت بؤرة للخطر أو ما هو أدهى من ذلك • ومن هذا تبين لى أن سهيلا الذى كنت أعلق عليه الآمال فى هذه الرحلة قد لا يستطيع اختراق الحصار المضروب على المنطقة لكى يصل الىّ مع مجموعته •

فقبيلة سهيل اما أن تكون الآن مشتبكة فى قتال أو أنها انسحبت الى أعماق الصحراء طلبا للنجاة • وهكذا بدا الموقف غاية فى الخطورة وأصبح الطريق الى الصحراء مسدودا فى وجهى •

وبذلك سدت الطرق أمامى ولكنى علمت أن اثنين من قبيلة الرواشد هما « معيوف » و « خويتم » قد وصلا الى ظفار ، بمناسبة حلول موسم اللبان ، فأرسلت أطلب حضورهما الىّ • فقد تصورت أنه على الرغم من أنهما قد فقدا الاتصال بقبيلتهما غير أنه من المحتمل أن تكون لديهما بعض الأخبار والمعلومات عن الوضع بالصحراء •

وعلى أية حال فقد كان من الصعوبة أن يكسب الانسان ثقة العربى دون أن يبادله هذه الثقة من جانبه • ولكن لم أكن لأستطيع أن أكشف عن خطتى ولهذا فقد قضينا أياما عديدة ونحن نناقش الأمر فيما بيننا الى أن تأكد لى أن قبيلة الرواشد مقيمة فى أحد المناطق التى تبعد مسافة لا تقل عن مسيرة شهر ، الا أنها ليست فى وضع يسمح لها بمغادرة المخيم الذى تقيم فيه •

فكرت فى تجهيز فرقة أخرى تحملنى الى بعض عيون الماء الواقعة على

حافة الصحراء حيث يحتمل وجود ثلاث من هذه العيون ، وأن أعهد الى قبيلة الرواشد بانتظارى هناك لتأخذنى الى وجهتى وقد بنيت هذا القرار على أساس العلاقة السابقة التى تربطنى بهذه القبيلة وما لمسته من استعداد لديها لمساعدتى .

وعلى أية حال فمن التجارب التى عانيتها فى رحلتى فى العام الماضى فقد كنت أقدر تماما ما يحيط بمثل هذه الرحلات من متاعب وما يتعرض له روادها من أخطار حتى مع عدم وجود أية حرب قائمة فى المنطقة . وعندما كشفت عن جانب من خطتى لنائب والى ظفار أحسست بأنه يحاول مجاملتى . وعلى أية حال ففى هذه المناطق لا توجد سلطة عليا يمكنها فرض ارادتها . وهكذا بدأت أشعر بأن القيام برحلة مع أشخاص كهؤلاء سيكون ضربا من الجنون . وازاء جو العداء الذى كان يحيط بالرحلة والذى كان ينذر بأن الخطط الطموحة التى أعددتها بعناية فائقة وأحطتها بالكتمان الشديد خلال العام الماضى أشرفت على الانهيار .

فهل كان من الحكمة والحالة هذه أن أضع ثقتى فى مثل هذين الشخصين ؟ . لقد كان الحل الوحيد هو أن أحاول كسب « معيوف » وزميله واقناعهما بالموافقة على ارسال رسالة الى شيخيهما أناشده فيها باقناع بعض رجال قبيلته بمرافقتى فى هذه الرحلة ، وكان الوضع يتطلب قرارا حاسما .

وهكذا كشفت لهما عن الخطة بعد أن أخذت عليهما عهداً على ذلك ولوحت لهما بمكافأة سخية . وعلى هذا الأساس تم توقيع اتفاق بينى وبينهما تعهدا فيه بتنفيذ المهمة وقالا : انه اذا كتبت لهما النجاة من قبيلة الصيعر فانهما سوف يفتشان الصحراء شبرا شبرا حتى يعثرا على قبيلة الرواشد ، وبذلك يحققان مسعاهما ليحصلا على المكافأة التى وعدتهما بها فى حالة النجاح .

وعندما خرجا مودعين كانت لهجتهما الى حد كبير تبين معدنهما الصلب

وقوة ارادتهما ، وقبل أن يغادر « خويتم » ناديت عليه وسلمته بندقية هدية منى اليه ، فتناولها من يدى وأخذ يتفحصها بدقة ثم قال : ألا تعطينى ذخيرة معها ؟ فهل كان طلبه من قبيل الطمع أو هى مجـــرد عفوية الفرد البدوى وأســـلوب حياته ؟ •

تأجل القيام بالرحلة الى ما بعد صلاة الظهر ، ولما كان صبرى قد نفد فقد طلبت بأن نتحرك على الفور ولكن المجموعة لم توافق • وقال خويتم : •• الســـــنا مســـلمين ؟ •

وهكذا تحركا فى طريقهما الى منطقة الجبال حيث كان هناك أحد زملائهما ويدعى « سالم طمطيم » ، وكنت أعرف سالما هذا لأنه كان قد رافقنى فى رحلتى السابقة وكان الغرض من التوجه اليه أن يزودهما بأفضل أنواع الجمال ومن هناك يتسللان سراً الى الصحراء • أما اذا استطاعا العـــودة ببعض رجال القافلة فان هذا ما أتمناه وإلا فان الفشل سيكون من نصيبى • حقاً لقد كان مصير الرحلة فى هذه اللحظة معلقا بخيط رفيع للغاية • ولم يعد أمامى إلا أن أبقى هنا منتظرا يحدونى أمل ضعيف فى نجاح المهمة التى جئت من أجلهـــــا •

الفصل الثانى

ظفـــار والكرم العـــربى

كان المنظر تحت نافذتى يرسم صورة رائعة لصفوف من أشجار جوز الهند • وغير بعيد من الشاطىء كانت ترسو احدى السفن التى وصلت لتوها بحمولاتها من التمر ، وكعادة البحارة أخذوا يطلقون بنادقهم فى الهواء كى يعلنوا عن وصول سفينتهم الى البلاد • ولم تكن هذه السفينة غريبة عن ظفـــار •

وعلى شاطىء هذا البحر تمتد منطقة ظفار وهى تضم سلســلة من الجبـــال ترتفع الى نحو ثلاثة آلاف قدم تمتد على ساحلها من الشرق الى الغـــرب •

وتعـــد ظفار من المناطق المحظوظة . فهى تتميز بمناخ فريد ، اذ تهب عليها الرياح الموسمية القادمة من الهند خلال شهور الصيف فتتسبب هطول أمطار غزيرة عليها وتحيلها الى فردوس منيم . وعلى هضاب هذه المنطقة تنتشر أشجار اللبان التى يرجع لها الفضل فى شهرة هذه المنطقة ، فهذا المحصول الثمين مصدر رخاء منطقة ظفار[1] على مر العصور . وظفار تلك التى نعنيها هى غير « ظفار الريان » التى تقع فى اليمن والتى أشار اليها أبو الفـــدا خطأ •

---

(١) .. ظفار كلمة لها معنى محدود . فهى تطلق على عاصمة المنطقة التى تسمى سلالة ، والحاضة ، والحســـن ، ومن عادة البدو اطلاق مثـل هذه الاصطلاحات على مناطقهم كتسميتهم « البقوف » بالاحساء ، والدوحة بقطر .

(منظر لشـــارع فى ظفـــار)

وتستوطن ظفار قبيلتان رئيسيتان هما قبيله « القرا » التى تقيم فى منطقة الجبـــال ، وتعتمد فى حياتها على الرعى وزراعة اللبان ، وقبيـــلة « انكثير » التى تعيش على الصيد والزراعة فى القرى الواقعة على السهل ، وعندما يضطرب البحر فى شهور الصيف الممطرة وتهب العواصف ويتعذر الصيد • تهاجر[١] هذه القبائل من السهل الى المرتفعات حيث تتوفر المراعى ويحل موسم حصاد اللبان •

فى هذه المناطق تكثر الآبار قليلة العمق وهناك فرصة لحفر آبار ارتوازية يمكن أن تحيل هذا السهل الى مجموعة من المزارع الخضراء والحقـــول النضرة ، وتنتشر هذه الآبار بين مزارع جوز الهند ويقوم على ادارتها الجمال أو الثيران • وهى تروى كذلك مزارع قصب السكر والخضروات والموز والحنطة والشعير والقطن والنيلة •

وتفرض الحكومة على المزارعين ضريبة نوعية عبارة عن نسبة معينة من المحصـــول •

أما الأمجاد التاريخية لظفار فهى محدودة ببعض الفترات بدءاً من العصر الاسلامى عندما حكمها محمد بن أحمد المنجوى ، الذى لاتزال آثار عاصمته قائمة الى اليوم على ضفاف بحيرة « رورى »[٢] • ويعد المنجوى من

---

(١) .. لهذه الهجرة مثيلتان : هجرة السكان الى مناطق الحصاد صيفا فى عمان ، وهجرتهم الى ساحل عمان للصيد خلال شهور الصيف ايضا .

(٢) .. ان آثار خور رورى .... هى التى تشغل من باب الاحتمال موقع ميناء موكشاى .... أما علماء الجغرافيا العرب فلهم رأى آخر حيث يعتقدون أن موقع الميناء البحرى القديم وعاصمة المنطقة هى مرباط . وقد استمر العمـــل فى الميناء حتى القرن العاشر من عصرنا . وتقع مدينـــة مرباط على بعد عشرين ميلا الى الشرق من نظيرتها السابقة التى كانت فى الموقع المشـــار اليه . ويطلق أهل الشحرة كلمة مرباط بـــ « حاسك » مما يبدو أنها احتفاظ لاسمها الأصلى (موشكا) .

أهم الشخصيات التاريخية المرتبطة بالمنطقة والتى يتردد ذكرها على لسان المواطنين وتنسب الآثار الموجودة فى هذه المنطقة الى عهده .

بعد المنجوى . حكم المنطقه سالم بن ادريس الحبوضى . وذلك فى عام ١٢٧٩ بعد الميلاد وبسبب موجه الجفاف التى أصابت حضرموت موطن سالم ... نزح فجأة الى ظفار . يدفعه من ناحية حبه الى هذه البلاد . ثم طمعة فى الاستيلاء عليها .

وفى القرن السادس عشر ظهر الملك المظفر الغسانى الذى ينحدر من احدى قبائل صنعاء . ويعتبر قصره فى « البليد » من أهم الآثار الباقية فى سهل ظفار . ولقد عمت المنطقه فوضى قبلية استمرت نحو مائة عام . وأسفرت عن استيلاء أحد أفراد عشيرة الكثيرى على السلطة . ثم تلا ذلك فتره أخرى من الصراع لم تبرز خلالها أى شخصية هامة . وامتدت طوال القرن الثامن عشر .

وفى بداية القرن التاسع عشر قام أحد السادة الذى يمتد نسبه الى الرسول صلى الله عليه وسلم واستولى على الحكم الذى دام نحو خمسة وعشرين عاما الى أن اغتاله أحد أفراد قبيله القرا .

هيمنة السلطان على منطقة ظفـــار :

وبعد خمسين عاما من هذا التاريخ وفى سنه ١٨٨٠(١) بعد الميلاد على وجه التقريب ظهر على المسرح فضل بن علوى . وقد بنى ادعاءه بحقه فى

---

(١) أن سلطة العمانيين كانت محيطة بظفار قبل هذا التاريخ بزمن طويل ولكن استقرت من عهد البوسعيديين .

(قلعة السلطان)

السلطة على أساس تفويض منحه اياه الحكام العثمانيون غير انه اقصى عن السلطة بعد فترة حكم قصيرة •

وكان من نتيجة ذلك ان قرر أهل ظفار اللجوء الى البيت الحاكم فى مسقط يعرضون عليه أن يتولى حكمهم • وسرعان ما تطور نفوذ آل بوسعيد فى هذه المنطقة تطورا كبيرا • ولقد رحب أهل ظفار بهذا القرار ايمـــا ترحيب •

وعندما جاء أهل ظفار يطلبون حماية أسرة آل بوسعيد كان على رأس الحكم السلطان تركى بن سعيد جد السلطان الحالى •• وكان من بين حاشية السلطان رجل اسمه سليمان بن سويلم كان موضع ثقة السلطان المطلقة •• ولمنزلته تلك فقد جعله مستشارا خاصا له وقائدا لقواته المسلحة وهو مركز لا يعد الوصول اليه أمرا مستحيلا بالنسبة للموالى فى شبه الجزيرة العربية ، وكان سليمان يتمتع بمركز مرموق فى أوساط القبائل العمانية ، لمـا كان يتميز به من الصفات النادرة ، اذ كان نزيها وشجاعا وقوى الشكيمة ــ ولئن كان الظفاريون قوما مطبوعين على تحدى الحكومة ، فانه لم يكن هناك شخصية أصلح من سليمان لتوطيد النفوذ العمانى فى ظفار بترويض أهلها وكسر شوكتهم ، فضلا عما يلقاه من التأييد من حكومة مسقط • ولكل هذه الاعتبارات رأى السلطان أن يضعه حاكما فى ظفار نائبا عنه •

وكان من أعوان السلطان رجل اسمه عبيد بن عيسى ، وكان محاربا قديما من الجنود الذين هاجروا الى ظفار منذ زمن بعيد واستقر هناك منذ ذلك الوقت ، وتدل تقاطيع وجهه على انه لم يكن من سكان الجنوب العربى • وقد نزح هذا الرجل الى عمان منذ حداثة سنه مثل كثير من مواطنيه الذين يسمونهم فى عمان بـــ « أهل الغرب » والتحق بجيش السلطان براتب شهرى مقداره ثلاثة ريالات ــ وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الوقت • وكان التحاق هذا

الجندى دعما قويا لحاكم السلطان فى ظفار ، التى كان الصراع للفوز بحكمها يدور بين عدد من الطامعين . ولم يكن هذا الرجل مقاتلا عنيدا فحسب ، بل كان جنديا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى كما لم تكن له انتماءات محلية فى هذه المنطقة .

صحب الوالى سليمان الى ظفار ، قوة مؤلفة من ثمانية عشر مقاتلا .. صحيح أن هذه القوة كانت صغيرة الا أنها مكنت الوالى سليمان من توطيد سلطته فى ظفار وقبل وصول الحامية الرئيسية المكونة من مائة جندى كان سليمان بالفعل قد استولى على الحصن المركزى بمعاونة مجموعة موالية له من الموجودين بظفار . وبمساعدة مولى له يدعى « بخيت » الذى تولى السلطة بعد مولاه « سليمان » .

ان الفردية هى الطابع المميز للعلاقات القائمة بين القبائل العربية وهى شىء متأصل فى وجدان الفرد العربى . ويرجع ذلك الى الدور الرئيسى للفرد ، وقلة اهتمامه بالوسائل والأجهزة . فحين تكون شخصية الحكومة أو الموالين لها هى الشخصية القوية تمضى الأمور على مايرام . ولكن عندما يختفى الأقوياء تعم الفوضى والاضطرابات .

وهكذا فعندما جاء الوقت الذى حل فيه عبد الله بن سليمان محل بخيت فى السلطة ورغم أن الأول وان كان من الأحرار الا أنه بسبب ضعف شخصيته ، تدهورت هيبة الحكومة وامتنعت القبائل بالتالى عن دفع ما عليها من مستحقات للدولة واستغلت ضعف الوالى الجديد أكثر مما اعجبت بتسامحه وهكذا قضى نحبه غير مأسوف عليه من أحد تاركا لخلفه — الذى كان قد أنزله فى ضيافته — مهمة اعادة تثبيت السلطة التى تخلى عنها .

وفى ظفار وقفت يوما فى شرفة حصن ظفار أستعيد ذكرى المشاهد التى مرت بى . فجىء بعدد من الخيول الى الحصن وكانت من النوع النادر الوجود فى هذه المنطقة وعلمت أنها انتقيت من مجموعة الخيول التى يمتلكها السلطان الذى كن مولعا بظفار وبرحلات الصيد والقنص التى كان يقوم بها وكان يقضى فيها غالبية شهور الصيف .

فى هذا اليوم توجهت الى صلالة لمقابلة مع سعد عبد العزيز الذى كن يعتبر أغنى تجار المنطقة وكان من أصل مغمور . وكان طريقى الى هذا التاجر يمر عبر السوق الصغيرة خارج المدينة . ومن خلال صفوف من أشجار جوز الهند (يحل جوز الهند فى ظفار محل النخل فى الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية) . وحقول القطن والنيلة ومنها عبر السهل المطل على صلالة . وكانت المبانى العالية المتعددة الطوابق والمبنية من الأحجار المنحوته من تربة السهل تشكل منظرا ساحرا فضلا عن الزخرفة والتشكيلات[1] المنوعة والتى كانت فى مجموعها رمزا لعصر من العصور . الا أن هذا المنظر كان مناقضا تمام التناقض للأكواخ والمساكن المتواضعة بالمناطق الداخلية وكان منزل مضيفنا سعد يرتفع كقصر منيف فى واجهة البلدة . ورغم انه قصر فقد كان به كثير من الذباب وروائح حظيرة الماشية ، وكان الجزء الضيق من الدرج يؤدى الى جناح الضيوف بالطابق العلوى .

---

(١) تعتبر زخرفة السقوف التى تسمى بلهجة اهل المنطقة بـ « القباشير » السمة المميزة للبيوت الكبيرة وتم هذه الزخرفة فى زوايا السقوف وفى الأطراف وهى تشبه الزخرفة التى كانت سائدة فى بترا ومعان فى عهد النبطيين . وقد علمت بأن هذا النوع من الزخارف منتشر فى منطقتى الشحر والمكلا وغيرها من مناطق حضرموت ولكنى لم ارى ما يشابهها فى عمان .

وهو عبارة عن غرفة واسعة مسقوفة بها عدد كبير من النوافذ بلا زجاج لأن الزجاج غير معروف هنا[1] .

كان الأثاث قليلا ولكنه كان فاخرا . وكانت أرضيات الغرف كلها مغطاه بالسجاد الجميل . وكان على الحوائط نحو دستة من المرايا كل واحدة منها بحجم الانسان تحيطها اطارات ذهبية ... وكانت زخرفة الحوائط بدائيه الطراز . كما علقت عليها أرفف مليئة بالمباخر الفضية وأوانى القهـوه ومزهريات ذات ذوق بدائى .

دخلنا القاعة صفوفا ، ثم جلسنا على الجوانب الأربعة وقد اختصنى المضيف بمكان بارز بين المدعوين حيث توجد صفوف من الوسائد تعـد بالمقاييس الشرقية غاية فى الذوق والجمال بألوانها الجذابة . وأوشيتها الزاهية وكان المضيف وخدمه يقفون الى جانب مائدة صفت فوقها أكواب شراب اللوز وغيره من أنواع الشراب الملون المقدم للضيوف . وكما جرت العادة فى الأوساط القبلية فى شبه الجزيرة العربية لم تشترك واحدة من سيدات ونساء المنزل فى تلك المأدبة ، ولم أر سيدة على الاطلاق . فالطبقة الراقية من سيدا تالقصر كن متواريات وراء الجدران لا يظهرن قبل أن يغادر الضيوف المكان . والسيدة الوحيدة التى شاهدتها كانت احدى جوارى القصر وكانت تقف فى البهو ترقبنا من طرف خفى ، وكانت سافرة الوجـه .

وكان يجلس بجانبى سالم السيل وهو كذلك من تجار ظفر . وكان رجلا ورعا ويعتبر نفسه سيد رفاقه ، وكان الرجل فى نحو الثمانين من عمره

---

(١) تستعمل جذوع اشجار جوز الهند سوجه عام فى عمل شبش النوافذ والشبابيك وكدعامات لسقوف المنازل وهى تؤية الاحتمال وتناسب هذا النوع من الاستخدامات على عكس جذوع النخيل الكثيرة الأنبات التى يشيع استعمالها فى داخل عمان .

وكان بصره ضعيفا • وخلال تبادلنا الحديث أبدى اهتماما بالأحداث العالمية ، عندما سألنى عما اذا كانت هناك حرب دولية الآن ؟ وما الذى حدث للألمان ؟ وهل الايطاليون أصدقاؤكم ؟ •

وربما كانت العلاقة بين أهل ظفار والصومال التى لها علاقة بالوجود الايطالى فى الحبشة هو السبب فى اهتمامهم بالايطاليين وغيرهم من الأوربيين • وأثناء وجودى كان معظم الحديث عن الايطاليين وحسن ادارتهم • وفى هذه الأثناء كان أحد شيوخ الجبل يقف معنا ويشارك فى الحديث وكان حديثه ممتعا • وقد سألنى :

لماذا أنتم أيها الأوربيين كبار الحجم بينما نحن لسنا كذلك ؟ فأجبت لعل سبب ذلك المناخ والتربة •

فقال ان العالِم هو الله • اننا أصغر قامة من أجدادنا ، انظر الى القبور فى منطقة خور رورى تجد أن طول الواحد منها عشرون قدما ، لقد كانت أجسام أجدادنا بهذا الحجم وتلك القامات ، فأومأت اليه بالايجاب مؤكدا على قوله : الله العالم فعلا • حتى لا أمس شعوره الدينى •

ثم دارت علينا فناجين القهوة وبعدها جاء دور البخور (اللبان) وكانت المبخرة تنتقل من ضيف الى آخر يطوف بها أحد الخدم ، كما هى العادة المتبعة فى عمان ثم وضعت المبخرة على الأرض والدخان يتصاعد منها ، ورغم ان هذه البلاد بها أجود أنواع اللبان ، الا أن مضيفى كان يستعمل نوعا آخر من البخور المستورد ، وهو حطب العود الذى يشبه خشب الصندل والذى تستخدمه الكنائس فى أوربا • وهناك مثل عربى دارج يقول : « بعد العود لا قعود » • ومعنى هذا ان على الضيف أن يغادر المكان بعد تقديم البخور •

وقد أراد المضيف مجاملتى فقال : « نحن نأمل ان تكون اقامتك معنا

طويلة » وكان يقصد بهذه العبارة رغبته فى أن يستطلع أخبارى • فأجبته بأننى فى إجازة لمدة شهرين • وقد عرض على الشيخ حسن أن يصحبنى الى منطقة الجبال فى الأسبوع التالى ، فى رحلة للصيد ، وكان أمله كبيرا فى اصطياد بعض الفهود والوعول •

عندما صحوت من النوم فى اليوم التالى ، وكنت منهمكا فى ملء ساعتى الـ « كرونومتر » وضبطها ، سمعت بعض النسوة تغنين وتقرعن الطبول ، فأردت أن أستطلع الأمر ، فقيل لى إنها حفلة تقام كل صباح ، عندما يكون سلطان البلاد أو أحد الضيوف البارزين موجودا بالقصر •

الفصل الثالث

رقصة الشيطان وعملية فحص الجماجم

كان السؤال الذى يتكرر توجيهه الىّ من عرب الصحراء ، هو السؤال عن هويتى ومن أى العرب أكون وكلمة العرب تعنى القوم أو جنسية الشخص ، لا بمعناها العرقى . غير أن السؤال أثار بدوره سؤالا آخر ، هل العرب من الناحية العرقية كلهم من أصل واحد ؟ . هذه النظرية على أى حال لا يؤيدها كل من العالم « جليسر » والرحالة « بيرتون » .. فعلى حين يعتقد الأول ، أن العرب ليسوا من أصل سام ، وانما هم أصل حام ، فان الأخير أشار الى أنه قد جمع من الأدلة القاطعة ما يثبت أن العرب ليسوا كلهم من أصل واحد وانما ينحدرون من ثلاثة أصول عرقية متباينة عن بعضها البعض ، فان افتراضات الرحالة « بيرتون » بوجود ثلاثة اختلافات فسيولوجية تكفى لوضع نشأة العرب موضع التساؤل أما رأيى فان الفوارق التى أشير اليها قد ظهرت فى الأجزاء الوسطى من جنوب الجزيرة العربية وهى ليست فوارق فسيولوجية فحسب وانما فوارق لغوية وثقافية بحيث انها تمثل تحديا للقائلين بأن شعوب جنوب الجزيرة العربية تؤلف وحدة عرقية متكاملة .

لقد جئت الى هذه المنطقة تحدونى رغبة فى الحصول على مقاسات لجمجمة الانسان العربى لأن هذه المقاسات قد تساعد بعض الباحثين فى أصول الأجناس والسلالات البشرية . كما ان الملاحظات الظاهرة للأجنبى المقيم فى شبه الجزيرة العربية لفترة طويلة لابد وأن تطبع فى ذهنه وبغير وعى منه القسمات المضوية لسكان المنطقة بحيث تظهر له الفوارق الحادة فى السمات العرقية لهؤلاء الناس من خلال مخالطته لهم ، ولقد كان من نتيجة اقامتى المتكررة فى منطقة شبه الجزيرة ابتداء من عام ١٩١٥ حيث

تقلبت فى عدد من المناصب الرسمية فى العراق والأردن والخليج أن تكون لدىّ اهتمام بسكان المنطقة الوسطى من جنوب شبه الجزيرة العربية وأعنى بذلك منطقة ظفار وذلك من واقع الاختلافات الجوهرية بينهم وبين العرب الآخـرين .

وفى هذا الصدد كتب الجنرال ميتلاند : المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ذلك الوقت يقـول :

ينحدر عرب شبه الجزيرة العربية على ما يبدو من أصلين مختلفين ومتميزين . فالنظرية السائدة عن قسمات العربى . هى أنه الرجل الطويل اللحية الأملس الوجه كالصقر . غير أن عرب جنوب شبه الجزيرة أصـغر قامة وأخشن تقاطيع وأكثر سـمرة وغير ملتحين تقريبـا ، وتجمع كافة المصادر على أن عرب الجنوب ينحدرون من أصل حبشى . ومع ذلك فيبدو من الغرابة بمكان ان نقرر أن المصريين وعرب القارة الأفريقية . هم العرب الأقحاح بين العرب الساميين ، أما عرب الشمال فهم عرب مستعربة أى انهم عرب بالتجنس أو الاستيطان أكثر منهم عرب بالسلالة .

بل ان علماء التاريخ العرب أنفسهم يذهبون الى أن العرب ينحدرون من أصلين : قحطان وعدنان ومع ذلك فان العرب الذين يقطنون الآن مناطق من شبه الجزيرة وينحدرون من أحد هذين الأصلين ينتمون فى الواقع الى سلالات متباينة . ومن ناحية أخرى . فان الاختلافات السلالية التى أشار اليها كل من « بيرتون » و « ميتلاند » و « جليسر » و « راتنجز » .. عن الجيل الحـالى والقبائل الواردة فى بحـوث هؤلاء العلماء حسب تحديدهم لها لا تتطابق مع العرب الذين ينتمون الى عدنان وقحطان .

ولا أتصور ان أحداً من الرحالة والعلماء الأوروبيين الذين أشرت اليهم آنفا له إلمـام بالمجموعات القبلية التى التقيت بها فى ظفار الأمر الذى

(جماعة من قبيلة بلغم)

(جماعة من قبيـــلة شاهارا)

(افراد من قبيلة راشد ومر ٣)

يؤكد أن هناك من الاعتبارات التى ترجح كون هؤلاء العرب من سلالات غير معروفة ..

ان الكتب والآثار المتخلفة فى هذه المناطق الجنوبية الغربية من الجزيرة تدل على وجود حضارات سبئية أو معينية قديمة قد اندثرت قبل ظهور الاسلام فى القرن السادس بعد الميلاد . كما ان هناك آثارا لمستعمرات اغريقية وآرامية ، كذلك فقد تعرضت هذه المنطقة للغزو الحبشى والرومانى خلال تاريخها . فمن يكون هؤلاء العرب يا ترى ؟؟ لو افترضنا ان الاجابة على هذا السؤال من اختصاص علماء الأجناس ، كما هو الأمر فعلا ، فان جمع الأدلة والمعلومات عن عرب الجزيرة العربية يعتبر أمرا هاما وعلى الأخص خلال هذه الرحلة التى أقوم بها .

فى البداية كان يراودنى أمل كبير فى أن أنجح فى الحصول على بعض الجماجم البشرية القديمة وارسالها الى انجلترا . غير أن الإقدام على هذه الخطوة ينطوى على بعض المخاطر لأنه يثير الشعور الدينى لعرب الجزيرة ، حيث أن حفر القبور واستخراج جثثها أمر لا يقره المسلمون . ولقد لاحظنا نفس الشىء أثناء اقامتنا فى العراق خلال الحرب العالمية الأولى ، عندما حاول بعضنا السير بعربته فوق بعض المقابر . ولنفس الأسباب لم يسمح لنا بالمرور فى بعض ضواحى منطقة « ديكور » التى كنت فيها فيما بين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٨ وذلك لوجود بعض الأضرحة والمقابر فيها .

أما أثناء رحلتى خلال عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠ فقد كنت أحسن حظا اذ بينما كنت فى منطقة حاسك مررت بأحد الكهوف ويبدو ان بعض الحيوانات المتوحشة قد هاجمت ذلك الكهف فى وقت من الأوقات وكان الوقت نهارا ففكرت فى التوقف فى هذا المكان واخترت منطقة قريبة من الكهف ولم يعرف أى انسان بأن الجمجمة التى كانت فى ذلك الكهف قد انتقلت الى خيمتى ، ولكن عظمة الفك لم تكن فى الجمجمة كما ان القسم الأكبر من الهيكل لم يكن

موجودا • وقد أخذت هذه الجمجمة معى الى مسقط ، ومنها الى كلية الجراحين الملكية فى لندن •

وعلى أية حال فقد كانت العودة الى ظفار لفحص الجماجم البشرية ودراستها موضوعا تحيط به الصعوبات وذلك لعدم توفر ما يصلح لهذه الدراسة ، ويعتقد المتشددون الدينيون منهم أن ملامسة غير المسلم لهم يعتبر رجسا • ومن ناحية أخرى فإننى قد لا أستطيع فى هذه المنطقة الصحراوية أن أجرب أجهزة قياس الجمجمة على الجدو لأن مثل هذا العمل لابد أن يثيرهم وقد يثير أحدهم حنجرة فى وجهى • وذات مرة عندما حاولت اخراج الكاميرا [illegible] أحد [illegible] فى ظفار فقد كنت أشعر بشىء من الأمل حيث أستطيع أن أمارس ذلك من وراء الأبواب المغلقة على السجناء والحراس وغيرهم من أصدقائى [illegible] ، ويتعلمون هؤلاء وغيرهم من التجار الأجانب المستقرين [illegible] من [illegible] وأربعين تجربة [illegible] الصور لنماذج مختلفة من الرجال •

وخلال هذه التجارب [illegible] من الحوادث [illegible] من الناحية [illegible] لأن [illegible] ذوى الشعر الأشرب [illegible] بحبات الرمل [illegible] من الأتربة [illegible] بزيت جسور [illegible] • وفى [illegible] الذين يأتون الى ظفار من [illegible] المحلات الصغيرة والعمل فى تجارة اللبان •

[illegible] على أية حال [illegible] الأجناس [illegible] لا [illegible] الوجهة الانثروبولوجية [illegible]

عليها . وقد تأكد لى هذا بعد فحصهم مباشرة فقد كانت أنوفهم مفرطحة وجباههم تدل على أنهم من الزنوج • وقد سألت أحد الصوماليين الذى كان يعمل عسكريا عن أصله وما اذا كان متأكدا من أنه من سلالة عربية ، فأجاب بأنه يعتقد ذلك . وقال بأن الحقيقة لا يعلمها الا الله ثم والدته • وقد ضحك وهو ينطق بهذه الفكاهة عندما كان يغادر المكان ووعد بأن يأتى مرة أخرى فى اليوم التالى مصطحبا عددا آخر من زملائه الذين قالوا بأنهم من سلالة أنقى •

بعد ذلك جاء دور عسكر الحكومة وهؤلاء أصلهم من حضرموت أو عمان وهم يهاجرون الى ظفار للعمل فى خدمة الحكومة مثل زملائهم القدامى •

ويطلق العمانيون على هؤلاء اسم الحضارم وكان يوجد منهم فى ظفار نحو عشرين شخصا ولهذا كان من السهل أن أختار نحو ستة من أصل قبلى فحص •• وكانوا من الزيديين ومن بيهر ومن آل سعد وهى فصائل من اتحاد قبائل ياضع • وقد قمت بفحص هؤلاء ولكنى عرفت منهم أنهم يعترضون تسميتهم بالحضارم قائلين بأن الحضارم من أصل وضيع من الشحر ، وغيرها من المجموعات مجهولة الأصل القبلى وقالوا بأن القبليين الأصليين هم أولئك الذين ينحدرون من أحد الاتحادين القبليين المتنازعين ياضع وهمدان •

فى اليوم التالى تقدم للاختبار « على خبعان » •• وهو بدوى من قبيلة الشماشمة التى تسكن المناطق الصحراوية الشمالية من حضرموت • وكان على ينحدر من أصل عربى عريق وكان أحد المرافقين لى فى رحلة العام الماضى الى مقشن وقد اصطحبته فى هذه الرحلة كذلك بسبب معرفته الواسعة بشئون الصحراء كما كان ملما بمناطق الحدود الجنوبية إلماما تاما •• وكان على هذا قد اغتال أحد أفراد قبيلة الرواشد ولكنه تمكن من الاختفاء بسيدة من القبيلة فنجا بذلك من القصاص •

وقد طلب موافقتى على سفره فى رحلة الى جبال القرا لاستلام أربعة أغنام من قبيلة بيت كثير وهى الدفعة الواجبة من الفدية التى يؤدونها اليه بسبب اغتيال ابنه قبل سنة على يد أحد أفراد هذه القبيلة .

وقبل أن يغادر طلب منى خمسين طلقة من الذخيرة ، وليس هذا الطلب بغريب على هؤلاء القوم فالبدوى قد يطلب منك أن تضع القمر بين يديه .

ولكن رفضت طلبه لسجله الحافل بالاغتيالات والمذابح . لقد اغتال هذا الرجل ما لا يقل عن خمسين رجلا ، كان آخرهم من قبيلة العوامر ، قابله فى الصحراء قبل ثلاثة أعوام فاغتاله طمعا فى بعيره ، ولكن البعير نفق أثناء الرحلة الى ظفار ولهذا لم يبق أى أثر لهذه الجريمة التى ترجع بواعثهـا على حد اعتقادهم الى ارادة الله . أما على فلم يشعر بأى نوع من تأنيب الضمير وان كان لم يعد يجرؤ على مقابلة أى فرد من أفراد تلك القبيلة .. ولكننى اقترحت عليه أن يصحبنى فى رحلة صيد الى المنطقة الجبلية ووعدته بمكافأة مالية ، وقد صارحته بأنى لا أستطيع تسليمه أى ذخيرة لأنى كنت أتوجس منه الشر دائما ولا أريد أن أكون بذلك شريكا له فى جرائمه .

فعلق قائلا : ولكن قل لى كيف يمكن للانسان أن يعيش اذ لم يقم بهذه الأعمـــال ؟ فقلت : يعمل مزارعا مثلا أو يزاول صيد الأسماك . وهنا رمقنى بنظرة شذراء وقال هذه ليست مهنة الرجال .

— اذن فما هى مهنة الرجال ؟ .

— انها الخنجر والبندقية .

— ان هذا قول سخيف ، أنا أفهم أن يقاتل الانسان فى سبيل هدف مشروع . لعلك لا تعرف كيف أصبحنا نحن البريطانيين أقوياء الى

هذه الدرجة . لقد حققنا هذه القوة عن طريق العمل ثم كيف تتصور الطريقة التى صنعنا بها البواخر والمدافع والقنابل ؟ .

ـ انكم صنعتموها بالمـال .

وهنا أيقنت انه لا فائدة من المضى معه فى هذا الجدل .. ثم عدت أقول له : يا على لو ان كل انسان أعتمد فى حياته على الخنجر والبندقية كما تقول أنت فمن أين يأتى بالطعام ؟ اننا مدينون فى هذا الى الزارع والصياد ... ولكن من المستحيل أن يقبل البدوى مثل هذا المستوى من الأعمـال ... أما عن الصيد فقال على انه من المستحيل بالنسبة اليه . وأما عن الزراعة فقال انه سوف يطلب من السلطان تيمور أن يمنحه قطعة من الأرض الزراعية ويستخدم أحد الأرقاء فى حرثها وزراعتها ... فسألته وما الذى يمنعك أنت من زراعتها وحرثها ؟ . فأجاب : كلا سوف أدفع للأجير مقابل عمله فى الأرض وسوف أعيش على ما تغله من محصول .

أعطنى خمسين رصاصة أيها الصاحب .. ثم حل حزام ذخيرته لكى يرينى بأن الحزام كان فارغا ، ولكنى ابتسمت لهذا التناقض بين فقره المدقع وتفاؤله الكبير ... فعاد على ضبعان يقول : اننى أفضل الذخيرة ألف مرة على الجمل أو الناقة لأن الجمل قد يموت ولكن بالذخيرة أدفع عن نفسى أى أذى أو اعتداء ، أو أصطاد بعض الحيوانات عندما أشعر بالجوع ، قلت : كلا يا على . تعال إلىّ غدا وستقبض منى ثلاثة ريالات بشرط أن تحسن التصرف وأنت فى الجبل ، والا سيكون هذا آخر لقاء بينى وبينك . فقال أرجو أن تطلب من السيد تيمور أن يخصص لى مرتبا شهريا وسوف أكف بعد ذلك عن هذه الأعمال ، وأصبح صديقا للجميع .

ولقد سمعت ذات مرة ضجة فى الخارج وبعدها دخل علينا أحد الجنود وهو يقول : « الزنوج .. الزنوج » ، وعندما اشتد قرع الطبول أدركت أن الموكب بدأ يقترب من الحصن فخرجنا نشاهده .

ان الزنوج من الطوائف السهلة التكيف . فهم تشكل أكبر الطوائف في مجموع سكان نفار ، ولكن عوض من عبيد العصر . أكثر الذين يحتفظون بالاحترام داخل طائفته . وهم بمقتضى الأب لهم وتلقت جميع خلافات ومنازعات الزنوج تعرض عليه ليفصل فيها وهو له مساعد يعاونه في تحمل هذه المسئوليات .

وتعتبر بقية أفراد الطائفة بمثابة أبناء وبنات له ولكن لفظة الأب عندما تطلق على العجزة وكبار السن لا تعطى هذا المدلول .

وعلى العبيد أمور محظورات . فلا يجوز لأحدهم مثلا أن يلمس حيوانا ميتا فيما عدا الذبائح المذبوحة بالطريقة الشرعية . ولو نفقت احدى الماشية فان سيد البيت هو الذى يقوم بدفنه فى الخارج كما لا يجوز لعبد من عبيد القصر أن يجر جثة الحصان الميت ليلقى بها خارج القصر ، ومخالفة هذه القواعد لها عقوبات محددة ومن هذه العقوبات خصى العبد والتى يتم تنفيذها بصورة علنية . ويسبق ذلك اعلان بمكبر الصوت ، وهذه المكبرات عبارة عن محارة كبيرة ينفخ فيها ، ولا تقبل لهذا العبد توبة كما لا يمكنه أن يسترد وضعه السابق بين أفراد طائفته إلا بعد ذبح أحد الخراف ، وبعد أن يقوم العبد المعنى بغمس أحد قدميه فى دم الخروف .

وأعتقد أن الزنوج من الطوائف المعتدلة القناعة ولهم وجوه سمحة بشوشة لا تجدها فى سادتهم . ولهذا فانهم يقضون معظم أوقاتهم فى الغناء والرقص غير مكترثين بحقوقهم الاجتماعية والسياسية ، ووضع الخدم فى هذه المجتمعات لا يقل مستوى عن وضع الأحرار . واذا اتخذنا هذا الرأى مقياسا للحكم على وضع الخادم ليس سيئا الى درجة كبيرة ، وان المستوى المعيشى العام فى هذه الأقطار منخفض الى حد كبير . وبكاد يكون فوق مستوى الكفاف بقليل فانه من مصلحة السادة ان يتكفلوا باعالة خدمهم الى جانب اعالتهم لأنفسهم .

والفرق الأساسى بين الخادم والسيد فى هذه البلاد هو فى نوعية العمل . ففى بلاد الكسالى يقوم الخادم بالعمل اليدوى أو العضلى بشرط أن يكفى انتاجه من هذا العمل لاعالة سيده ونفسه . ويبقى على السيد أن يتأكد من أن الخادم يقوم بعمله خير قيام . وحتى لو كنت هناك فوارق حادة فى عائد العمل فى الولايات الجنوبية الأمريكية أو فى مستعمرات الهند الغربية قبل الغاء الرقيق ، فانه كان يعتبر فرقاً وهميا .

ان الخدم فى هذه البلاد يتمتعون بحقوقهم الاجتماعية الكثيرة .. فالخادم مثلا يعيش فى أمان من قوانين الثأر التى تطارد رجال القبائل الأحرار ، واذا وقع أسيرا فى احدى المعارك التى تنشب بين قبائل العرب فانه لا يقتل . صحيح انه فى هذه الحالة قد يصبح أسيراً وقد يبيعه سادته الجدد الى آخرين ، الا أن ذلك لم يكن يؤدى الى أن تسوء أوضاعه المادية أكثر . أما فيما يتعلق بالجوارى فانهن يتمتعن بحرية اجتماعية أكبر من تلك التى تتمتع بها المرأة العربية الحرة . فالحرة فى معظم الأحيان تتزوج فى سن مبكرة الى زوج يختاره والدها أو ولىّ أمرها دون أن ترى زوجها أو يؤخذ رأيها فيه وبعد الزواج تظل حبيسة البيت طوال حياتها باستثناء بعض الأوقات التى يسمح لها فيها بالخروج ، ولكنها تكون متحجبة من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وتزداد عزلتها هذه كلما ارتفع مستواها الاجتماعى كما أنها لو ارتبطت بعلاقة جنسية بشخص غير زوجها — وهى فى ذلك على نقيض الجارية المحررة قد تدفع حياتها ثمنا لهذه الخطيئة .

أما الجارية فهى امرأة خالية البال ، حتى لو تم زواجها عن طريق سيدها لمن يختاره لها فهى تستطيع الخروج سافرة والتعرض للرجال والتحدث الى من تشاء منهم دون قيد أو حرج .

وفى أثناء حفل الرقص الذى أقيم بعد ظهر ذلك اليوم كان يوجد بعض البدو الصحراويين جاءوا ليشاهدوا الحفل وعلى الرغم من أن هؤلاء مسلمون .

إلا أن أحدهم لم يعترض أو يأنبه الضمير ازاء ما كان يجرى أمام عينيه . على عكس المسئول العمانى المتزمت الذى كان يرافقنى واذا كان من عادة سكان الصحراء أن يتطلعوا الى السماء متوسلين أن تجود عليهم بشىء من المطر الذى هو عماد حياتهم .. فمن الذى يمنع سكان المناطق الزراعية من أن يتطلعوا الى التربة لتجـــود عليهم بخيراتها . ومن أن تكون لهم طقوسهم أيضا ، لكن كلا الفئتين لا توافق على هذا الرأى .

وبالنسبة للطقوس الزنجية تلك ، فانها تقام عادة بعد مضى ثلاثة أشهر على وفاة أحد الخدم وهى تجرى فى منطقة تقع بالقرب من قرية « حافه » .. فى المناطق التى تكثر فيها أشجار جوز الهند وتضفى عليها منظرا جميلا . وقد استدرجنى صوت الطبول الى وسط الحشد . وفى وسط الســـاحة كانت توجد منطقة فسيحة ، فى أحد أطرافها كان يجلس ضاربو الطبول وأمامهم نار مشتعلة يستعملونها لشد الطبول . وكان بالقرب منهم بعض الشبان الأقوياء البنية المفتولى العضلات وهم شبه عرايا وهؤلاء هم الذين كانوا يتبادلون قرع الطبـــول .

وفى وسط الحلقة كان يجلس مطرب الحفل وكان يقوم بترديد شعارات الحفل وأمامه مجموعة يقفون فى صفوف لترديد الأناشيد التى يغنيها المطرب . وفى الوسط كان يجلس الزعيم الأكبر صاحب الحفل وكان يتحرك يمينا ويسارا يحمل سوطا يضرب به فى الهواء وكان حافى القدمين ويحاول ابعاد المتجمهرين عن وسط الحلقة ، وعلى بعد خطوات من هذه الحلقة يقع الممر الرئيسى المؤدى للدخول الى هذا المهرجان ، وكان هناك الى جانب ذلك مجموعات من الفتيان والفتيات يدورون حول الحلقة فى استعراض راقص ، وكانت الفتيات يتحركن فى ايقاعات مختلفة ، وكنّ فى مجموعات من الشابات الزنجيات السودوات كلون خشب الأبنوس ، وكانت كل واحدة منهن تغطى وجهها بغلالة شفافة تنسدل على كتفيها وكانت هذه الغلالة تكشف عن مفاتن وجوههن وأعينهن وشفاههن الحمراء وما كنّ يرتدينه من الحلى الذهبية كالأقراط وغيرها .

كما كن يرتدين ملابس جديدة صنعت خصيصا لتلك المناسبة ، ويتألف كل ثوب من قميص فضفاض مطبوع بالنيلة ، وكان الثوب يتألق تألقا شديدا تحت أشعة الشمس ، وكانت الفتاة تمسك بأحد طرفى الثوب بينما يدها الأخرى تمتد الى الأمام فى حركات بديعة منسقة . وعندما كانت ترقص كان رأسها ثابتا لا يتحرك فيميل يمنة ويسرة بينما كان جسدها يهتز أثناء هذه الرقصات . وكان أمام كل واحدة منهن شاب يحمل سيفا فى يده ويلتفت يمينا وشمالا ثم يعود ليقف فى مواجهة الفتاة ، وكانت هناك مجموعات أخرى من الزنوج كل مجموعة تتكون من ثلاثة أو أربعة شبان كانوا من وقت لآخر يصوبون بنادقهم ويطلقونها فى الهواء ثم يدورون حول الحلقة فى ايقاعات ورقصات تشبه رقصات الخيل . بينما أبصارهم مركزة أمامهم غير عابئة للجمال الذى يحيط بهم .

الفصل الرابع
فى جبال القرا وعين أرزات

نأجل القيام بالرحلة قرابة ثلاثة أسابيع فى انتظار عودة الرسل الذين أرسلتهم الى منطقة الرمال بغرض استطلاع الحالة هناك ، لكنه كان انتظارا بلا جدوى فلم أتلق اشارة أو خبرا من سهيل أو رفاقه .

وكانت تصلنا من حين الى حين أخبار عن نشوب حروب قبلية بين سكان المنطقة . ولقد شاع خبر رحلتى فى الأوساط التجارية وكان الفضول هو الذى يدفع الناس الى معرفة أخبارى . ولكى أضع حدا لهذه الاشاعات قررت أن أقوم برحلة الى جبال القرا . فهذه منطقة مجهوله حتى الان ولم يصل إليها أحد من المكتشفين غير الأخوين تيودور ومابل بنت .. ولكن جبال القرا منطقة مملوءة بالمنازعات والأحقاد القبلية . حتى أن جلالة السلطان أو نائبه لم يزوراها الا مرة واحدة .. كما لم يطأها قبلهما انسان ما .

هذه المنطقة هى مفتاح الطريق الى بحر الرمال . ولهذا فقد تصورت بأن زيارتى الى هذه المنطقة قد تعنى أكثر من مجرد ستار لمشروعاتى وخططى القادمة[1] .. والحقيقة أننى كنت أتطلع بفارغ الصبر الى زيارة منطقة

---

(١) رغم اننى كنت اشغل منصب وزير فى حكومه صاحب الجلاله سلطان عمان وكنت اول من نقل العملة النحاسية من عمان الى المنطقة الجنوبية وذلك فى عام ١٩٢٦ (فقد كانت المعاملات التجارية قبل ذلك التاريخ تجرى على اساس المقايضة) .. ؛ الا اننى لم تكن لى اية صلاحيات فى ظفار كما لم يكن حتى لمجلس الوزراء العمانى شيء من هذه الصلاحيات . لأن السلطان كان يعتبر ظفار ملكية خاصه . وكان يحكمها من خلال والى يقوم جلالته بتعيينه

الجبل لمعايشه سكانه والاقامة بينهم • وكان الدافع الى هذا هو التعرف على عادات أهل الجبل وتقاليدهم ومعتقداتهم وسلوكهم وطريقة حياتهم • ذلك أن هذه المنطقة فى الواقع تشكل حقلاً خصباً للدارسين فى السلالات البشرية • ولمعرفه ما اذا كانت هناك صلة ثقافيه أو لغوية بينهم وبين عرب الشمال أو بينهم وبين الجنوب الغربى • أو ما اذا كانوا هم وحدهم يؤلفون سلالة عرقية أخرى فى شبه الجزيرة العربية •

وهكذا حملت بندقيتى وتزودت بما يكفى من الذخيرة ، وبعدة الصيد • وبعض أدوات الجراحه • وبعض زجاجات من محلول الزرنيخ وبعض الصبون المعقم والقطن الطبى •• وبحكم موقع شبه الجزيرة العربية على حدود ثلاث أقاليم كبرى تعيش فيها أنواع عديدة من الحيوانات فانها لابد أن تستأثر باهتمام خاص للباحثين • ولأن متاحف العالم لا تحوى أى نوع من أنواع الحيوانات التى تعيش فى المنطقة الجنوبيه الوسطى من شبه جزيرة العرب • فان هذا الاحساس يضاعف من متعة الانسان بالصيد فى أرجائها •

وقد تعمدت ألا آخذ بندقيتى معى لأننى لو فكرت فى اصطياد بعض الطيور لأحملها معى فان هذا العمل قد يستهلك الكثير من وقتى ••

فى مسقط تخلف سكرتيرى العمانى على محمد لمرض ألم به ، وكان قد صحبنى فى الرحله الأولى فى سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، وكنت أعهد اليه بمهمة جمع الطيور التى أصطادها ، وكان الأمر يتطلب كتابة أسماء كل نوع من هذه الطيور والمناطق التى تعيش فيها والارتفاعات التى تصل اليها فى طيرانها ثم تحديد جنسها وتاريخ اصطيادها •

شخصيا . ونفوذ السلطان على ظفار هو نفوذ يمارسه شخصيا ولم يتخلله اى تدخل اجنبى وعلى الرغم من ان الحكم كان قبليا فى طابعه الا انه كان افضل النظم القبلية فى الجزيرة العربية •

وبالاضافة الى جمع هذه المعلومات كنت أواجه مشكلة كان لابد من ايجاد حل لها وهى كيفية توزيع الوجبات اليومية منذ الاستيقاظ ، واعداد الخرائط وكتابة الملاحظات ، ولكنى عن طريق التجارب استطعت أن أحل هذه المشـــكلة .

وعمليه كعمليه سلخ الجلود للحيوانات الثديية الكبيرة تتم باحداث شق طويل فى بعض أجزاء جسم الحيوان . وهذه مهنة كنت أعهد بها الى أحد البدو المرافقين وأتولى اللمسات الأخيره فى هذه العملية بنفسى . أما الجماجم فقد كنت أغمسها فى ماء مغلى ليتم تنظيفها من تلقاء نفسها .

أما بالنسبة للزواحف فقد كنت أقوم باستخراج الأمعاء قبل غمسها فى زجاجات محلول الزرنيخ . وكنت أوجه عناية خاصة للفراشات وغيرها من الحشرات . وبالنسبة للطيور الصغيرة ذات الأجنحه الرقيقة فقد كانت تأخذ منى وقتا كبيرا فى اعدادها ولهذا لم أعتمد على المعلومات التى زودنى بها صديقى الأستاذ ان بى كنبر .. صاحب المكتبة الواقعة فى شَوْث كنسنجتون . والذى كان لاهتمامه لمشروعى وتشجيعه لى فضل كبير فى هذه الهوايه التى جعلتنى أهتم بجمع هذه الآثار لمتحف التاريخ الطبيعى فى انجلترا .

توقفنا بالقـــرب من أحد الجداول تحت ظل غيضة ، لنأخذ قسطا من الراحة . وهنا شاهدنا قطيعا من البقر يخوض فى الماء على مهل وينظر الينا فى ذعر . ويصعد ماء هذا الغدير الى قرية ملواح المعود على ارتفاع ميلين من سطح الأرض وتحيط بهذه القرى الأشجار من كل جانب . ورأينا بعض النباتات والطحالب ومن هنا يستأنف الجدول مجراه فى مهل مارا بالمنحدرات التى يبدأ منها فى تغيير خط مجراه نحو السهل عبر طريقين يتجه الأول منهما نحو حمران . ويتجه الطريق الآخر نحـــو أرزات مارا بالمعمورة التى يتفرع منها الى فروع كثيرة .

وفى الصباح خرجت من المخيم الى مكان فى أحد الوديان الصخريه الذى كان جافا من المياه وكان معى شبكة صيد الفراش ، وهناك وجدت قطعا من الصخور الكبيرة تبين من فحصها أنها كانت من بعض الأضرحة • وكانت كل صخرة عبارة عن لوح ضخم بيضاوى الشكل يبلغ طول الواحد منها اثنى عشر قدما •• والأضرحة التى رأيتها فى هذه المنطقة تشبه تلك التى شاهدتها فى خورروري ، وخور صولى ويستدل الأهالى من حجم الأضرحة على أن أجدادهم كانوا من العمالقة •

وأثناء سيرنا قابلت أحد سكان الجبال فحييته فوقف ليرد التحية بطريقته وهى رفع بندقيته فوق رأسه ثم اقترب منى وكان الرجل نموذج للجبلى قصير القامة داكن البشرة ذا شعر طويل مجعد وبدون لحية وهذه هى الملامح التى تميز ساكن الجبال عن العربى ساكن الشمال • وكان عريض الحاجبين ذا ساقين متساويين وبنية نحيلة ، الى جانب ساعدين نحيلتين أيضا وكان يرتدى ازارا قصيرا لا يغطى سوى ركبتيه وعلى جسده بقع حمراء وقد اسودت بشرته من كثرة ما يدهنها من النيلة وكان عارى الرأس حافى القدمين حليق الشعر فيما عدا ضفيرة مجدولة تلتف حول رأسه تشبه العقال العربى •

•• « هات بخار » •• بهذه الكلمة حياه أحد الخدم المرافقين لى وكان يتكلم الشحرية ، غير أن الجبلى كان قليل الكلام وكان ينظر الىّ فى استغراب ، ثم سأل الخادم عنى وما اذا كنت رجلا حرا • وقال أليس هذا الرجل كافرا ؟ • فرد الخادم : حاشاك •• انه أحد وزراء السلطان •• وعندما عرفنى بنفسه وأنه من سكان جبال القرا ، سألته وأنا ابتسم له : هل تبيعنى الحبوب التى معك • وكان يحملها فى جراب من الجلد يسمونه « عنيت » • وكان متوجها الى أرزات لبيعها . فأجاب : كم ستدفع لى فيها ؟ •• فقلت : ريال واحد ، فأطلق نفسا طويلا دليلا على موافقته •

فأخذت الحبوب منه .. والحقيقة أننى لم أكن فى حاجه الى تلك الحبوب ولكنى أردت أن أغير مجرى الحديث بالابتعاد عن الموضوعات الدينيه . وقد بقى الرجل معنا ، وكان دليلنا فى منطقه الوادى طوال ذلك اليوم وحتى مصب الجدول ، وفى يوم ١٩ أكتوبر عام ١٩٣٠ ، غادرت بعثتنا المكونه من على ضبعان وفردين من الكشفيين (نفس المجموعه) التى رافقتنى فى رحلتى خلال السنه الماضيه وقد زودنا الوالى بخمسة من الحرس الحكومى . وقبل أن نقوم بالرحله أجريت اتصالات بالعائلات التى سنقيم عندها لكى تنتظرنا فى منطقة عند سفح الجبل .

من طريقنا يقع الى الشرق على شاطىء خافه .. فمررنا بحشوف من أشجار جوز الهند التى كانت تفصل بين المنطقة التى نقصد التوجه اليها وقريه « بليد » . ومنها دخلنا السهل الواقع ، ويسمى هذا السهل بالحصيله .. وكانت تتناثر فوقه الكثير من المعالم الأثرية[1] . ورأينا فى طريقنا مدينه أخرى تعتبر أكثر قدما من الأولى . وكانت الآثار التى شاهدناها كالآبار والقنوات والتلال دليلا على وجود صناعة قديمة فى هذه المنطقة . كذلك فان وجود القنوات فى منطقه السهل الحجرى دليل على وجود حضارة غابرة تبين أن قطع الأحجار كانت تستعمل على نطاق واسع فى عملية الانشاء . ويمكن للزارعين أن يزرعوا بعض المناطق فيها نظرا لوجود تراكمات فى التربة الرطبة .. فى الطبقه تحت السطحية . كما أن الأهالى يعربون اليها عندما تتفشى الأوبئة كالجدرى والجذام[2] . .

---

(١) ... ومن ابرز معالم تلك الآثار تلك السف من الأعمده البدائية البسيطة المثمنة الأضلاع . والمقامة على قواعد حجريه مربعه وبيلغ متوسط طول العمود نحو ستة أمتار وهذه الأعمدة هى مع الطنف المقامة عليها يوحى بأنها بنيت كحاملات للأقواس .. ومثل قاعدة من القواعد تدرج فى الارتفاع الى ما يعادل قامة انسان وتستند على صفين او اكثر من هذه الأعمدة تبعا لحجم العمود وتتناثر حولها حجارة صغيرة سوداء .

(٢) .. يقال ان السفن الشراعية القادمة من الهند هى التى تحمل هذه العدوى الى المنطقة .

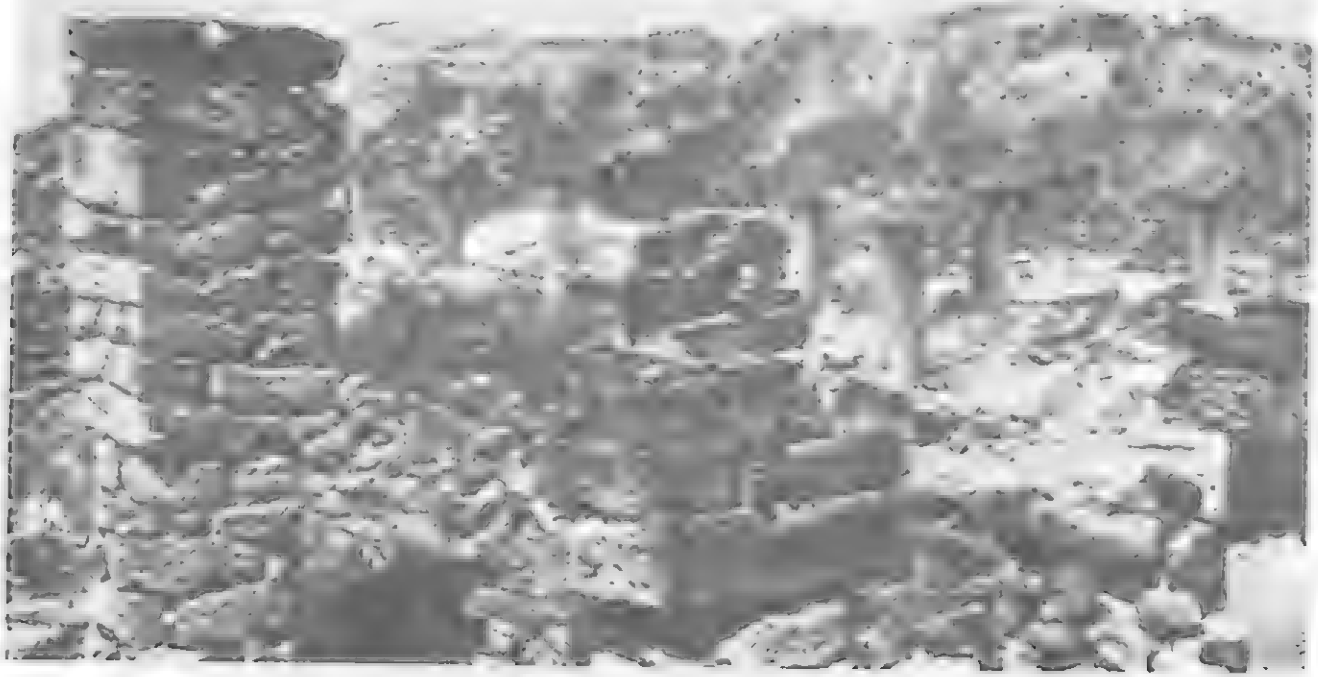

۱ بعض آثار بلند

بعد ليلة غير مريحة بسبب وجود البعوض بكثرة فى منطقة السهل • غادرنا المكان الى جبل « ناشب » وهو أعلى منطقة فى سلسله جبال القرا •

وفى الطريق رأيت المزرعه التجريبية التى انشأها السلطان فى المعموره • ومنها سرنا الى منطقة التلال الواقعة على السفح الذى اكتشفناه بواسطه هذا الجبلى ، وجمعت عددا وفيرا من اليعاسيب والفراشات والسحالى •

فى سفح على أحد المنحدرات الجبلية الكثيفة الشجر جلست اراقب الماء يتدفق من الجدول مكونا بحيرة تحيط بها صفوف من الأشجار العالية • وكنت أجلس تحت ظل شجرة عملاقه من هذه الأشجار أراقب الأسماك وهى تتحرك داخل الضحضاح بينما أخذ العبيد المرافقون يحاولون صيدها بشبكة الفراشات التى أحضرتها معى •

ولقد استرعى انتباهى وجود بعض الأطعمه والأرغفه ملقاه بالقرب من مجرى الجدول • وعرفت أن هذه الأطعمة تسمى النغوش • ويقصدون من القائها فى المكان طرد الشياطين التى تزور موتاهم • فهم يعتقدون بأن أرواح الموتى تنتقل الى هذا المكان بعد وفاتهم • وفى وسع هذه الشياطين التى تزور الموتى أن توقع الضرر بهم • وتتكون هذه القرابين من الطعام أو التبغ وعند القاء الأطعمة وغيرها فى هذا المكان يردد أصحابها بعض العبارات مثل : أيتها الأرواح انما نحن أبناؤك وبناتك فلا تؤذينا وظلى يقظة دائمة لرد كيد الأشرار والأرواح الخبيثة عنا •

وفى هذه المنطقة وقعت حادثة شهيرة بشأن النذور هذه ، كان ذلك فى أيام الوالى سليمان •• فقد طالبت احدى قبائل بيت زيان وهى فرع من الشحرة بملكيتها للأرض التى تقام النذور عليها • غير أن قبائل القرا اعترضت على هذا الطلب بدعوى أن تلك القبيلة انما هى تابعة لها • ثم طالبت تلك القبيلة ذاتها بحقوق مماثلة فى تلك النذور والحصول على ما تدره من دخـــل •

وتحدد موضوع الدعوى أن وهبى الحكومه الذى تنص بأن قانون منيه المحكمه مسئوله بين المتنازعين وحدد نصيب كل طرف من هذه الحقوق اقرارا للعداله .. وبهذا الحكم حصلت الحكومه على وجودها فى المنطقه الا أن الأحداث اصطبغت دوائى فيما بعد فى شكل حرب على سكان جبل الدين ظلوا يدافعون بشتى الوسائل عن حقهم المقدس لأرواح مواشيهم التى استنزفت قطعانها وحالت دون الحكومه من نصيبها فى هذه الأراضى .. أو هكذا تقول الأسطورة .

وحتى اليوم . لايزال سكان هذه المنطقه يمارسون التقاليد والمعتقدات القديمه التى يؤمنون بها أشد ايمان . بينما تعد هذه المعتقدات أعمالا محرمه فى الأجزاء الأخرى من البلاد العربيه .

ومن العادات المتبعه بين سكان هذه المناطق عند تقديم القربان أو الأضحى قبيل موسم الحصاد حيث يتم الذبح فى مزرعة . وبينما أسلمه دمشه فى قنوات صغيرة أمرى بينما تقوم بقطع رأس الخروف بين المحصول .

كنت مع زملائى مجلس عند حافة الوادى . وكانت الشمس توشك أشعتها الذهبيه فى خلال المساء . وتسمعت عشرة ميل عليه . بينما كانت الطيور تغرد بأعذب أغانيها وهى تأوب الى أعشاشها . وكان القطيع يعود بأكمله من المرعى . ورأيت بين ما رأيت فتاة سوداء تقود ثلاثة عاريه . وتحيط بها مجموعه من صديقاتها . وكانت جالسه تمشط شعرها الأكرت بينما هى تغنى بصوت عذب رخيم . وكانت الى جانبها سيده أخرى تعد فى الوقت نفسه احدى الأغانى القديمة . فطلبت منى شيئا من اللبن . فمضيت اليها واعطيتها بوعاء كبير من اللبن . فأخذ أحد الراعيين وشرب . ثم تحدثت اليه بكلمات لم أفهمها . فأخذت الأخريات الجالسات من حولنا يضحكن ووجهت احدى السيدات . وهو نفس الشخص الذى بدأ التقليد . وقالت بأن سيدها هذا على وشك الزواج . كما عرفت بأن الراعى الذى كان يحدثها شقيقها . وليس من حقه الزواج .

رجال وثعبان

وعلى أيه حال فقد عنّ لمرافقى الشحرى أن يختبر هو الاخر شجاعته ورجولته عندما استأذن فى الانصراف لاحضار حية لى ، ثم عاد بعد مده وهو يحمل حيه ضخمه من فصيلة الكوبرا تمكن من ضربها بعصاه . غير أن قتل الحية وحدها لا يكفى بالنسبه لى فلابد من الاحتفاظ برأسها وان كانت هذه مسألة بالغة الصعوبة .. وعموما فقد نجح الشحرى فى هذا . وعد بالحية وهى لاتزال على قيد الحياة . فيما عدا كسر فى ظهرها . وقد جاء يحملها من مسافة بعيدة ولكن ما ان وصل وألقى بها على العشب أمامى حتى ماتت وان كان ذيلها ظل يتحرك فتناوله الرجل وكحل به عيناه وقال بأن ذيل الحية دواء مقو للعين .. ولكنى تساءلت عند ذاك ما اذا كان ذيل الحية له علاقة بالمعتقدات السحرية لأن الروح كما يقولون تخرج من خلاله .

بعد قليل حضر شخص ضخم الجثة من سكان المنطقة الساحلية الذين يختلفون فى هيئاتهم عن سكان الجبل وقال ان اسمه السيد حسن وانه صاحب مصنع البقر وزوج السيدات الجالسات على الجدول . وسألنى ما اذا كنت قد أخذت كفايتى من اللبن ، ولكنى طلبت منه المزيد ودخلت معه فى حوار عن أحواله وعن أسعار التمر خلال الموسم وعن أسواق التمر فى البصرة وعمان باعتبارهما المناطق التى يتحدد فيها أسعار التمر .

وقد أخذ الرجل يحدثنى عن الحالة فى منطقة الجبل وانتشار أعمال السرقة مما يحتم على السكان أن يظلوا يقظين طوال الليل خوفا من لصوص تداهمهم . وكان يحمل بندقية جاهزة للطلق وأخذ يتحدث عن الحكومه وتساءل لماذا كانت متهاونة الى هذا الحد ولماذا لا يأمر السلطان بقطع يد السارق كما ينص القرآن وكما كان معمولا به فى صدر الاسلام ، وقال بأن الطريقة المتبعة حاليا بارسال السارق الى سجن مسقط ثم اعادته بعد سنة أى بعد انتهاء العقوبة . طريقة غير مجدية .

والواقع أنه لا يوجد قبلي واحد قد تحدثه نفسه بسرقة أحد السادة (الأشراف كما يسمونهم) وأنهم عدا ذلك فلا تعتبر ظفر منطقة متخلفة عن العالم بأن السادة[1] وأشباههم يعيشون طيبة البلاد وهم كلهم في اسم الاحترام يعتبرون من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم ومن هنا يعتبرون من أولياء الله فمنه ينال البركة من الله .

وقد عد حسن إلى موضوع الغاريت ولكني ظلت له صراحة بأن الغاريت غير موجودة في بلادنا ونبذا لا أعرف الطريقة المثلى لرد هذه الغاريت . ولكنه أقسم بالله بأن زوجته حملت سبع مرات ولكنها فقدت أولادها جميعا عند ولادتهم لأن الغاريت أخذتهم جميعا .

وفي هذه المحنة كثير من الخرافات . منها الغاريت أو الأرواح الشريرة والجن والزار . وأكثرها انتشارا هو الزار وهم يعتقدون بأن الجان يمكن أن تستجيب ولكن الغاريت هي البلاء الأزرق .

في احدى الليالي توجهت مع علي ضبعان لمصطاد ضبعة في مكان ما من هذه المنطقة التي تعج بالحيوانات المفترسة[2] .. فقد سمعنا عواء أحد هذه الحيوانات في الليلة السابقة . ولكن نور القمر غيما يبدو لم تنجح في استدراج الضباع من مخابئها . وفي اليوم التالي أعد علي ضبعان مخبأ لنا وكان عبارة عن نصف دائرة من الأحجار المرصوصة كالحائط .. وكان المخبأ يتسع لنا نحن الاثنين . وقد أخفينا الفتحات ببعض الأغصان حتى

---

(١) ... كلمة سادة مفهومها هذا يعني الذين ينتسبون نسبا للامام علي بن ابي طالب زوج السيدة فاطمة كريمة الرسول صلى الله عليه وسلم وبالتالي فان هذا النسب ليس نسبا مباشرا . أما العمانيون فلهم راي يخالف هذا الاعتقـــــاد .

(٢) ... مما تجدر الاشارة اليه هو ان الضبع يعيش في الفلوات غير المأهولة بينما يعيش الاسد العربي في حمل سمحان والمناطق الجبلية غير المأهولة . اما الثعالب فموجد في كل مكان بينما الظباء والغزلان فموجد بكثرة في السهول .

لا ترى الحيوانات بنادقنا • وبالقرب من المخيم ترك على ضبعان أمعاء خروف كطعم وأوقد نارا بالقرب منها لكى يحمل الهواء الرائحة الى عرين الحيوان ولم تنجح فكرة العملية فى اليوم التالى بوضع كمية من سمك السردين ، ولكن الحيوانات لم تظهر فانسحبت أنا وحل محلى أحد البدو من بيت كثير •

وفى الليلة التالية جاء الوحش فقد سمعت وأنا فى فراشى طلقتين أعقبهما عواء أيقظنى من النوم فهرعت الى المكان ويبدو أن الحيـوان استطاع الفرار ولكن آثار الدماء التى تخلفت كانت تدل على اصابته ببعض الجروح • وأخذ البدويان يؤكدان لى بأن الطلقة كانت قاتلة فذهبا يتعقبان أثر الحيوان بقدر ما كان يسمح به ضوء القمر • وقد أقسم الاثنان بأنهما لابد عاثران على السبع ميتا فى مكان ما من المنطقة •• ولكنى عرفت فى اليوم التالى بأن الحيوان قد تمكن من الإفلات ربما ليلفظ أنفاسه فى أحد الكهوف • وقد علق أحد الرجلين قائلا : بأنه لو كانت تلك الطلقة فى منطقة مكشوفة لكان فى الامكان تعقب الضبع حتى مخبأه •

الفصل الخامس
المخلفات القديمة وقرابين الدم

.. « ان فكرهم الباطن هو ان منازلهم ستبقى الى الأبد ، وأماكن سكناهم لجميع الأجيـــال فهم يطلقون على اراضيهم اســـمائهم » ...

لازال أسماء المناطق فى جبال الظرا مستلهمة من أسماء أصحاب البلاد الأصليين . أى الشحرة الذين يعتبرون بإجماع الآراء أقدم قبيله استوطنت هذه المناطق وتنتمى هذه القبيله الى سداد بن عاد على حسب رأى أهل البلاد . أما اليوم فانها قبيلة ضعيفة تمزقها الانقسامات القبلية . ومن حيث وضعها الاجتماعى تعتبر فى أدنى مستوى حتى أنها لا تجد بين القبائل الأخرى من هو على استعداد لمصاهرتها والخلاصة أن الشحرة قبيله مهددة بالانقراض .

الجد الشحرى	القبيلة التى تستوطن عندها	الاسم الاقليمى الحالى	اللهجة الشحرية
زفـــرول	بيت تبـــوك	حـــدب ذومـــرى	حـــدب ذومـــرى
عنـــاريم	بيت كشوب	حـــدب ذومـــرى	حـــدب ذومـــرى
زارت	بيت قطـــن	الخـــــانى	بيت خـــونى
عتيرون	بيت المعشنى	قـــــرا	بيت قـــرو
حبـــزول	بيت المعشنى / بيت جعبوب	غـــــاح	بيت فـــات
بل زبون	بيت ســـعيد	قســـــلة	قـــــاله
قطـــون	بيت عمـــــر	دســـــال	ادـــــن

زربيح .. اسم فرعى لقبيلة بيت الكثير — بن زربيح
— بن زغتير

« جبل عارا يشرف على وادى نهاز »

أوت .. هى اللفظة الشحرية لكلمة بيت .

أروبير .. هى اللفظة الشحرية لكلمة بن .

ولا يزيد عددهم الآن عن بضع مئات يعيشون جماعات وسط طبقه السادة من سكان القرا ينتزعون لقمه العيش بشق الأنفس من بيع الحطب . ومع ذلك فإن الحديث لا ينقطع عن آثارهم فى الروايات التى يقال بأنه كانت توجد فيها أربوط عاصمتهم العظيمة فى يوم من الأيام .

واذا صح هذا الرأى ، فان التدهور الذى منيت به دولة الشحرة القديمه هو التفسير الوحيد لما طرأ على المنطقة الجبلية من تغييرات ، لأن سكان القرا الحاليين والذين تمتد حدود منطقتهم من « ضربة على » الى حضبرم[1] . لم يعرفوا بناء المدن والجوامع ، وهم يعيشون حياة بدائيه داخل الكهوف أو بيوت من القش ، كما أن حياتهم تعتمد على تربيه الابل والمواشى وزراعه اللبان . ومن خلال سيطرة هؤلاء على المناطق التى تقيم فيها الشحرة . تأثروا بثقافتهم ، ومن المرجح أن تكون أنماط المعيشة والأزياء التى يرتدونها قد انتقلت اليهم من أتباعهم . وغير معروف على وجه الدقة متى حدث هذا الاقتباس .

وقد كتب الرحاله المغربى الذائع الصيت ابن بطوطة الذى عاش فى القرن الرابع عشر وقام برحلته التاريخية الى العراق والجزيرة العربية . كتب يقـول :

« وبالاضافة الى ذلك فان سكان ظفار يشبهون الى حد كبير سكان شمال أفريقيا فى عاداتهم . وملامحهم وعلى الأخص الأجزاء البارزة منها فهى لا تدل على أنهم ينتمون بصلة الى عرب الجزيرة وانما تدل على انتمائهم الى البربر » .

---

(١) ... باستثناء مستوطنات آل كثير الواقعة فى الجزء الغربى الأوسط بين « جرزير » و « تيفـا » .

وبشرق من هذه المنطقه الجبليه وخلفها ابتداء من خط طول ١٠ر٥١ درجه حتى خط طول ٢٠ر٥٦ درجة تعيش احدى القبائل التى تختلف فى سماتها عن عرب المنطقه الشماليه . وهؤلاء يتحدثون لغه قوميه واحده ليست عربيه[١] . وهذه المناطق تشمل المهرا والشحره والمهره وبرحمه وبلحف وبيت الشيخ والبطاحره والحراسيس وعفار . والذين يسموهم أهل عمان بأهل الحدارا . (ولعل هذه التسميه لها صله بالحضارم) . كما جاء ذلك فى سفر التكوين بحذف الميم الأخيره باعتبارها أداه الجمع فى اللغه السبئيه وأداه التعريف فى اللغه السبئيه القديمه واللغه الأدرمينية . كما ورد فى مؤلفات « بلينى » .

ومن الناحية الجغرافية تعتبر جبال الترا فى هذا الجزء من التجمع السكانى فى جنوب الجزيرة العربية ، الملجأ الطبيعى لسكانه الأوائل الذين أرغموا على الانسحاب الى المناطق الشرقية والجنوبية من هذه الجبال تحت تهديد شعوب أخرى أو غزوات قادمة من البحر .

---

(١) .. لقد قمت باعداد جدول خاص باللهجات الأربع الدارجة وهى الشحرى والمهرى والبطاحرى والحرسوسى . يتألف من ٥٠٠ كلمه لكل منها . كما استخلصت منها بضعة قواعد لغوية بسيطة وكل هذه اللهجات يرجع فى اصله الى المجموعة السامية . وان كانت لها جذور اساسية فى اللغة الحبشية اكثر مما فى اللغة العربية . فالقبائل القبلية التى تتكلم لغة الشحرة هى قبائل القرا والشحرة وبو رحمة وبيت الشيخ ، واللهجة المهرية تتكلمها قبائل المهرة ... ولهجة البطاحرة تتكلمها قبائل البطاحرة ... ولهجة الحراسيس تتكلمها قبائل الحراسيس وعفار ... وبالنسبة للهجة الشحرية فلا يفهمها الذين يتكلمون اللهجات الأخرى ويصعب التفاهم بها بينهم . ولم اكن اعرف من قبل بأن الدكتور ماكس ميليان بنتر عالم اللغات الألمانى قد تعرض الى موضوع اللهجتين الشحرية والمهرية وذلك فى سياق تعليقه على المعلومات التى سبق أن جمعها الدكتور « موللر » فى كل من حضرموت وسومطرة خلال رحلته الى شبه الجزيرة العربية ، ١٩٠٢ ، ثم حول ما جمعه الكونت « لاندبرج » ... عن رحلته الى المنطقة خلال ١٨٩٨ — ١٨٩٩ ويبدو أن لهجة الحراسيس والبطاحرة تختلف عن لهجة المهرة ولكن لم يقم احد بالبحث فى هذا الموضوع .

(كهوف وصخور فى جبال قارا)

(صخور وكهوف أخرى فى جبال قارا)

ما أروع المشهد الذى أمامى الآن • سلسله من الجبال الشاهقة تتدل بمنحدراتها المطرزة بالمروج والغابات الخضراء والحقول النضرة على المحيط ، وخلفها من الجهة الشمالية سلسلة من الهضاب الرملية تمتد الى أسفل الوادى •• انهما جانبان متناقضان تمام التناقض • ومع ذلك فان هذا التناقض هو الحقيقة الواقعة على امتداد المنطقة أعلى سهل جربيب • ولقد أحسست بمتعة كبيرة وانا أدخل تلك المنطقة عام ١٩٣٨ من حدودها الجنوبية الصحراوية • لقد ظهر من البداية الجانب الأحمر[1] من هذه المنطقـــة •

وادى ريكوت وادٍ تكسوه الأحجار البيضـــاء ويمتد الى ممر من الصخور الحمراء ، وهو يرتفع فى بعض الأجزاء الى ما يزيد على مائة قدم • وقد نحتت الطبيعة فوق قممه أطرافا حادة النصال • بحيث تضفى ألوانها ظلالا قاتمة على المنطقة •

وقد تذكرت وأنا أرى هذا المشهد المناطق الخصبة الخضراء فى البلاد العربية ، ومن هذا المـــكان انتقلنا الى وادى قطن • وهو كثيف الأشجار تزرع فيه بعض الأنواع المفيدة من النباتات وان كانت لا تصل فى أهميتها الى اللبان — ومن تلك المنطقة توجهنا الى وادى « دهاق » عبر طرق كثيرة الأكمات وهى عبارة عن هضاب يصـــل ارتفـــاع بعضها الى خمسمائة قدم • وأثناء وجودى فى هذه البقعة أخذت أتساءل ما اذا كان

---

(١) •• من المحتمل ان تكون كلمة « ظفار » تتألف من مقطعين • خبر وعفار • اما لام التعريف المستعملة فى اللغة العربية فغير معروفة فى لهجات سكان جنوب شبه الجزيرة العربية •• ومعنى الكلمة الأرض الحمراء •• ومن المعروف ان تكون لكلمة عفار مدلولات كثيرة فهى مثلا قد تعنى :

١ — واحدة من أكبر مناطق زراعة اللبان — عفار •
٢ — وادى كبير — كما انه اسم لأحد القبائل — عفار •
٣ — وادى كبير — عفـــــور •
٤ — سحب •• ومعناها البلاد التى تكثر فيها السحب بما يتفق وكلمة الأرض الحمراء عفور •

الرحاله « بنت » قد زار تلك المنطقة وتجول فيها .. وما اذا كان « أبيسا بولس » وبطل العالم الفلكى البطليموس قد تصور وجوده فى مثل هذا المكان . وقبل أن نصل الى ذلك المكان ظهر لنا شاطىء البحر فى وقت كان الضباب ينحسر عنه ، ومنه انتقلنا الى وادى « ثريت » . وشاهدت فيه منظرا من أبدع المناظر وأروعها فقد ظهرت لنا قمم أشجار الصفصاف وهى تحيط بالمنطقة من كل جانب ثم أخذنا نشق طريقنا وسط الأوحال التى كانت نباتاتها تتكسر تحت أقدامنا وكأنها أرادت أن تعلن عن قدومنا لأسراب طيور مالك الحزين التى تعيش فى تلك الأحراش .

لقد قضينا وقتا طويلا فى أرزات الى أن أحسسنا بأن بقاءنا هناك لم يعد مرغوبا فيه . لذلك قررنا أن نغادر المكان صباح يوم ٥ نوفمبر الى مناطق الجبال . وقد حضر الشيخ حسن المكلّف بالرحله ومعه خمسة من الجمال الضخمة التى أعجبت بها اعجابا شديدا ولكن خاب ظنى بمجرد أن تحركت القافلة . فهذه الجمال على ما يبدو قد تربت فى المناطق الجبليه وهى من الأنواع التى ينحصر استعمالها فى نقل الأسماك واللبان فحسب وتبين لنا أن الحمولات الثقيلة تربكها وتجعلها عصبية . غير أن الطريقه الفوضوية التى تمّ بها تحميل الأمتعة أسفرت عن انزال الحمولات أكثر من مرة مما سبب تأخيرا للقافلة قرابة ساعتين عن الموعد المحدد للرحيل كما كنا نتوقف من وقت الى آخر لتثبيت الحمولات أو الحيلولة دون سقوطها .

وقد أمضينا ساعتين نسير فى طرق ملتوية بالمنطقة الغربية من السفح فى اتجاه وادى ثيدوت . وهو من الأودية الكبيرة ويحتل مكانا واسعا فى المنطقة الجبلية[1] . وكنا كلما توغلنا فى هذا الوادى ازدادت الأشجار

---

(١) .. اهم الوديان الموجودة فى تلك المنطقة هى من الشرق الى الغرب : وادى دربات ... وادى غدوت ... وادى احرثون .. وادى ربسوت ... وادى اربوت ... وادى نحيز ... وادى جرزير .

كثافة ومررنا بمنطقة فى غاية الوعورة كثيفة الأشجار ومنها وصلنا الى بحيرة واسعة تتغذى من نبع صغير يسمى « صحنوت » (وكالحـال فى المناطق الجبلية . فان الأسماء التى تطلق على منابع المياه هى غير تلك التى تسمى بها الأودية) . وفى هذا المكان انحرفنا الى اليمين وأخذنا نتسلق مرتفعا فى اتجاهنا الى الجانب الغربى . وقد أخذت الأشجار تزداد كثافة بحيث اضطرنا ذلك الى النزول من على ظهور الجمال والسير على أقدامنا . غير أن الليل قد أرخى سدوله قبل أن نتمكن من الوصول الى الجهة التى كنا نقصـدها .

ومع ذلك واصلنا السير عبر تلك الغابات الكثيفة . لذلك لم تكن الرحلة مريحة وعلى الأخص لمـا انتابنا من الخوف من وجود الثعابين والأفاعى فى المنطقة . من أجل ذلك لجأنا الى تبادل النكات والمزاح فى محاولة للترويح عن النفس ولقد شعرت بكثير من الارتياح لروح الفكاهة والمرح التى كان يتحلى بها المرافقون رغم أنهم كانوا حفاة الأقدام على العكس منى فقد كنت أرتدى حذائى ولكنى كنت أتعثر أثناء سيرى على الصخور الكبيرة المتناثرة على الطرق ، كما كان ثوبى العربى « الدشداشة » يشتبك بقدمى أكثر من مرة أثنـاء السير .

وقد انجلى الموقف عن ظهور وادٍ أخضر نضير . فاقترحت التوقف لقضاء الليل فى ذلك المكان الجميل . وما كدنا نهبط من على ظهور الجمال حتى سمعنا صوتا لأحد قطعان الماشية ثم أعقبه صوت رعاتها وهم يصيحون « رحلة .. رحلة »[1] . ثم تبين لنا أننا فى منطقة قريبة من مد سيب . وبعد

---

(١) يطلق هذا الاسم على نوع من البقر ذو القرون المتدلية . فلكل نوع من البقر اسم خاص به وهى أسماء تتوارثها الأبقار تماما كأسماء الجمال والجياد عن طريق البقرة الأم وأصحاب البقر يعرفون كل بقرة فى القطيع فاذا ما ضاعت فان صاحبها يمكنه التعرف عليها حتى بعد مرور عام أو أكثر على سرقتها حتى ولو كانت ضمن قطيع آخر .

قليل قدمت لنا كؤوس اللبن الشهى . كما جاء أحد الأهالى بثعبان حى . غير أنى كنت فى غاية التعب ، فلم أُبْدِ أى اهتمام بهذا الموضوع وطلبت من الواقفين حفظ الثعبان فى احدى الزجاجات الى اليوم التالى .

دبّ النشـــاط فى مخيمنا مبـــكرا فى صبيحة اليوم التالى وعندما استيقظت من النوم فى الصباح وجدت أننا مخيمون فى منطقة من أجمل المناطق الطبيعية وأروعها فعلى جانب الوادى رأيت مغارات . وأجرف صخرية فرشت أرضها بالقش لأن من عادة سكان تلك المنطقة أن يلجئوا الى هذه المخابىء خلال فصل الشتاء وفصل الصيف ، للاحتماء فيها اما لشدة البرد ، أو من شدة القيظ ، كما يتخذون منها مأوى لمواشيهم .

ولقد زارنا بعض رجال القرية ، يحملون الينـا جرار اللبن إلى جانب العسل . واللحم هو الغذاء الأساسى لسكان المنطقه وان كانت هذه الأطعمة هى أطعمة كمالية . وكان من بين الزوار شيخ طاعن فى السن اسمه (حسن) وكان عمدة القرية ، هرما ضعيف البصر . وقد أصر على الجلوس الى جانبى وعند تقديم المرطبات أخذ هذا الشيخ يغمس التمر فى فنجان القهوة . حتى أخذ الحاضرون يضحكون من عمله هذا . وكان العجوز لم يسبق له أن عرف القهوة والتمر أو ذاقهما فى حياته — وعندما ارتدى — الشيخ العجوز حسن الثوب الأزرق الذى كنت قد أهديته اليه ضج المجلس بالضحك ، الا أنه بادر يشكرنى قائلا : عليك بياض ، ومعناها بيض الله وجهك . وهو تعبير يرمز الى التقدير ، ثم قال : والله انى محبك أيهـا الصاحب اننى اليوم كبير السن وقد أموت قريبا ولكنك اذا نطقت الشهادتين أى اذا قلت : (أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله) . فسوف أزوجك اثنتين من بناتى وأهبك كل ممتلكاتى .

وقد آثار ذلك القول الهرج والمرج بين الحاضرين وقد وبّخه الشيخ حسن « مرافقى » على ما بدر منه .

كان من بين الأشياء التى كنت أحملها فى هذه الرحلة . صندوق أحتفظ

فيه ببعض الأدوية وكان ذلك الصندوق سببا فى شهرتى بين أهالى المنطقة الذين اعتقدوا بأننى طبيب وأخذوا يفدون الىّ للعلاج وكان من بين هؤلاء صبى يعانى من امساك مزمن ، وكانت حرارته مرتفعة ويبصق دما ، فطلب منى والده الكشف عليه لأن هناك اعتقاد يسود بين هؤلاء الناس بأن الكفار أو « المسيحيين » لديهم أدوية لكل داء غير أن المرافقين رمقوه بنظرة شذراء وأفهموه بأن هذه الكلمة غير مهذبة ولا يصح أن تقال . على الرغم من أن الرجل لم يقصد بها أى سوء ، وهى متداولة وشائعة بينهم . كما أخبروه بأننى أحد الوزراء فى حكومة السلطان .

كانت عملية تحميل المؤن والأمتعة عمليه شاقة . بسبب الجهد والرطوبة الشديدة . وبعد أن سرنا نحو نصف ساعة عن طريق السيرين وصلنا الى أحد المرتفعات التى يصل ارتفاع بعضها الى ٥٠٠ قدم ومنها دخلنا بعض الحقول ورأينا فيها أكواما من القش مصفوفة . كما رأينا أشجار التين العملاقة ومن وراءنا كان البحر يبدو بمياهه الزرقاء ، وكانت الأشجار تتمايل ويرتفع بعضها الى عنان السماء .

وعلى هذا الارتفاع الذى يصل الى ألف قدم يقل وجود الطيور وذلك على عكس الأودية والسهول . ولم نشاهد الا بعض طيور اللقلق والجندب والباشق والجراد بأنواعه المختلفة . ومن بعيد بدا لنا وادى العين الذى كنا نتجه اليه وهو من الأودية الخصبة وتقطنه قبائل الشحر . وقد مررت بأحد الينابيع الغزيرة وكان الماء يتدفق منه الى الوادى ، كما شاهدنا أشجار التين الظلية العالية وهى تقوم مقام أشجار الجوز عندنا فى انجلترا ، كما شاهدت نوعا من الفاكهة يشبه التفاح ، وقد سحرت بمنظر ذلك المكان فقررنا أن نخيم فيه بعد عملية صعود استمرت ثلاث ساعات ووقتها أحسست بعطش شديد ، غير أن الوقت لم يكن يسمح بتناول شىء من اللبن ، لأنه كان وقت الظهيرة كما أن اللبن الزبادى (الرايب) الذى أحضروه الىّ جاء متأخرا بعد أن تناولت كأسا من ماء جوز الهند . ومن فوق قمة الجبل شاهدت جماعة الشيخ (حسن) مرافقى وكانوا ينشدون

أغانيهم الجبلية[1] .. وقد تجمع بعض الرفاق لاستقبال جماعتهم وأخذوا يلوحون بالسيف كنوع من الترحيب بهم . وأخذت بقية المجموعة تتجمع حول زعيم القبيلة الذى كان يتلو شعارات كلها تمجيد لأبطالهم . كما وقفوا صفوفا وأخذوا ينشدون أغانى أخرى بينما كان البعض الآخر يرد عليها بنفس الطريقة ، وهكذا ازداد حماسهم فى الغنـــاء وظلوا يغنون قرابه خمس دقائق .

يتميز سكان الجبل بالشعر الخشن والبعض منهم يعتده من الخف . وان كانت الأغلبية تفضل أن تتركه مسترسلا خلف الرأس . ولا يوجد بالطبع أى أثر للشعر فى الوجوه فيما عدا شعيرات صغيرة على الذقن . أما الوجه فيبدو أملس لا أثر للشعر فيه . وذلك يوحى بأن هؤلاء الناس يمثلون نوعا غريبا من العرب لأن ملامحهم لاتدل على أنهم ينتمون الى العـــرب .

وأمـــا الزى الخاص بهم فهـــو نفس الزى العربى وأعنى به الزى المصبوغ العربى .. ويرتدى الأثرياء منهم ثوبا قصيرا لا يغطى سوى الجزء الأعلى من الجسم وحول الوسط يربطون أحزمة من الجلد تشبه أحزمة الخراطيش وأما الرأس فيتركونها عارية ليس عليها سوى شريط من الجلد لتثبيت الشعر ، أما الأجزاء الباقية من الجسم فهى عارية كذلك ، كمـــا يتزين بعضهم بنوع من الأقراط فى الأذن اليمنى وأسورة فى الزند اليمنى مثل قبائل المهرة وغيرهم من القبائل المجاورة التى هى من نفس السلالة .

بمناسبة وصول أتباع الشيخ حسن تقرر ذبح بقرة لتكريم الضيوف . وقد اقترح على ضبعان بأن يتم ذبح البقرة بقرب احدى الأشجار بحيث تكون مكانا مناسبا لمراقبة الذئاب التى لابد وأن تجذبها رائحة اللحم . وقد اخترنا موقعا نكمن فيه انتظاراً للسباع .

---

(١) ... تم اعـــداد قائمة بالأغانى الجبلية ، واغانى القافلة بالنوتة الموسيقية وذلك بالقدر الذى تسمح به النوتة . ويمكن للقارىء الرجوع الى هذه القائمة فى الملحق السادس ...

(منظر آخر من جبال تارا)

وفى نحو الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم جاء أحد السباع وأخذ يتقدم نحو الذبيحة فى منتهى الحذر • وكان من الصعب أن نتبين نوع الحيوان القادم • وفى الواقع كان فى امكاننا أن نستعمل المصابيح الكاشفة غير أن عملا كهذا كان ينطوى على كثير من الخطورة • ولهذا فضلنا الانتظار الى أن يقترب الحيوان من الذبيحة ، وبمجرد اقترابه صوبنا بنادقنا نحـــوه وبإشارة من علىّ أطلقنا النار فقفز الحيوان وزمجر ثم سقط على الأرض والدماء تنزف منه ، فنهضنا اليه ، ولكن علياً استل خنجره خوفا من أن يكون السبع مايزال حيا ولكنه كان قد فارق الحياة • وقد أصيب بطلقتين . أصابته احداهما فى العنق والأخرى فى وسط جسمه •• لقد كان الحيوان ضبعا كامل النمو ، وهو من النوع المناسب للاختبارات التى كنت عزمت على اجرائها • وهو واحد من خمسة ضباع اصطدتها خـــلال الأسابيع الخمس التى تلت ذلك •

لقد كنت أطمع فى اصطياد ذئب عرفنا من نهيق الحمير فى تلك الليلة أنه كان موجودا فى المنطقة التى كنا نخيم فيها وكان لدينا الكثير من الطعم لأنه من عادة الذئاب أن تفضل الحيوانات الأليفة كالخراف والماعز والعجول ، كما أنها لا تتردد فى أن تلتهم ضبعا لو حصلت عليه • أما الفهـــود فانها تأنف من أكل الحيوانات ميتة وتفضل (شـانها شأن الانسان) أن تأكل ما تصطاده بنفسها ومن هذه الناحية يعتبر الفهد خطرا على الناس والجمال وعلى الأخص اذا حاول الانسان مهاجمته •

ومن هنا فان سكان الجبال من عادتهم أن يتركوا الفهود وشأنها اذا كانت فى منطقة بعيدة عنهم ولا يهاجمونها الا اذا اقتربت وبدا منها خطر •

وكان الشيخ حسن يعتقد بأن الفهود نادرة الوجود فى المنطقة بعكس الذئاب التى توجد بكثرة وبهذه المناسبة فقد اقترح علىّ ايفاد على ضبعان الى بيت عمه لأن أصحاب البيت كانوا يحتفلون فى تلك الليلة بذبح عدد من الأبقار بمناسبة ذكرى مرور أربعين يوما على وفاة عمته وقال بأن جماعته

ستذهب هى الأخرى الى مكان الوليمة ولابد أن رائحة اللحم ستجذب الذئاب فتأتى الى المكان بحثا عن اللحم .

ان تقديم الأضاحى وشيئا من لحمها يعتبر من المناسبات الهامة التى يحرص عليها سكان المناطق الجبليه عند وفاة واحد منهم وهم يتمسكون بهذا التقليد أشد التمسك ويقضى بأن يتم ذبح نصف عدد الماشية التى يملكها المتوفى كما توزع نصف تركته باعتبارها ضريبة على الورثة تؤدى بعد وفاته .. أما الفقراء منهم فيذبحون بقرة واحدة أو ماعزا واحدا . والحد الأدنى للذبائح هو عشرون ذبيحة بالنسبة للأثرياء أو الذين يمتلكون أكثر من أربعين رأسا .

وقد تذبح بالاضافة الى الأبقار بعض الأغنام أو الجمال غير أن ذبح الأبقار يعد دليلا على مكانة المتوفى . وفى يوم الوفاة وعند القبر تذبح بقرة أو بقرتان ثم تتكرر العملية بعد انقضاء ليلتين على الوفاة وتسمى هذه ذبيحة الختام . ثم يعد الذبح بنفس الطريقة بعد مضى فترة قد تطول أو تقصر حسب امكانيات أسرة المتوفى . ولا تقدم الأضحية الكبرى قبل مضى نصف شهر الى ثلاثة أشهر من تاريخ الوفاة حيث يتم ذبح عشرة الى عشرين رأس بقر أو ما يعادل نصف الماشية التى كان يمتلكها المتوفى ويسمى هذا « يوم النحيرة » . على أن الذبح فى كلتا هاتين المناسبتين يتم فى منزل المتوفى وليس فى مكان الدفن .. وقد يقوم أقاربه أو أصدقاؤه بذبح بعض الأبقار ردا على أهل المتوفى فى مناسبات مماثلة ويشترك فى هذه المناسبه الجيران والأصدقاء وأفراد القبيلة التى ينتمى اليها المتوفى ويتم اقتسام لحم الذبائح بينهم ، أما الزوار من المناطق القبلية الأخرى فلا يأخذون معهم شيئا من هذه الذبائح ويكتفون بالاشتراك فى الوليمة .

ويعقب هذه الوليمة توزيع تركة المتوفى على أفراد أسرته . فبالنسبه لقبائل الحدود الجنوبية كقبيلة « بيت كثير » وقبيلة « جبال القرا » فانه يتم توزيع الارث عن طريق العرف وليس عن طريق الشريعة الاسلامية ولا تسمح

قبائل بيت كبير لمدينى المتوفى أن يأخذوا من ارثه أكثر من الثلث أما الثمن الباقيان فيؤول منهما الربع للزوجة المنجبة ، والثمن للزوجه غير المنجبه ويوزع الباقى على الأبناء بواقع سهمين للابن وسهم للابنه •

كما أن العرف بين القبائل الجبلية يختلف عنه بين قبائل الحدود الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وان كان فى نفس الوقت يتفق مع الشريعه الاسلامية فان الزوجات جميعهن يحصلن على نصيب متساو من التركة بصرف النظر عما اذا كن أنجبن أولادا أو لم ينجبن • ولا يبيح العرف عند هذه القبائل أن تبدى المرأة أى مظهر من مظاهر الحزن على موت زوجها بينما يباح ذلك لأم المتوفى وبناته وأخوته ، كما يسمح لهن بأن يندبن المتوفى أو يرفعن أصواتهن بالبكاء • وعند قبائل القرا يتركن شعورهن مسترسلة ويلطمن وجوههن بالتراب غير أن أى مظهر من مظاهر الحزن على وفاة الرجل بصورة علنية يعد من قبيل العار وعلى الزوجات أن يحتجبن بعد وفاة بعولتهن •

الفصل السادس
جبال القرا - الضباع - عقائد العلاج والخان

حمر العين ! حمر العين ! ، بهذه الصيحات استقبل على ضبعان وهو عائد فى الفجر من الوليمـــة والسبب انه كان يســـوق حمارا فوقه جثة ذئب ميت .

وقد أستأذنت فى الانصراف ، لأنى كنت مدعوا الى قرية « انشاف » وهى قرية الشحرى جممان وتقع وسط أحد المروج القريبة من المكان الذى حنا نخيم فيه .

وقد شاهدت فى إحدى زرائبها ميتا وتلك (الزريبة) التى كانت تعج بما فيها ومن فيها كخلية النحل لا يزيد قطرها عن قامة انسان . وليس بها غير فتحة واحدة ولايستطع الانسان ان يدخلها الا زحفا على بطنه . وكانت ارضيتها مفروشـــة بالقش ، ولم يكن فيها بالطبع موقد للطبخ وكان كل مافيها من أثاث هو عبارة عن بعض الأوعية المصنوعة من عيدان القصب تستعمل لحفظ اللبن والعسل أو الزبد وما شابهها من الأطعمة التى هى من شئون نســـاء البيت .

وبالقرب من الزريبة كانت توجد بعض بيوت أكبر منها حجما مبنية من الحجر ولكنها غير مطلية . وهذه البيوت تستعمل كحظائر للماشية فى أيام الفصول المعتدلة . أما فى فصل الشتاء والأمطار فيغادرها أصحابها إلى السكنى فى الكهوف الموجودة بكثرة فى هذه المناطق للاحتماء فيها . وقد نحتت العواصف والرياح كهوفا طبيعية لاتحتاج إلى أكثر من بعض القش ليقيم فيها الآدميون وبعض الحيوانات .

وحينما كنت أعود إلى على ضبعان وضبعته ، كانت الرياح الشمالية تهب فتلسع ببرودتها جسمى وأنا على ارتفاع ١٦٠٠ قدم من سطح البحر ؛

كما كان الهواء المعطر برائحة التين يهب فينعش الإنسان ويعريه بالاستمتاع بالحيـــاة •

جاءنى أحـــد البدو بثلاثة ثعابين كلها سامه وكان أصغرها ثعبان جميل الشكل بلون أســـود وأبيض وتبين أنه من فصيلة جديدة . أما الثعبان الثانى فكانت الحياة لاتزال تدب فيه ولكنه لم يسترع اهتمامى كثيرا وكان الثعبان الثالث من الثعابين الكبيرة وكان طوله نحـــو تسعة عشر بوصـــة ورأسه مفرطحا ومن فصيلة الثعابين الأفريقية (الفحاحة) وهـــو نوع منتشر فى هـــذه المنطقة وعرفت هـــذا من كثرة الأعداد التى جىء بها إلىّ منه • وهذا الثعبان بطىء الحركة دو سم هائل ويحذره السكان تماما أثناء سيرهم فى المزارع وهو النوع الأفريقى الوحيد الـــذى يعيش فى شبه الجزيرة العربية •

وعند استخراج أحشاء هذا الثعبان وجدت أن جسمه مكون من سبع عشرة حلقة شرطية وأثناء العملية ورغم الاحتياطات التى كنت قد اتخذتها شعرت بعضة فى إصبعى ظلت تؤلمنى فترة من الوقت ثم خفت حدة الألم . واعتقدت أننى أتخذ الاحتياطات اللازمة • ولكن يبدو أن بعض قطرات من مادة الزرنيخ التى استعملتها فى هذه العمليات قد وقعت على يدى ربما فى مكان به جرح ســـابق •

ولايأكل سكان الجبل لحم الضبع أو الثعلب . كما أنهم لا يستسيغون أكل الدجاج وما يشبهها من الطيور ولا حتى بيضها مثلهم فى ذلك مثـــل الانجليز الذين لا يقبلون على لحم الضفادع والحلزون ، وتختلف الحيوانات التى تؤكل فى هذه المنطقة من مكان لآخر • فلحم الضبع مثلا حلال أكله فى المناطق التى تمتد من حضرموت إلى حدود عمان ، ولا يستثنى من هذا غير أهل المدن ، بما فيهم المجموعة القبلية التى لا تتحدث اللغة العربية ، أما البدو فى عمان والبدو الرحـــل عموما كعلى ضبعان الذى يعتبر من أكبر صيادى الحيوانات فيأكلون لحم الثعالب ويحرّمون لحم الذئب •

ويعلق المسلمون أهمية كبيرة على طريقة الذبح . وليس على طبيعة اللحم . وفى هذا يتفق الشرع الاسلامى مع القانون العبرى الذى يحل تناول اللحوم المذبوحة بالطريقة المشروعة أى من العنق ولايمكن أن نقنع البدوى بأن تحريم أكل الحيوانات فى العصور التى لم تخترع فيها الأسلحة النارية ، إنما كان بسبب نفوقها نتيجة مرض ما .

أما الأميون من العرب فإنهم يلتزمون بمبادىء التشريع الإسلامى فى هذه القضية . ويرفضون مبدأ الاجتهاد الذى يرون فيه عملا من أعمال الكفر والزندقة ولهذا فانهم يحرمون أكل لحوم الجوارح . ولا علاقة لهذا التحريم بالتشريع الدينى . وهناك الآية التى تقول . حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب . . وهو المبدأ الذى يرتكز عليه التحريم الدينى أما أسباب هذا التحريم وخلفياته فإنهم لا يناقشونها .

وعندما سألت أحد الجنود الذى يستسيغ كثيرا أكل لحم الثعالب عما إذا كان لحم الصقور من اللحوم المحللة فقد أبدى تعجبه من هذا السؤال وأجاب بالنفى . لأن الصقر كما قال له مقار وهم لايأكلون الطيور ذات المناقير حتى ولو كانت من طيور السمان وأبدى تأففه من على ضبعان الذى أمضى اليوم كله فى تقطيع لحم الضبع إلى سرائح ثم تعليقه على أفرع إحدى الأشجار لتجفيفه .

وقد سأل الجندى علياً عن السبب الذى يدعوه إلى تناول هذا اللحم فأجابه على بأنه يعده لحمله إلى صلاله لاستعماله كدواء لمريض من أصدقائه (هناك اعتقاد بين سكان هذه المنطقة فى أن لهذا اللحم فوائد علاجية فهم يعتقدون بأن الشخص الذى يشكو من ألم فى ظهره عليه أن يأكل من لحم ظهر هذا الحيوان والذى يشكو من ألم فى القدم اليمنى فعليه أن يأكل من لحم القدم اليمنى للحيوان وهكذا) .. غير ان الجميع

(الجلد للمتحف واللحم لعلى الضبعان)

كانوا يعرفون بما فيهم الطاهى المرافق لنا الذى كان على علم بهذا الاعتقاد . بأن على كان يجمع اللحم لتقديمه لأسرته .

أما بين سكان الجبل فموضوع لحم الضبع موضوع هام .. إنهم لايحرمون أكل لحمه فحسب . وإنما يحرمون قتله أو الاشتراك فى قتله لأنهم يعتقدون أنه حيوان سحرى وهو فرس الساحر ، وان كل من يعتدى عليه لابد أن يصاب بنوع أو بآخر من القصاص .

ومن هذا المنطلق يمتعض سكان « انقرا » من رؤيه رأس الضبع أثناء طهوه وهى الطريقة المتبعة عندهم لتطهير الجمجمة خصوصا إذا استعمل لهذا الغرض نفس الوعاء الذى يستعمل لطهى الأرز ، ولهذا أخذ الشيخ حسن يقدم لى التحذير بعد التحذير . لأنه من الذين يؤمنون بهذا الاعتقاد ، ولقد أقسم لى باغلظ الأيمان بأنه شاهد مرة ضبعة وفى أذنيها أقراط ولكن مما لاشك فيه أن صاحبه الضبعة هى التى قد تكون خرقت أذنيها ووضعت الأقراط فيها .

وقد سمعت هذه القصة مرة أخرى من زعيم قبيلة بيت الكثير وكان يقسم لى إن تلك القصة صحيحة أما على ضبعان فكان يعتبر لحم الضبع من أشهى الأطعمة ، وقد ذكرنى بأن سكان الجبل يختلفون عن العرب وقال إن قبيلته تعتقد بأن الضبعة هى (فرسة النبى) وإن النبى صلى الله عليه وسلم قد أحل أكلها . ثم روى لى كيف[1] تم تحليل أكل الضبعة فقال بأن ضبعة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وادعت بأن ابن الغزال هو ابنها وعندما مثلت الضبعة والغزالة أمام النبى وأخذت كل

---

(١) ... القصة ومثيلاتها لا سند لها من احاديث الرسول أو وقائع سيرته الثابتة عن الرواة الثقاة ولا تعدو أن تكون من قبيل الروايات التى يطلقها المداحون ليمدحوا بها النبى عن جهل بحقيقة الدين .

منهما تطالب بابنها • طلب النبى إليهما بأن تذهبا وتعودا إليه فى اليـوم التالى وجاءت الغزالة إلى خيمة النبى فسألها صلى الله عليه وسلم كيف قضيت ليلتك ؟ •• فأجابت بأنها قضت ليلتها ساهره لم تذق النوم • ثم جاءت الضبعة بعد شروق الشمس تمشى على مهل ولمـا سألها النبى صلى الله عليه وسلم كيف قضيت ليلتك أيتها الضبعة ؟ أجابت بأنها قضتها نائمه حتى أشرقت الشمس فى الصباح • وهنا التفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى الغزالة وقال لها خذيه إنه ابنك •• ولكن الضبعة غضبت من هذا الحكم وأخذت تعوى — فتناول النبى صلى الله عليه وسلم قضيبا صغيرا وضرب به الضبعة فأصاب رجليها الخلفيتين فالتوتا وبعد ذلك أصبح لحم الضبعة حلالا •

حقا إنه فرس النبى !

أما القرود فمن المحتمل أن تكون فى حضرموت . اما منطقة « القرا » فليس لها وجـود فيها . ويعتقد سكان الجبل بأن القرود من أصل الإنسان ويرددون حكاية عن هذا فيقولون بأن القرد دخل المسجـد وسرق نعـل النبى ومنذ ذلك اليوم حرم النبى صلى الله عليه وسلم دخـول القرود إلى الغابات ، وهذه القصة تشبه قصة ملك بابليون الذى يقال إنه فتح القدس ثم أكل من العشب فمسخ قردا •

لقـد أخـذت عملية الصيد فى منطقة العين تتوسع ورغم بعض الصعوبات التى اعترضت خطتى وفشلى فى إقناع الصيادين بأن يذبحوا الحيوانات التى يحضرونها إلى بطريقة تحافظ على جلودها ، بحيث تكون صالحة للاختبارات المعملية فقد كانت هناك عقبة رئيسية وهى وجوب التقيد بالأسلوب الدينى فى ذبحها أى أن يتم الذبح من مقدم العنق . وقد اقترحت حلاً وسطا لتلك المشكلة وهو أن يتم قطع الرقبة على طول ثم يثنى جلدها إلى الخلف ويعقب ذلك ممارسة ما تفرضه الشريعة •

وكنت أرفض دفع أجر عن الحيوانات التى تذبح على غير الطريقة

التى اتفقنا عليها وقد أبدى على ضيفان أسفا كبيرا على ثعلب كان قد اصطاده ولم يتقيد فى ذبحه بالطريقة التى اعتمدتها ، وأصبح فى نظره غير صالح للأكل من الوجهة الشرعية . وقد استغربت منه هذه التقوى خصوصا وأن تاريخه حافل بالجرائم ، وقد أبدى الجندى العمانى المرافق لنا اشمئزازه من الطريقة التى تمّ بها الذبح وقال بأنها مخالفة للشريعة ولم يأكل من هذا اللحم وعلى أية حال فإن الأساس فى الذبح هو الطريقة التى يتم بها . فإن تم قطع الرقبة من الجنب وصاحب ذلك تلاوة « بسم الله الرحمن الرحيم » فإن الذبيحة تكون حلالا .

وفى أثناء طهو اللحم توافد على مخيمنا عدد كبير من سكان القرى المجاورة الذين يبدو أنهم شموا رائحة الطعام وأحسوا بالجوع ، وكان بين الوافدين رجل من قبيلة المهرة لم يحضر خاوى اليدين وإنما جاء إلىّ بسلحفاة وعندما وقف يشهد طريقتى فى ذبحها انفجر غاضبا وقال بأنه عثر على هذه السلحفاة بالقرب من أحد الجداول فأحضرها معه ولم يكن يتوقع أنى سأقوم بذبحها قبل أن أحصل على موافقته . فقلت له : أيها الشيخ العزيز لقد اعتقدت أنك جئت بها لتأخذ ريالا .. ولكن الرجل انتقل إلى حيث يجلس المشاهدون لعملية ذبح السلحفاه ثم بادرنى بسؤال فقال هل لديك دواء لامرأة عاقر ؟ فأجبته ربما يكون هناك دواء لذلك ولكن ليس لدى شىء منه . ثم سألته وهل هى امرأة شابه فى حدود العشرين عاما مثلا ؟ فأجاب : لا إنها أكبر من ذلك . فقد تزوجت حتى الآن أربعة أزواج وأنا الخامس ولكنها لم تحمل إطلاقا . عدت أقول : ربما لا يوجد دواء . فعاد الرجل يقول : إن المراة لاتزال عذراء .. فعلّق شاب كان هناك بأن ذلك أفضل .. وضحك الجميع .

وبعد أن انفض الجمع بقى الرجل العجوز مكانه فأدركت أنه لم يفقد الأمل فى العثور على حل لمشكلته وقال لى : أريد منك كتابة [1] . فقلت له :

---

(١) يقصد من هذا الكلام انه يريد تعويذة تساعد المراة على الانجاب =

أى كتبة ؟ .. إننى لا أعرف شيئا يمكن أن أكتبه فيساعد زوجتك على الإنجاب ، محاولا بذلك أن أخفف من إلحاحه علىّ . ولكنه عاد يسألنى هل فهمت ما أعنيه ؟ .. فقلت له : أجل فهمت وأعدت عليه ماقلت ، ولكنه رد قائلا : إنها زوجتى وإننى أسعى للحصول على أمر من السلطان بأن تستسلم لى ، فقلت له : أخشى أن يكون هذا طلبا يستحيل تحقيقه غير أنه فى إمكانك أن تعرض شكواك على الوالى . فأخذ الرجل يتمتم بكلمات جبلية تعبر عن استيائه . ثم قال بأننى لو فعلت ذلك فإنه سوف يجلب على العار ، ثم توسل إلىّ بأن أكتم هذا الأمر فوعدته بذلك . ثم غادر الرجل من حيث أتى ربما إلى زوجتيه غير الراضيتين عنه .

وفى اليوم التالى قام شيخ مشايخ القرا بذبح بقرة بمناسبة زيارتى لهم وأثناء وجودى تحدث هذا الشيخ فى موضوع البقرة فقال بأن البقرة الواحدة تكلفه كثيرا ، وأن البقرة التى ذبحت قد أحضرها اليه أحد عبيده . فأخذت أنظر إلى الخادم الشحرى لأسأله عما إذا كانت البقرة هى بقرته الخاصة أو أنها أحضرت له .

وفى هذه الأثناء أخذ أهل الحى يتوافدون للاشتراك فى الوليمة وأخذوا يرددون أغانيهم الجبلية باللهجة المهرية وذلك على عكس أغانى الحب التى يغنونها باللهجة الشحرية ، وكان المغنى عبد الله شخصاً لطيف المعشر . ولكن ما إن أخذت أتبادل معه الحديث حتى بدأ يشكو لى سوء حاله وما يعانيه من متاعب ثم سألنى إذا كنت أحتفظ بدواء لأحد قدميه المتورمتين . وقد فشلت فى إقناعه بأننى لست طبيبا ، لأن هناك ما يشبه الاعتقاد المسبق بين هؤلاء المرضى بأن لدى قوة روحية تستطيع أن تشفيهم من أمراضهم . فسألته : منذ متى أصيبت قدمك ؟ فأجاب منذ ثلاث سنوات وقال إنها

= ولا يهم ان تكون هذه التعويذة آية من القرآن مثلا فقد اعتاد رجال الدين أن يكتبوا مثل هذه التعاويذ ويربحون منها كثيرا ياخذونها معهم الى المنادلق السكانية ويبيعونها لمن يريد وهناك تعويذة ضد الحسد بريال وتعويذة لبقرة مريضة بريالين وتعويذة لكثير من الأمراض باكثر من هذا .

لا تؤلمه إذا كان مستريحا ، ولكن عندما يسير فما أسرع ما يعتريه الألم على الرغم من أنه قد غمسها فى دم أحـد الأغنام إلاّ إنها لم تتحسن •

وتنتشر بين هذه القبائل عادة ذبح البقر والأغنام إذا مرض أحـد أفرادها ثم يؤخذ دم الغنمة أو العجل المذبوح ويرش على كتفى المريض وعلى صدره • وتتم هذه العملية عند الظهيرة ــ ويشترط أن يكون الحيوان المذبوح أنثى وليس ذكراً •

وقد أشرت إلى ندب فى إحدى يديه وسألته عنه واعتقدت أنه لايزال يؤلمه ، فأجاب بأنه أثر كى بالنـار إلا أن الكى لم يؤد إلى شفائه ، ثم عاد يسألنى عما إذا كان لدى دواء لجرحه هذا ثم قال ليس لدى أولاد ولكننى لو خيرت بين أن يكون لى ولد أو أن تشفى ساقى فإننى سـوف أختار شفاء ساقى ولكن زملاءه أخذوا ينظرون إليه فى استغراب •

قلت لعبد الله بأننى لست جراحا وأنه من الأفضل أن يتوجـه إلى عدن أو مسقط غير أن عدن أو مسقط بالنسبة إليه وهو الجبلى البدائى تبدو بعيدة جدا كبعد الأرض عن السماء ، كما أن رحلة كهذه قد تتطلب أن يتغيب عن عائلته فترة كبيرة من الوقت ، الأمر الذى يتعذر عليه ، ولكنه قال فى استسلام مطلق إنى أفوض أمرى إلى الله وأعتمد عليه فهو الذى يمرض ويشفى وهو الذى يحيى ويميت •

كان عبد الله على جانب كبير من الخلق والسماحـة • إنه من تلك المجموعة من القبائل التى تعتبر ذات صفات خاصـة ، وأفرادها يتميزون بالصلابة والخبث والشـك وعـدم الميل لمعاشرة الناس ، ورغم هـذه السلبيات فإنه يمكن الاستفادة من الجانب الطيب فيه وتطويره ، وهم ذوو عادات شاذة فإن الواحد منهم لايحيى من يلتقى به بالتحية التقليدية . كما إنه لايقوم بتوديع ضيفه أو صديقه ولكنك تراه ينهض فجأة من المكان ويتأبط بندقيته ويتسلل إلى الخـارج ، كما إنهم يميلون إلى التشـاجر

والخصام بين بعضهم البعض وهو ما كنت أحسه خلال وجودى بينهم حتى لايكون ذلك عقبة أمـام مهمتى التى جئت من أجلها .

ويبدو أن السبب الرئيسى لهذه الخلافات هى الثارات المنتشرة بينهم بينهم . فهذه المشكلة لا يمكن أن تنتهى سلمياً وإنما تدور فى حلقة مفرغة من الانتقام والانتقام المضاد وأبسـط مثل على ذلك ما حدث فى الشيخ حسن من أنه سرقت منه نحو مائة بقرة . وإن الذين قاموا بسرقة بعضهم من خصومه وكانوا يعمدون إلى تقطيع أجساد هذه البقر بطريقة لا تمس الاستفادة من لحمها بعد ذلك . بل إن البعض أخبرنى بأن الشيخ حسن قد مرس الثارات على نطاق واسـع للانتقام من خصومه ومقابله سرهم بشر مثله وأن الأهمية التى يحتلها الآن قد تحققت له من هـذا الطريق .

فى هذا اليوم سمعنا صيحات تقول « يوليد .. يفرحه ... يوليد يافرحه .. » وقد جرى الناس لاستطلاع الخبر . ثم أخذوا يتساءلون عما إذا كانت تلك الصيحات صادرة من بدو المنحدرات الجبلية لأن قبيلة الصيعر سبق لها أن قامت بغزو قبيلة بيت قطن .

كان بخيت نجل الشيخ الذى كنت سأوفده إلى ظفار لإحضار بعض الطلبات ولجمع المعلومات . وكان يستعد لتوجيه عدة أطلقت صيحات الحرب . فتأبط بندقيته فورا وذهب مع الذاهبين ولم يبن معى فى المخيم إلا بعض الشحرة . لأن الشحريين مشهورون بالجبن وضعف شخصيته ويستسلمون بسهولة لأعدائهم أو يفرون أمامهم دون أدنى مقاومـة أو محاولة للدفاع عن أنفسهم ويسمونهم هنا بـ « البنائم » .

وعلمت من الشيخ حسن فيما بعد أن الشحرة يخافون من رؤية الدماء ولذلك لايمكن أن يسفكوا دم أى إنسـان . وهذا هو جوهر مشكلتهم . إنه الحـد الفاصل بين الشجاعة والجبن وبين القبلى وغير القبلى . وبين سكان القرا والمهرة وبين كثير من ناحية وبين الشحرة وبين الشيخ من ناحيـة أخـرى .

والخلاصة أن إرادة القتال هى مظهر الوعى الجماعى فى رجل القبيلة ، والذى على أساسه يتصرف الفرد القبلى تجاه الفرد الآخـر . فالشحرة ليسوا أكثر من خدم . هذا رأى رجل القبيلة فيهم . والذى يرى كذلك إن الزواج من الشحرة كالزواج من الخدم لا يمكن التفكير فيه ، وهو على أبسط صورة امتهان للكرامة دعك من طبقة النبلاء أو السادة والتجار الذين يتخذون ممن يملكون من الرقيق نوعا من الجوارى لهم .

إن معاملة القبلى من سكان الجبل للشحرى تترك انطباعها فى ذهن كل رحالة أجنبى عن شعور كل منهما تجـاه الآخـر . هذا على الرغم من أن الشحرى الأصيل (والذى بحكم زواجه من خارج عشيرته يعد مـن سلالة أنقى) يتميز بأن وجهه أعرض من وجه عرب الشمال ، كما ان السلاح الـذى يقتنيه يساهم فى اضفاء هذه الصفات عليه ولكن قلما تراه يسير وهو يحمل سلاحـه .

كما لا يقتصر هذا التمييز على الزى وحده ، وإنمـا على نوع الأسلحة التى يستعملونها فسكان الجبل يحملون سيفا ذا حدين (من النوع المستدير والمنتشر بين القبائل المنحدرة من سلالة حامية) ، وهذا السـلاح هـو الذى يميزهم عن غيرهم من عرب شبه الجزيرة ، بالإضافة إلى النـوع العريض المستقيم من العصى[1] . وهذه العصى تحل محل السلاح وهم يجيدون استعمالها بكثير من الحـذق والمهارة ، أما طبقة الأغنياء وعلى الأخص فى جبال القرا فإنهم يحملون البنادق ولكن العرف لا يلزمهم بحمل السيف ذى الحدين ، ويكفى السيف ذو الحد الواحـد ، كما إنهم يحملون العصى العادية بدلا من العصى العريضـة .

---

(١) .. ان هذا النوع من العصى يستخرج من الاخشاب الثقيلة جدا التى لا تنمو الا فى منطقة جبال ظفار ، وهو لثقله يغطس فى الماء .

ودات مره سألت أحد الشحره الذى صادف وجوده معنا عن تاريخ نسب الشحره فعلمت أنهم ينحدرون من نسل القبيله التى عقرت ناقة النبى صالح وأنهم محسوبون بهذه العقده حتى يومنا هذا . لأنهم يعتبرون من طبقه ادنى من الاشراف والسادة فى المنطقه .. ولكنى عدت أسأل أثناء الحديث متظاهرا بالجهل بالموضوع هل كان لصالح ناقه بالفعل ؟ فرد محدثى وكأنه يرثى لهذا الجهل من جانبى . ألم تسمع عن ناقه صالح وانتى كانت افضل الحيوانات جميعا ؟ .. لقد كان للنبى صالح عصى تدور فى كل اتجاه تدور فيها الشمس . فإذا كانت الشمس فى المشرق فهى تتجه إلى المشرق . وإذا جرت إلى المغرب اتجهت العصى إلى المغرب . وكانت تلك الناقه تزود الناس بالبن والعسل والنبيذ . وقد عاشت فى عهد قبيلتى ثمود وعاد . فقام أحد الشحرة وعقر الناقه فعاقب الله الشحرة بإرسال جحافل النحل عليهم فالتهمتهم[1] . حتى لم يبق منهم غير هذه الشرذمة .

وقد سمعت نفس الحكاية من عجوز من نفس المنطقة أخذ يرويها لى بشىء من المبالغة فقال بأن الشحرى الذى عقر الناقة كان مفتونا بحب إحدى النساء ، فتتبع ابن تلك الناقة ليذبحه أيضا ولكن الله نجاه منه . فقد اختبأ بأحد الكهوف الذى أغلق فتحته عليه وبذلك لم يتمكن الشحرى من قتله « شوف سبحان الله » . فهل لازلت غير مصدق لهذه الواقعه ؟ ولكنى سألته عن أصل قبيلة القرا ومن أى الأجناس ينحدرون ؟ فأجاب : إن العرب يسموننا « القرا » أما نحن فنسمى أنفسنا « الحكلى ». فقد نزح أجدادنا أولا إلى حضرموت من طريق البحر .

لقد تكرر على مسمعى هذا الرأى كثيرا . وأما الشيخ حسن فيعتقد بأن قبيلته نزحت مع قبيلة المهرة من المغرب وأن القبيلتين عاشتا معا فى

---

(١) .. جاء بالقرآن الكريم أن الله عاقب قوم صالح لما عقروا الناقه بأنه دمر قريتهم وسواها بالأرض ولم يرد به ذكر لجحافل النحل .

منطقه حبروت ، وهـذا الرأى قد لايكون صحيحا لسبب بسيط وهو أن هذه القبائل مثلها مثل قبائل الشحرة وبورحمه لاتعتمد فى معيشتها على الجمال ، وأن عدم وجـود الجمال فى حياتها وهو العنصر المميز للقبائل البدويه يعتبر دليلا قاطعا على أن هـذه القبائل نزحت إلى المنطقه عن طريق البحر • كما قال الشيخ حسن بأن الحكلى هم الأجداد وأن سكان القرا ينحدرون فى الأصل من قبيلة قريش ولكننا عبرنا إلى المنطقه مـن البحر وقد علق أحـد الموجودين وكان من طبقة السادة بان قريشا التى ينحدر منها الظفاريون ليست قريشاً التى خرج النبى صلى الله عليه وسلم من أصلابها ، ولكنها قريش أخرى غير معروفة لغير سكان القرا •

وكان هذا الوعى بين السكان بالفوارق العرقية بينهم وبين العرب بوجه عام مثيرا للاهتمـام وربما كان دليلا على احتمال أن يكون سـكان القرا من سـلالة الفاتحين الأحباش المسيحيين الذين غزوا جنوب غرب الجزيرة العربية واعتنقوا المسيحية •• وعلى أية حال فإن هـذا الاحتمال لم يتأكد بصورة قاطعة من الأشخاص الذين ناقشتهم فى هـذا الموضوع لأن العالم فى نظر هؤلاء الناس ينقسم بين مسلم وكافر ولا شىء غيرهما بالرغم من أنهم لايفقهون شيئا من القرآن •

ومن النادر أن ترى شخصا يجيد القراءة والكتابة فيما عـدا بعض السادة المتجولين ، وقد ترقى إجادة القراءة والكتابة إلى مستوى السحر وهو أمر يمكن ملاحظته من خلال تاريخ المهرة وغيرهم من القبائل فى هذه المنطقة • وكان كلما اتصل شخص منهم بى للعلاج يتوقع منى أن أفتح له الكتاب ، وهـذا الكتاب هو كتاب أطلس الخرائط التى تحـدد مواقـع النجوم ، وذلك لكى أكشف له عن نوع المرض الذى يشكو منه •

وهناك من يعتقد بأن سكان القرا ينحـدرون من سـلالة حِمْيَر ، ولكن الرجل المثقف الذى كان معنا تساءل عما إذا كنت أعنى حميرا الأولى أو الثانية فهناك كما قال اثنان أى « حميران » وليس حميرا واحدا ولكن

رجلا غرويا قال إن الله هو العالم فإننى لم أكن موجودا خلال ذلك التاريخ. فكيف أعرف أيهما على حق . وعلى أيه حال فإن لغتنى مهره وحمير لغتان مختلفتان . بالرغم من أن العرب يستعملون لفظه مهره . أما أهل الجبل فيلفظونها « نهرو » . بالنون المخمخمة فضلا عن الفوارق الفيزيائيه واللغويه بين سكان المهرة وسكان القرا . غير أن الرجلين لم يوافقا على أن القبيلتين من أصل واحد .

وعندما جاء عليهما الدور للتحدث سألا وماذا عنكم أيها الإنجليز ، فأجبتهما بأننا لانقل عنكم عراقة فى الأصل .. فقالا إذن أنتم قبليون . لكنه من الصعب ضمن المعنى الدقيق لهذه الكلمة أن نشمل الإنجليز . فالذين لايسمح مجتمعهم بحمل السلاح أو الدفاع عن انفسهم بأنفسهم وحيث تسير النساء سافرات ويتمتعن بحقوق متساوية مع الرجال . لاينطبق عليهم هذا المفهوم . غير أنى لم أشأ أن أقلل من شأن الانجليز أمام هؤلاء الخيوف . وإن كنت قد أوضحت لهم بأن النصارى (وهذا حينما يشمل الإنجليز أيضا) قبائل قوية .

ثم سألنى الرجلان : ومن هو جدكم ؟ .. فقلت لهم إنه آدم . ومن حيث المبدأ فنحن جميعا من جد واحد ولكن تفرقنا خلال العصور .. فقالا : نعم هذا صحيح ثم أخذا ينظران أحدهما إلى الآخر كأنما يريدان أن يؤكدا لى بأننى قد قلت الحقيقة ، ثم عادا يسألانى : وهل تمارسون الختان ؟ .. فرددت عليهما بالإيجاب ولكنى قلت إن الختان ليس إجباريا عندنا .. فقالا : معنى هذا أن هناك بعض الأشخاص لم تعمل لهم عملية الختان ؟ .. فرددت عليهما بالإيجاب . وهنا قال محدثاى « غفر الله لكم » .

يعتبر الختان من العادات ذات الأهمية البالغة بين هذه القبائل ويختلف عنه فى أنحاء شبه الجزيرة العربية الأمر الذى يوحى بأن للختان جذورا تكاد تكون مستقلة ، ويتم الختان بالنسبة للذكر عند بلوغه الحلم أما بالنسبة للفتاة فيتم يوم ولادتها ، وذلك على عكس ما هو متبع فى أجزاء أخرى من

شبه الجزيرة العربيه [١] . وعلى الأخص فى عمان حيث يتم ختان الذكور أثناء طفولتهم (فى نحو السادسة من عمرهم) . أما البنت فيتم ختانها عند بلوغها سن العاشرة . وفى كلتا المنطقتين تتم عمليه الختان بإزالة القشرة الخارجية للذكر . بينما يتم بالنسبة للأنثى بقطع الجزء العلوى للبظر . أما فى هذه المناطق الجبلية فيتم بإزالة البظر كله .

والختان فى هذه المنطقه يشبه الختان الذى كان متبعا فى مصر فى العصور القديمه كما ثبت من المومياء التى تم اكتشافها . وتصاحب عمليه الختان احتفالات كبيرة فتتجمع أعداد كبيرة من السبيه فى المكان الذى تتم فيه عملية الختان . كما أن الختان يعتبر اختبارا لقوة احتمال الشباب ورجولتهم .

ويحضر الاحتفال الذى يقام بهذه المناسبة كل من الرجال والنساء فى منطقة مكشوفة فيؤتى بالشاب الذى يُراد ختانه ويجلس على صخرة ويحمل سيفا حاد الشفرة بيده . وقد خصص لهذه المناسبة . ويقوم الشاب بقذف السيف إلى أعلى ثم يلتقطه بحيث تلمس راحته حد السيف ثم يأتى الخاتن ويجلس إلى جانب الشاب بينما تقف خلف الخاتن فتاة عذراء محجبة وتكون عادة إحدى قريبات الشاب أو أخته وفى يدها سيف[٢] . وتأخذ الفتاة تلوح ــ بالسيف يمنة ويسرة وتضرب به على راحتها . وهذه العملية تعتبر تمهيدا لعملية الختان .

ثم يجلس الشاب ويرفع يده اليسرى إلى أعلى انتظارا لإجراء

---

(١) .. لقد تناهى الى علمى أن الختان بالنسبة للذكر يتم عند بلوغه سن الرشد فى العراق أما الاناث فلا تخضع لهذه العادة . وتعتبر سن الرشد هى من السنة الثانية عشرة الى السنة الثامنة عشرة فى هذه المنطقة .

(٢) ... من المألوف أن يقوم بعملية الختان احد زعماء القبائل أو شخص من عائلة مرموقة . وذلك على عكس ما يتم فى عمان اذ يقوم بالختان الفجر (الزطى) أو فرد من عامة الناس .

العمليه وبمجرد انتهائها يتعين عليه أن ينهض ويدور حول الجمع يرفع سيفه ويخفضه بطريقه لايظهر منها أنه يشعر بأى ألم .

وبهذا الاستعراض يثبت الشاب رجولته ، وفى تلك المناسبه تقوم النساء بإنشاد الأغانى وقرع الطبول ، كما تقمن بتعرية صدورهن ابتهاجا بذلك . بينما يتم ختان الإناث [1] فى خفية وبدون ضجة . كذلك يتخذ هذه الاحتفالات إطلاق النيران فى الهواء .

أما تسريحات الشعر فى هذه المنطقة فإنها على مايبدو مرتبطة بالنواحى التجميلية . ومن أبرز هذه التسريحات خصلة الشعر التى تتدلى على رؤوس الرجال . وربما كان لذلك علاقة بقدماء المصريين الذين استعملوا هذا النوع من التسريحات التى تشبه خوذة رجل الشرطة فى عواصم المدن أو العمامة الهندية ، ولكن خصلة الشعر هذه تحلق عند الختان . وبعد ذلك تترك للشخص الحرية فى إطالة شعره أو حلقه .

ولا تقل غرابة عن تلك التسريحات إلا تسريحات النساء . فيحلق شعر الفتاة على شكل خطوط فى الرأس تترك منه خصلة متدلية على الجبهة بينما يحلق شعر مؤخرة الرأس حلقا كاملا فيما عدا ثلاث أو أربع خصلات رفيعة . وتحتفظ الفتاة بهذه التسريحة لحين زواجها الذى يتم فى نحو الثالثة عشرة من عمرها وبعد ذلك تترك لها حرية التصرف فى شعرها .

وبعد مضى شهر على الزواج يحلق جزء من شعر الزوجة به ٣/٨ البوصة ويتم الحلق بالموسى فى وسط الرأس بحيث لا يمكن للشـ .

---

(١) ... تتم عملية الختان عند قبيلة المهرة بالنسبة للذكر وقت عقد القران .. وكان هذا فى الماضى ، أما الآن فان الختان يتم فى أحد المناطق الصحراوية المكشوفة الذى يجمع فيها الرجال والنساء وأمامهم نار مشتعلة وخلال هذا تقوم نحو ١٨ امرأة باستعراض امام الرجال ليقرروا من هى اجملهن وعندئذ تخضع بقية النساء على الاختيار .

ضريبة الشعر للفتيات

أن ينمو مرة أخرى [١] • وقد يؤدى ذلك إلى ازالة جزء من قشرة الرأس مما يسبب ألما شديدا للمرأة قد يتسبب فى وفاتها فى بعض الأحيان • ومن أنواع التزين التى تستعملها نساء المنطقة طلاء للوجه من صبغة سوداء غريبة الشكل •

وفى المناسبات الهامة فإن هذا الطلاء يجمع بين اللون الأسود والأبيض والأخضر غير أن هذا النوع من الطلاء يشوه وجه المرأة ، كما ترسم المرأة خطوطا سوداء عريضة حول عنقها وقد تضع نقطة حمراء فوق الجبين ، كما تضع نوعا من أحمر الشفاه على شفتيها • أما المرأة المتزوجة فإنها ترسم خطا أسود على الرأس فى المكان المنزوع منه الشعر ومن العادات المنتشرة بين نساء المناطق الجبلية وضع وشم على ذقونهن على شكل نقطتين يتوسطهما خط فاصل كهذا (ا•ا) •

وقد لاحظ « لين » انتشار هذه العادة فى ريف مصر •• أما الحلى والمجوهرات فتستعملها نساء الجبل بكثرة • فهناك حلى للأذنين كالأقراط والسلاسل التى تعلقها المرأة فى أذنيها كما تضع الفتاة بعد بلوغها سن الرشد حلقة فى الجهة اليسرى من أنفها ، أما الخواتم فتستعملها النساء سواء كن متزوجات أم لم يتزوجن بعد ، كما تتزين المرأة بنوع من الخلاخيل الكبيرة الحجم وذلك على عكس سكان المناطق الساحلية •

وقد اجتمعت بامرأة مهرية ساخرة الوجه مثل بعض زميلاتها وكانت تصبغ وجهها بطلاء أصفر وأخضر ، وعرفت أن هذا الطلاء يستخرج من جذوع بعض الأشجار التى تنمو عندهم • وقد جاءت هذه السيدة لزيارتى وكانت تضع نفس الطلاء على ساعديها وركبتيها وفى الجزء الأعلى من الصدر حتى عنقها وكانت ترتدى ثوبا فضفاضا أسود تلامس أطرافه

---

(١) ... لا يسمح للاناث بترك شعر العانة او الابط اطلاقا ، وتتم ازالته بنزعه باليد او باستعمال الشمع .

الأرض وتعصب رأسها بقطعة قماش من « الموزلين » يتدلى طرفاها على كتفيها وكان منظرها كمنظر القردة ، وقد قدمت لى هدية من عندها وعندما فتحت سلتها التى تحفظ فيها حاجاتها كشفت عن جانب آخر من عـادات النســاء فى هذه المنطقة فقد كان فى السلة نشــوق .

إن استعمال النشوق عادة منتشرة فقط بين النســاء دون الرجال . بينما التدخين مقصور على الرجال ، وإن كان الرجال والنســاء يضعون نوعا من التبغ وهو مزيج من التبغ والليمون وقد قيل لى بأن هذا التبغ له مفعول مخــدر ، أما الهدية التى قدمتها لى وكنت ترمى من ورائها إلى مجاملتى ، فقد كانت وعاء من الخزف لحفظ أدوات الزينة . ويصنع محليا وكان جميل الشكل للغاية وينتشر استعماله فى كل أنحاء المنطقة الجبلية . وكان فى الوعاء بعض الزبد التى كانت السيدة قد طلت أنفها ورأسها منه . وذكرت لى بأن الزبد دواء للصداع والعين كما أنه مطهر للبشرة .

وكان معها أحد الفتية الذى جاء إلى بسنجاب من النوع النادر جدا لصعوبة صيده . ثم أخذ الفتى يقبل المرأة العجوز فوق خدها الأيمن ثم خدها الأيسر ثم فوق رأسها وعلى صدرها مما كان يدل على أنه من أقاربها . وقالت المرأة : ألا تعرف هذا الفتى . إنه هيرين بن مرعى ابن عمى ؟ .. لقد كان فى مسقط، وعندئذ تحدث الصبى مؤكدا قولها فقال : لقد كنت فى مسقط . وعندما جئت أنت إلى سجن الجلالى أخذت مقياس رأسى . غـير انى كتمت هذا الأمر حتى لاتعترض عشيرتى على ذلك .

وقد سألته عن الأسباب التى أدت به إلى السجن . ويبدو أن الفتى كان قد تعرض بالأذى لإحدى الفتيات مما حمل أهل الفتاة إلى رفع دعوى ضده عند الوالىَ . وقد حكم عليه بالسجن فى سجن الجلالى بمسقط لمدة عام واحد ، ولكنه قال بأن السجن لم يؤثر عليه إطلاقا وبأن الله قد هيأ له رزقا كثيرا فى مسقط ، وأنه عاد من هناك ببندقية ثم أخرجها ليريني إياها .

ومن العادات الغريبة المنتشرة بين القبائل الجبلية هى طريقتهم عند

التحية ، وإذا ـ كانت المصافحة هى الطريقة المتبعة بين العرب ، فيما عدا النســـاء ، فإنهم هنا يكتفون من هذا بلمس أطراف أصابع بعضهم البعض ويتعين على المرأة أو الفتاة فى هذه الحالة أن تسحب يدها بسرعة فائقة من يد الرجل أثناء التحية أما إمســـاك يد الفتاة أو لمس راحتها كما هـــو معروف فى أوروبا فيعتبر عملا منافيا للتقاليد ، وقد يدفع ذلك أهل الفتاة للانتقام من الرجل . وعندما يلتقى الرجال تكـــون التحية بتقبيل الخـــد الأيسر ثم الكتف الأيمن ، غير أن رجال القبائل البدوية فى الواقع لا يعرفون تقاليد المجاملة ، فإذا حضر أحد أفرادهم إلى مكان فإن الموجودين فيه لا يقفون لتحيته الأمـــر الـــذى يخالف التقاليد المتبعة فى ســـائر البلاد العربية .

أما بالنسبة للرجل المسن أو الشيخ فإنه يحيىّ بتبادل القبلات أولا ثم التراجع إلى الخلف لبضع ثوان قبل الجلوس .

وقد أعطيت مكافأة للمرأة وقريبها عندما غادرا المخيم وقد أخذا يرددان « بيّض الله وجهك .. الله يحفظك » .. وفى هذه الأثناء سمعت أصوات بعض النساء اللاتى كن قريبات من إحـــدى عيون المـــاء وقد ذهبن إلى هناك لإحضـــار المـــاء . وقد فهمت بأن الأغانى التى كانت الفتيات ينشدنها تعبّر عن فرحتهن غير إن معرفة معانى هذه الأغنيات الغرامية كان يتطلب وجود شخص يحسن اللغتين لكى يترجمها لى إلى العربية . ولمـــا لم يكن مثل هـــذا الشخص موجوداً فقـــد اكتفيت بتسجيل لحن الأغنية بالنوتة الموسيقية .

وهنا تساءلت فى نفسى ما إذا كان يوجد فى أى منطقة من المناطق الجبلية فى البلاد العربية نســـاء على ذلك المستوى من الجرأة على الغناء فى مكان عام لأن هذا لو حدث فى عمان المعروفة بالتزمت فإنه يعتبر عمـــلا منافيا للأخلاق وتعاقب عليه الفتيات ، إلا أن مثل هذه الأغانى تتردد فى كل مكان من هذه المناطق والوديان ولها وقع جميل على الأذن .

الفصل التابع
جبال القرا - الحسد وطقوس النار

العين : الأسبوع الثانى من نوفمبر . كان القمر بدرا فى السماء وقد تذكرت هذا المشهد عندما كنت فى مسقط قبل شهر . وكنت أستعد لمغادرة الميناء .

غير أن ثمة فرقا شاسعا بين المشهد الذى رأيته فى مسقط والمشهد الذى أراه الآن فضلا عما ينطوى عليه هذا التصور الآن من ظروف وملابسات . وعلى الرغم من أننى كنت فى تلك اللحظه أتصور الأهوال التى قد تصادفنى فى الوصول إلى بحر الرمال إلا أننى فى غراره نفسى كنت أشعر بارتياح كبير وأنا جالس أجيل الطرف فى أرجاء هذه الجبال التى تفيض سحرا وجمالا وهدوءا .

قضينا الليل تحت إحدى أشجار التين التى كانت أغصانها تشكل منظرا جميلا وكانت أسراب هوام الليل تحدث أصواتا عاليه متواصله كما كانت الخنافس تثب فوقنا من غصن إلى غصن بينما كشف هبوب الهواء عن النسور التى كانت تطير بسرعة فائقة فوق رؤوسنا كما أخذت طيور اللقلق البيضاء وذات اللون البنّى تتجمع كعادتها على قمم الأشجار للمبيت ولكنها أخذت تطير فى بداية الفجر ربما لأنها امتعضت لتطفلنا على المكان ولم تعد تضفى على الحقول التى سطعت فوقها الشمس مسحة من ألوانها المزخرفة والمنفرة فى نفس الوقت .. فهل كان فجرا جميلاً حقا ؟ .

لقد طلع الفجر على أصوات مزعجة لأحد طيور الوروار وهو ينادى على رفاقه . فهل كان فجراً جميلاً ؟ .. كلا .. لأن الأرنب الرضيع الذى اصطدناه وكنا نرضعه من لبن البقرة وجدناه فى الصباح ملفوفا فى قماش خشن بارد .. ولما لم نكن فى حاجة إليه فقد قررنا ذبحه غير

إن منظر الذبح وسلخ الجلد قد جعل الجندى المرافق لنا ينسحب مطأطىء الرأس الأمـر الذى يعتبرهزيمة عند هؤلاء الناس المتوحشين ، وقد تقرر أن نغادر مخيمنا إلى مخيم آخر على بعـد نحـو أربعـة أميـال إلى الغرب وقد طلب أصحاب الجمال التى حملتنى إلى هـذا المخيم أن أترك لهم الجمال لأنهم أحسوا بأن بقاءهم فى ذلك المكان غـير مأمون وقـد كان من الممكن الحصـول على مجموعة أخرى من الجمال من نفس المنطقة التى كنا فيها غـير أنه لابد من اتخاذ كافة الاحتياطات وذلك حفاظا على العينات الهامة التى كنت أحملها معى .

وكان طريقى من ذلك المخيم يتجه غرباً من حوض العين عبر مروج صخرية ومنحدرات عميقة بحيث اضطرتنا إلى النزول من فوق ظهور الجمال بالرغم من أن الطريق كانت فى بعض المناطق ترتفـع عن سطح البحـر ونستطيع أن نطل مـن فوقها على سـلاسل الجبال كلها . وعلى يسارنا كانت هناك أودية واسعة جميلة المنظر وخلفها عدد من الأودية يمتد حتى السهـول ومنها إلى التلال والأودية التى تمتـد إلى سهل جربيب . وفى هذه المنطقة توقفنا بعض الوقت لأسجل ملاحظاتى عن المناطق الهامة من السـاحل الذى يبلغ طوله نحـو سبعة عشر ميلا تقريبا .

وقد اتجـه أحـد المرافقين إلى ذلك المنحـدر الأخضر ليستريح تحت بعض الأشجار بالقرب من إحـدى عيون المـاء ثم عاد إلينـا يحمل كمية من الليمون الأخضر وبعد فترة وصلنا الى حافـة إحـدى الوديان الكثيفة الأشجار والذى يعتبر من المنابع الرئيسية لوادى « عربوت » . ومنه انتقلنا إلى جانب من الوادى الذى يرتفع نحـو ١٦٥٠ قدماً فوق سطح البحر وأقمنا مخيمنا فيه .

وقد تعودت من خـلال هذه الرحلة على أصـوات الرعاة وجـرى

القطعان وكانت عين خينوت قريبة من هذا المكان كما كانت المنطقة التى نخيم فيها مليئة بقطعان الماشيه وهى فى طريقها من العين وإليها .

وتعتبر الثروة الحيوانية لهذه المناطق الجبلية وفيرة بالمقارنه بالمناطق الأخرى لشبه الجزيرة العربية . وتكاد لا تجد رجلا أو امرأة إلا ويملك بعض الماشيه ومنهم من يملك نحو مائه رأس أو أكثر . ومعدل الثروة عندهم يبدأ من عشرين رأسا كما إن الذى يملك أربعين رأسا يعد من أثرياء المنطقة . والأنثى من البقر تعتبر أهم عناصر تلك الثروة وذلك لما تنتجه من اللبن والزبد .. ومعلوم أن عجلا أو اثنين يكفيان قطيعا بأكمله ، فإن بقية العجول تذبح ليؤكل لحمها ويعلق جلد العجل بعد ذبحه على جسم أمه ، وذلك يساعدها على زيادة كميات اللبن التى تدرها . وهذه العادة منتشرة فى شبه الجزيرة العربية .

ونفس الشىء يحدث بالنسبة للنوق فى عمان . وتربى النوق فى مناطق الوديان التى تكسوها الغابات كالتى تحتنا وذلك على نطاق واسع ولكن تربيتها تنحصر فى مجموعات قليلة لأن عائدها أقل وتحتاج إلى رعاية أكثر .. بل إن عملية تزاوجها لا يمكن ان تتم بدون مساعدة من أحد .. ولاتستخدم النوق للركوب لأنها غير مريحة وهذه حقيقة تأكدت منها بنفسى وبالتالى فإن أهمية هذه الإناث تنحصر فى الإنجاب بينما تستخدم الجمال فى الأعمال الشاقة كنقل اللبان من المناطق الجبلية إلى مناطق الساحل . ثم تعود إلى مواطنها بحمولات السمك والعلف ... الخ .

أما المواشى فتربى فى منطقة « قطن » بأعداد غير كثيرة وفى المناطق التى ينمو فيها العشب وفى منطقة سهل جربيت ، كما تربى على نطاق أوسع فى منطقة سهل ذلول على سفح جبل سمحان وتتألف هذه القطعان من الأغنام . وأهل الجبل لا يأكلون لحومها وإنما يقدمونها فى الولائم والمناسبات للضيوف .. كما هو الحال بالنسبة للدجاج وبيضه .

ولا توجد الكلاب فى هـذه المناطق ويوجـد عدد قليل من الحمير التى يقـوم بتربيتها بيت كثير .. أما بالنسبه للحاصـلات الزراعية فى منطقة القرا فهى منحصرة فى الحبوب لعـدم وجـود أراض تصلح لنمو العشب فيها .

وفى جبل سمحان الذى له نفس الظروف المناخية يزرعون اللبـان ويعهدون بزراعته إلى أفراد قبائل المهرة ومع ذلك تظل تربية الماشية هى عماد الحياة ، لأن الجبليين كبدو الصحراء لا يكلفون بأعمال الرعى ومحظور على السيدات أن يمسسن ضرع البقرة أو الناقة أو المـاعز وإذا فعلت إحداهن ذلك فانها تكون قد ارتكبت مخالفة خطيرة [1] .

وإذا مرضت هذه الحيوانات وامتنعت عن إدرار اللبن على سبيل المثال فإنهم يعزون ذلك إلى الحسـد « أى العين » فيعمدون إلى تبخيرها باللبان إما وقت شروق الشمس أو عند غروبها . وقد شاهدت تلك العملية وهى تتم بأن يُحضر صاحب البقرة المصابة مبخرة ويضـع فيها بعض العيدان ثم يبصق فى المبخرة ثلاث مرات فى الوقت الذى يمسك اثنان من زملائه البقرة أحدهما من فكها والثانى من ذيلها مع ليّه قليلا ، ورفـع رجليها الخلفيتين بينما يقوم صاحبها بتمرير المبخرة فوق جسمها فى حركات دائرية وهو يتلو بعض التعاويذ باللهجة الشحرية معناها « .. انظرى إلى بخورك من اللبان والجمر من عين الحسـود من الناس من مكان بعيد من أحبائك أقربائك من بعيد . إذا كان منى فردى العين وإذا كان من غـيرى فردى العين أيضـا من عين الحسـود من الناس . أنا رجل جئتك بكفارة من عين الحسـود رجلاً كان أو امرأة أنظرى إلى بخـورك من اللبـان والجمـر .. » .

---

(١) ... على النقيض من ذلك شـمال عمـان اذ يعتبر قيام الرجال بحلب الأبقار من الأعمال المشينة .. ويختلف عن ذلك المهرة وبيت كثير الذين يسمحون للنساء بحلب الماعز فقط دون البقر او النوق .

وبعد انتهاء الرجل من تلاوة التعويذة يطلقون البقرة من أيديهم ثم يقومون بربطها وشـــد ذيلها وهم فرحون على الرغم من أن هذه الحركات تسبب ألمـــا للبقرة[١] . وكان هناك بعض الرجال من بيت كثير وسألتهم عما إذا كانت هذه العادة موجودة عندهم فرد أحدهم يقول : توكل على الله ثم حكى لى عن طريقة أخرى عندهم لعلاج الحيوان وهى الكى . وقال بأنهم بعد الكى يأخذون غصنا ويكسرونه نصفين ثم يلفون به على الحيوان المريض . وأثناء ذلك يقولون له : كسَّرت العـــود والشر ما يعود . . وبعد ذلك يشفى الحيوان من مرضه .

فى اليوم التالى دعيت لأشهد إحدى عمليات « نفخ » البقرة ، والنفخ عادة منتشرة بين قبائل هذه المنطقة ويعتقدون أنها تساعد البقرة على إدرار اللبن ، وعند وصولى وجدت البقرة واقفة ورجلاها الخلفيتان مربوطتان ربطاً شديدا ، وكان هناك صبى يقف أمامها ويقدم لها الطعام لكى تستسلم للعملية ، واقترب صاحبها من مؤخرتها وسحب نفســـا طويلا ثم أمســـك بذيلها ونحاه جانبا ، ثم وضع فمه بعد ذلك فى دبرها وأخـــذ ينفخ بشدة ويتوقف بين الحين والآخر ليمنع خروج الهواء منها ثم يمســـك بأضراعها الأربعة ويدلكها لكى يتأكد من نجاح العملية وقد قيل لى بأن بعضهم يضع فى فمه شيئا من الملح عند النفخ ، ولكنى لم أشاهد مثل هذه الطريقة .

ومما لاحظته أن قبيلة القرا بمنطقة « ثيدوت » عصبيون ؛ وقـــد تصورت فى بادىء الأمـــر أن ذلك قد يكون حدث لهم بسبب وجودى فى المنطقة وخشيت أن يقبضوا علىّ كرهينه عندهم ، ولكن مثل هذا التصرف لم يسبق أن حدث فى شبه الجزيرة العربية ، كما إنى خشيت أن يؤدى وجودى هناك إلى نشوب نزاع وسفك دماء أجد نفسى متورطاً فيه .

---

(١) ... بعد أن يتم دور الرجال فى عملية البخور ويعود الحيوان الى البيت يبدأ دور النساء ليكررن نفس العملية .

وذات يوم توجه القوم إلى ظل بعض الأشجار وجلسوا تحتها القرفصاء على شكل دائرة وأيديهم على زناد البنادق ولكن الموقف مرّ بسلام . وكان الجميع يتبادلون الحديث على عكس مثل هذه الاجتماعات التى تتم بين العرب وتسودها فترات طويلة من الصمت . ولكن فجأة تكهرب الجو وتصاعد النزاع وتبادل الاتهامات بشكل ينذر بانفجار الموقف . وساد الجمع الهرج والمرج حتى لم تعد تعرف من المستمع ومن المتحدث .

وفى هذه الأثناء بادر أحد الصبية من الموجودين بجذب والده الذى كان أكثر الموجودين تشدداً وطلب من الجمع أن يصحبه إلى الخارج ولكنهم أخذوا يشتمون هذا الرجل ، فكر راجعاً اليهم وقال لهم هذه العبارة « رهان عليك » .. وأخذ يتحداهم لمبارزته بما كان لديه من البنادق والعصى ، وعندها قام أحد الموجودين ثائرا وأمسك بزناد بندقيته . غير أن الآخرين بادروا إلى تهدئة الموقف وحله سلميا وهكذا تفرقوا وانتهى الخلاف .

أما الاحتكام فى مثل هذه المنازعات فيتم عن طريق العرف ويسمى هناك حكم العوض [1] . وتختلف هذه الأحكام باختلاف المناطق وتقوم على أساس مبدأ العين بالعين والسن بالسن ، ويشترط أن تتناسب العقوبة مع الجريمة ، وقد حدثنى والى ظفار عن قضية كانت قد عُرضت عليه مؤخرا فقد كان أحد المواطنين مسافراً من منطقة إلى أخرى فطلب الأمان « الربعة » . من القبيلة التى كان متوجها إليها ولكن بمجرد وصوله إلى القرية التى تقيم بها القبيلة أطلقت عليه النار فأصابته رصاصة فى فخذه

---

(١) .. فى تلك المنطقة يفضل الناس حكم العوض « العرف » على حكم الشرع ، اما فى المناطق الساحلية فتطبق الحكومة قانون الشريعة عن طريق القوة ويمتثل المواطنون لهذا الحكم فى قضايا الزواج اما المنازعات المدنية وغيرها من الجنايات فتخضع لقانون العوض ويتولاه القاضى الذى يتقلد منصبا وراثيا فى اغلب الأحيان وقد يكون ايضا زعيم القبيلة أو من يقوم مقامه .

وعدّ ذلك خرقاً من أهل القرية لمبدأ الحماية المعمول به بينهم وقد اجتمع مجلس العوض للبت فى هذه القضية . وقضى بأن الرجل الذى كان ملتزماً بالحماية يعتبر بريئاً وأن المعتدى وهو أحد أفراد القبيلة التى تعد هى كذلك معتدية وبالتالى ينبغى تطبيق العقوبة عليه بالمثل . وقد جىء بعصاً طرفها حاد وغرزت فى قدم المتهم لتكون ثقباً ثم أدخلت رصاصة فى هذا الثقب وبهذه العملية حصل المجنى عليه على حقه[1] .

أما فى عمان الداخلية فقد يؤدى خرق العرف إلى نشوب حروب بين القبائل إلا إذا عادت القبيلة المعتدية فخضعت لأحكام العرف . وفى هذه الحالة يتعين على الجانب المعتدى دفع غرامة مقدارها ٤٠٠ ريال . ويسمى هذا الحكم « لوم الوجه » وفى المجتمعات القبلية يكون الحكم فى جرائم القتل على أساس دفع « دية » لأهل القتيل تتراوح بين ٤٠٠ وألف ريال أو مايعادلها عينا .

وتزيد هذه الدية كثيرا عن هذا القدر فى منطقة جبل القرا فقد تصل نسبيا الى ٥٠٠٠ ريال وهو مبلغ يحتاج إلى عمر طويل لإمكان الوفاء به . ولهذا يستعاض عن الدية بتنفيذ حكم الإعدام على القاتل . وإذا كان القاتل فقير الحال فإن الدية تستوفى من أقاربه وقد يسبب لهم هذا مزيداً من العوز ولكن العادة جرت على أن يشترك جميع أفراد القبيلة فى تحمل هذا العبء . أما إذا كان القاتل عبدا أو شحريا فإن حكم الإعدام ينفذ فيه على الفور لأنه ليس قبيليا وبالتالى ليس له قبيلة تؤدى عنه الدية .

وبالنسبة لموضوع ردّ التحية[2] فإن قبائل المنطقة الوسطى لهم سمعة سيئة . وفى المناطق الأخرى من جزيرة العرب هناك قاعدة معترف بها

---

(١) .. الربعة هى اعطاء الحماية والأمان للشخص الذى يطلبها وذلك حماية له من اى اعتداء يقع عليه من قبيلة الشخص الذى اعطاه الأمان .

(٢) .. منذ عهود قريبة نسبيا اعترفت قبائل البطاحرة بمبدأ الربعة اى الحماية فقط .

بالنسبة لهذه القضية ، فإذا التقى اثنان من رجـال القبائل بين قبيلتيهما ثأر وبادر أحدهما بلفظ « السـلام عليكم » ثم رد عليه الآخر بالمثل فإن الخصومة بينهما تنتهى ويسقط الثأر مؤقتا •

وإذا اغتال شخص من أحد القبائل شخصا آخر فإن عمله هذا يعد خيانة فى العرف القبلى ويعاقب القاتل بتجريده من انتمائه القبلى ، غير أن هـذه القاعدة غير معمول بها بين سكان الجنوب الأوسط من شبه الجزيرة العربية • لأن هؤلاء لا يعترفون بأى قانون • وكـذا بالنسبة للدية التى تعتبر امتداد لقانون الضيافة •

فمن العادات الشائعة فى هذه المنطقة استضافة شخص لآخر فترة ثلاثة أيام وهذه الضيافة تضمن للضيف الأمان القبلى بعد مضى أربعة أيام من بدئها ، فإذا صـادف واعتدت قبيلة المضيف على ذلك الضيف خـلال فترة الضيافة فإن العرف يوجب عليها أن تعيد ما استولت عليه من أسلاب وغنائم إلى الضيف ، ويعد هذا العرف من أهم القوانين السارية بين سكان المنطقة الجنوبية باستثناء أهل الجبل •

ومن غرائب الاعتقادات التى تدين بها هـذه القبـائل هى إيمانهم بالأولياء وقرابين النار ، وهى فى أغلبها عادات قديمة نشـأت قبل الإسلام، وفى حالة ارتكاب أى مخالفة فيتعين على المخالف أنيؤدى اليمين أو يمارس قربان النار وذلك وفقاً لمـا يقرره مجلس القبيلة ويصر البعض على أن يتم حلف اليمين أمام ضريح الولى اعتقاداً منهم بأن للأولياء قدرة على الانتقام من الحالف إذا كذب •

ويبدو أن رجـال السلطة حتى الأقوياء منهم ، لابد وأن يضعوا فى الاعتبار رأى المجموع • وبنفس القدر قد يتأثر الشيعة برأى الغالبية فيما يتعلق بولائهم للإمام على •

وقد يحسب المدعى من خصمه أن يحلف اليمين باسم ولى معين ويكون الخصم غير مستعد للحلف بذلك الولى وإنما بولى آخر مقاماً . كما أن مجلس القبيلة عنده يناقر بموقف الرأى العام الذى يقرر رتبة الولى الذى يتم حلف اليمين فى ضريحه . وغالبا ما يفضل المتهم الاعتراف بجرمه على أن يحلف اليمين .

وذات مره سرق أحد التكريين من سكان ظفار واسمه على بعيرا وذبحه ثم أكل من لحمه . واعتقادا من السارق أنه بستطيع الإفلات من تهمه . أسر السرقه . ثم حلف اليمين على الولى ابن عثمان . ولكن لدغه ثعبان فى نفس اليوم فى قدمه فأصيبت بالشلل . ومن هنك توجه فورا إلى صاحب البعير واعترف له بالسرقه ودفع له ثمن البعير خوف من أن يتعرض لمصائب أخرى . وهذا الرجل لايزال يعيش حتى اليوم . وحين تسأله عن إصابة قدمه يذكر لك بأنها من الولى ابن عثمان .. وفيما يلى قائمة بأسماء الأولياء وفق رتبهم ومقاماتهم :

الاسم	الضريح
صالح بن هود	بن حاسك ورأس نوس
بن على	مرباط
بن عربية	ريسوت
الشيخ على عفيف	طاقة
الشيخ غيسى	خور طاقة
زاهر	مرباط
النبى عمران	حافه

وفى حضرموت يوجد ضريح للنبى هود . وهو نبى قوم عاد كما ورد فى آى الذكر الحكيم وهو يأتى فى المقام الأول بين الأولياء .. وربما

(مروج ورياض)

(عيون مياه خيونت)

دن أسهر ولى فى المنطقه هو بن جوهرى ويوجـد ضريحه فى بلاد المهرة وهو ينمتع بمدنه لا يرقى إليها اى ولى آخـر . وعلى ضريحه يتم حلف اليمين فى القضايا الخطيرة كالقتل وغيره ، وهناك غيرهم من الأولياء اقـل مقاما ومن هؤلاء بن عثمان ويوجـد ضريحه فى « رخيوت » . والنبى أيوب وهو الولى الوحيد المدفون فى منطقه جبال القرا .

وعلى كل حال فإن حلف اليمين من قبل المتهم لا يعتبر إجراء كافيا لبراءته فقد يطلب إليه تقديم قرابين النار ، ويسمى هذا عندهم « ثمريت أو مرث » ، وهذه العملية سبق للشيخ حسن أن مارسها عندما كان شابا وأرسل إلى حضرموت خصيصاً لتقديم قربان النار ، وقد حكموا ببرائته ، ومنذ ذلك الوقت ظل الشيخ حسن من أشـد المؤمنين بهـذا الاعتقـاد . ولكن ليس كل شخص مؤهلا لتأدية هذه الطقوس ، خوفاً من أن يصيبه خنجر قاتل ، وهذا ما حدث لشخص يدعى بيحان وهو من قبيلة « يحم » . وكان يعمل حدادا واشتهر باتقانه ممارسة هذه الطقوس ، وقال محدثى : لا يوجد شخص يجرؤ على رفض حكم على بن عبد الله بن عبد الودود مذنبا كان أو بريئا .

وتتم عملية طقوس النار بين صـلاة الصبح وصلاة الظهر ، فيجتمع أطراف النزاع أمام نار مشتعلة ويقوم المدعى بإدخال سكين أو خنجر فى النار ، ثم تمضى فترة من الوقت يطلب بعدها من المتهم بأن يخرج لسانه . ويقوم المدعى ممسكا بمنديل بإحـدى يديه ، ثم يسحب النصل الملتهب باليد الأخرى ليضعه أولا على لسانه لاكتساب البركة ثم يوخز بطرف النصـل لسـان المتهم وخزتين إحداهما من الجانب المفرطح للنصـل والأخرى من الجانب الآخر .

والمفروض بعد هذه العملية أن يكون المتهم قادراً على أن يبصق فورا إذا كان غير مذنب ، ولابد أن تمضى ساعتان قبل فحص اللسـان والتأكد

من العملية ، فإذا ظهرت هناك بوادر انتفاخ أو حرق فى اللسان أو إذا نبعت غدة المتهم فإن ذلك دليل على أنه مذنب ويجب أن يقدم نفسه لينفذ فيه حكم الإعدام أو وفق ما يقرره أصحاب الدعوى ، أما إذا لم تظهر مثل هذه الأعراض فيعتبر المتهم بريئا ، وقد سألتهم عن وجه العدالة فى هذه العملية .. فرد على سعيد يقول : والله إن هـذه حقيقة فالنار لا تضر البرىء .. وساعتها تذكرت بختنصر [1] .

كما تذكرت نار المسيح ، وترجع سفسطائية سعيد هذه الى الأيام التى كان يسافر فيها إلى خليج عمان لصيد اللؤلؤ ، فضلا عن أنه كان من الأشخاص الذين يجيدون القراءة إلى حد ما أو ليست البشعة هى نوعا من الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى ؟ وهى :

« .. بسم الله الرحمن الرحيم .. يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم .. » ، وهنا قلت لسعيد : ما هذا الذى تقوله عن إبراهيم ؟ فأجاب : إن عندكم ولاشك شيئا من هـذا فى الإنجيل أليس كذلك ؟ . فأجبته : كـلا . فقال ألا تعرف أن أجدادكم النصارى أرادوا أن يقتلوا النبى إبراهيم وألقوا به فى النار ولكن الله أرسل جبريل فأطفأ تلك النار ونجا سيدنا ابراهيم[2] ؟ .

لقد تحدثت فى اسهاب عن المعتقدات الدينية السائدة فى تلك المنطقة : غير أن الكلام لايكتمل إلا بالحديث عن معتقدات السحر وعن السحرة التى

---

(١) ... بختنصر / قائد عسكرى قديم ظهر فى دولة بابل .

(٢) ... هذه القصة وردت فى القرآن الكريم ولكن لا علاقة لها بالنصارى ، حيث ان عبدة الأصنام من أهل جنوب العراق (وهم قوم ابراهيم عليه السلام) .. هم الذين القوا به فى النار ونجاه الله منها ولم يكن المسيح قد جاء بعد .

يؤمن بها سكان تلك المنطقه ، ومن الغريب أن الرأى العام فى تلك المنطقه ضد المعمرين ، ويعتقدون أن المعمر وراءه قوه خارقـــة هى المسئولة عن بقائه حياً حتى تلك السن •

وفى الكثير من الأحوال تعتبر وفاة مواطن من المواطنين نتيجة لأعمال سحرية الأمر الذى يعرض المشتبه فيهم إلى الاعتقال والمحاكمة وأبسط مثل على ذلك ما حدث لنا فى وادى غفار ، عندما أطلق النار علينا أحد أفراد قبيلة الشيخ الذى اغتال ابن عمه وكان ابن عمه هذا متهماً بممارسة أعمال السحر ، وقد قوبل هذا العمل من الجمهور بالاستحسان والتأييد . كما وقعت حادثة أخرى من هذا القبيل بعد مضى شهر على وصولنا فقد أعدمت امرأة كانت مشـــهورة بالسحر إذ ألقى القبض عليها أولا . ثم طبقت عليها طقوس النار وبرئت من التهمة ، غير أن ذلك لم يشفع لها عند رجال قبيلتها فتمّ إعدامها بطريقة تعد من أسوأ الطرق البدائية وبدون محاكمة •

أما الاغتيالات فى هذه المنطقة فهى من الأمور المألوفة وتقع كثيرا ، فحياة الفرد هناك رخيصة ولا أهمية لها ؛ كما أن عادة الثأر تثير التفرق بين القبائل التى لا تعترف بسلطة زعيم واحد عليها ، خاصـــة إذا كانت العلاقات التى تربطها بعضها البعض تتأرجح بين مـــد وجزر ، وهم يعتبرون أن الحكومة قبيلة أيضا ولكنها من مرتبة أعلى •

وذات يوم رأيت أحد الأفراد من قبيلة القرا يقترب من بعيرى ، وقد أدركت على الفور بأن هذا الشخص يحتل مكانة طيبة بين أفراد قبيلته وذلك من نوع البندقية التى كان يحملها ومنطقة الخراطيش التى كان يحيط بها وسطه • فضلا عن مشيته المزهوه •

وكنت أسير فى مقدمة القافلة وكان سالم يمسك بمقود ناقتى ليرشدنى الى الطريق فى داخل تلك الغابة حتى لا تعترضنا الأشجار ونضطر الى

النزول من فوق ظهور الجمال ، وأثناء سيرنا سألنى سالم : هل جميع التجار مثلك ايها الصاحب ضخام الجسم ذوو دثون حمراء وعيون زرقاء ؟ فاجبته بالإيجاب • ولكنه عاد يسأل : وكم عدد البقر التى تملكها ؟ •• فأجبته بأننى لا أملك شيئا من البقر •• ولكنه رمقنى بنظرة كلها شك ولعله كان يتساءل فى قرارة نفسه • إذاً من أين لى كل هذه الريالات ثم عاد يسأل : هل صحيح أن الكفار يستخرجون أموالهم من الجبال ؟ •• فأجبته : نعم هذا صحيح • ولكنه نظر الى كأنه يطلب الصفح من رجل يعتقد أنه كان يملك كل هذه القوة السحرية التى تمكنه من استخراج المال من الصخر •

وهل تعتقد بأنه توجد أموال فى جبالنا هذه ؟ • لا أدرى يا سالم • فسألنى : إذاً ما الذى دعاك الى الحضور الى هذه البلاد ؟ فأجبته : جئت الى هذه البلاد لأنى مولع بالأسفار والتعرف على الناس من أمثالك ودراسة المخلوقات •• فسألنى : ولكن هل تحصل على نقود مقابل عملك هذا ؟ •• فأجبته : كلا •• ولكن هذا العمل هو الذى يكلفنى أموالا لأن النقود التى أدفعها لك هى من أموالى الخاصه وقبيلتى لا تدفع لى شيئا •• ولكن سالم أخذ ينظر الىّ مستغربا وقال : ألا تخاف من هذه الجبال ؟ •• فأجبته : كلا •• فقال : يا حومر العين إن السلطان تيمور نفسه لم يزر هذه المناطق إلا مرة واحدة فكيف تجازف أنت بالحضور اليها ؟ فقلت له : ولكن بلدكم يا سالم تشبه بلادى وهى تذكرنى بها •

غير أن موضوع القتل والاغتيالات بقى مسيطرا على صاحبى وكان يعود الى هذا الموضوع من حين لآخر • وسألنى عما اذا كنت قد سمعت عن رجل من قبيلته اغتال أحد جنود الحكومة من فترة قريبة • فسألته : ولماذا قتله ؟ فأجاب : ألا تعلم أن الحكومة أيام حكم الوالى سليمان قد قتلت أحد رجال القرا ؟ •• ولكنى قلت له ان هذا الحادث مضى عليه خمسون عاما ، وان الجندى الذى أغتيل من وقت قريب لم يكن قد ولد بعد •• فقال :

هذا صحيح ، ولكن سبب اغتيال الجندى يرجع الى سخريته من أحد القرويين الذى كان ابن أخ الرجل الذى اغتاله الوالى سليمان فبادر ذلك القروى الى قتل الجندى .. فقلت لسالم : هذا صحيح ، أما فى بلادنا فلا يوجد غير حل واحد لمثل هذه الأعمال . وهو الحل المناسب فإذا اعتدى شخص على حياة شخص آخر فلا تستطيع قبيلته حمايته كما انه ليس من حق الحكومة أن تقبل منه دية . وانما يتم تنفيذ حكم الاعدام فى القاتل .

بالطبع هذا عندكم ، غير إن الأمر هنا يختلف ، فيمكن أن تستعيض القبيلة بإعدام رجل آخر من قبيلة القاتل . ثم ألم ترسل الحكومة بعض جنودها سرا فى العام الماضى لاغتيال أحد رجالنا ؟ وعلى أية حال فنحن واياها على قدم المساواة .

غير أنى سألته : ولماذا اغتيل حمدان بن جاسم (وكان بطلا بين أفراد قبيلته) ؟ فقال سالم : أقسم بالله أن حمدان كان رجلا طيبا وكان من الأفضل لو أنهم اغتالوا ثلاثين فردا وأبقوا على حمدان . ولكن ذلك كان أمرا مقدرا .

من خلال هذا الحوار ، أحببت سالما وقررت أن أصطحبه معى الى ظفار وأقدم له هدية صغيرة ، ولكنه هرب ولم يعد له أثر بعد ذلك ثم اكتشفت فيما بعد أن سالما هذا الذى معى هو الذى قتل الجندى التابع للحكومة وكانت نفسه تصوّر له أن عليه ثأرا لحكومة السلطان التى كانت لابد وأن توقع عليه ما يستحق من عقوبة جزاء لقتله أحد رجالها .. ولكنى تذكرت الحوار الممتع الذى كنت أتبادله مع سالم ونحن فى تلك الغابة الموحشة أمس وتنفست الصعداء .

الفصل الثامن

جبال القراتحيات الوداع

بدأ اليوم بصلاة الصبح ، وأخذ المرافقون الذين ناموا على العشب يستعدون ليومهم الجديد وقد أدى الشحرة والقرا الصلاة وهم جلوس فى أماكنهم بعد أن تيمموا للصلاة ، وقد سألت كيف يبيح مذهبهم الشافعى التيمم ؟ .. أما العمانيون الثلاثة وهم من العناصر الأباضية المحافظة فقد توجهوا للوضوء من إحدى برك الماء ، لأن مذهبهم لا يبيح لهم التيمم وكان الثلاثة يحملون بنادقهم معهم .

أما الصلوات الخمس وهى فريضة على المسلمين فإنها لا تعنى شيئا عند أهل تلك المنطقة ، والمتزمتون منهم يعلقون أهمية كبرى على الوضوء وعلى أداء الصلاة فى أوقاتها المحددة ، أكثر مما يهتمون بما يرلى فى الصلاة من شعائر أو هكذا تظهر الأمور بالنسبة للشخص المحايد ، وكل ما يفعله هؤلاء الجبليون أنهم يرددون كلمات غير مفهومة ويتلفتون يمينا وشمالا أثناء الصلاة وبدون اكتراث لحرمتها .

أما بالنسبة للنساء فى هذه المناطق فإن أكثرهن ــ كما عرفت ــ لا يؤدين الصلاة وهذا رأى تقريبى ، لأننى لم يسبق أن شاهدت أو التقيت بامرأة تصلى فى مكان عام ، وان كان من غير المعقول أن يشترك النساء والرجال فى الصلاة معا ، ولكنهن بالنسبة للصيام . كما دلت معلوماتى أنهن يصمن شهر رمضان كله ، ولكن صيامهن هذا صيام شكلى انطلاقا من الاعتقاد بأن الإفطار فى شهر الصوم يجلب غضب الله على المسلم .

وفى هذه الأثناء وصل خمسة من البدو والرحالة ، قادمين من المرتفعات ، وقد استطعنا التعرف عليهم بسهولة من حديثهم ومظهرهم :

لأن الأقدام التى لم تتعود صعود الجبال تبدو أرق وتميل الى التقوس لكثرة الركوب . بينما الأقدام المائلة الى الخلف هى أقدام سكان المرتفعات الجبلية ، وبالنسبة للملابس فهى نفس الملابس أى «المسر» و «الدشداشة»، كما أن أسماء أهل الجبال تميزهم عن غيرهم من السكان مثل ابن عنقيد وابن عويجة وابن نجم وذلك على نمط ابن كيث وابن جون .. الخ .. عندنا فى انجلترا .

والمتبع بين سكان القبائل البدوية أن يرث الابن لقب والدته وليس والده ، وهى عادة غير معروفة فى المناطق الحضرية أو بين المناطق الجبلية ، وكان الخمسة قادمين على إحدى السفن الى منطقة « سدح » ، وهو مرفق لنقل اللبان فى منطقة « رأس نوس » ، ويبدو أنهم كانوا قادمين لتحصيل بعض أموالهم من عبيدهم الذين يجمعون محصول اللبان فى فصل الحصاد ، وكانوا فى ذلك الوقت عائدين الى مناطق سكناهم فى وادى « رمه » والذى يسمى فى بعض الأحيان « وادى رماه » .

كذلك فقد جاء إلىَّ شخص آخر من المهرة سكان الجبال ، وفى يده ثعبان ، وكان الثعبان يلتف حول رقبة المهرى ، ثم صاح : آه .. لقد لدغنى الثعبان ، فلمحت بعض قطرات الدم على أحد أصابعه الذى بدأ منتفخا ، ربما بسبب ضغط الرجل على أصبعه لمنع تسرب السم الى بقية يده ، وقد ألقى الثعبان على الأرض ، وكان لايزال حيا ، وعندما ابتعدت عن الرجل ، أخذ يسحب يده من تحت الثعبان ، ربما ليتفادى لدغة أخرى منه ، غير أن حركة الثعبان كانت أسرع ، فلم يتمكن الرجل من امساكه إلا من الذيل ، ولكن الثعبان استطاع أن يسحب رأسه ويلدغ الرجل لدغة أخرى ، وقد اشمأزت نفسى من هذا المنظر ، وذهبت بعيدا عن المكان ، خصوصا وأن الحاضرين أكدوا أن ذلك الثعبان من الأنواع السامة ، غير أن الرجل عاد فأمسك الثعبان من ذيله بإحدى يديه مدليا رأسه لأسفل

ثم مرّ بيده الأخرى على جسمه الى وسطه . حتى أمسك بعنقه فى سرعة فائقة وضغط عليها حتى فارق الثعبان الحياة .

وقد أعطيت الرجل ريالا . رغم ما أبديت له من عدم ارتياحى فقد كنت قلقا من أن يتأثر الرجل من لدغة الثعبان فيموت ، فيؤدى ذلك الى تعطيل مهمتى فى الأيام المقبلة .

كان على الرجال المرافقين لى فى الرحلة أن يتناوبوا عمليات الحراسة الليلية للمخيم ، ولكنى عندما خرجت للتأكد من هذا وجدتهم جميعا يغطون فى النوم . فاقتربت من الكثيرى الذى كان قد علق ذبيحة على أغصان إحدى الأشجار حتى لا تسقط على الأرض فاكتشفت إهماله إذ كان مكلفا تلك الليلة بعملية الحراسة فلما أيقظته واقتربت منه أفاق من نومه مذعورا . ثم نهض وأمسك بزناد بندقيته ، كما هى عادة البدوى فى مثل هذه الظروف لأن لكل قبيلة أعداءها . ولكن عندما استيقظ سعيد وأخذ دوره فى الحراسة . تمكن من اصطياد ثعلب ، غير أن الثعلب لا يغنى عن النمر الذى سبق أن أطلقنا عليه الرصاص فى وادى نحيز ولم نوفق فى العثور عليه .

إن القبائل الجبلية بحكم خصائصها الحضرية لديها وعى بالتملك ، وهذا الوعى غير موجود بين نظرائهم من البدو العرب . وعلى الرغم من أن المراعى والمزارع ليست ملكا خاصا من الوجهة النظرية . إلا أن بعض هذه القبائل تعرف تملك الأراضى عن طريق وضع اليد عليها . كما أن المغارات والكهوف الجبلية تعتبر ملكا خاصا لأفراد هذه القبيلة . وتنتقل ملكيتها بالوراثة أبا عن جد ، ومن حقها أن تتصرف فى هذه الأراضى كيفما تشاء فى نطاق مجموعتها القبلية .

وقد سألت أحد الكثيريين عن الكهوف المتاخمة للمرتفعات ؟ فأجاب بأنها ليست ملكا لشخص معين . وإنما هى مشاع كالهواء والماء .

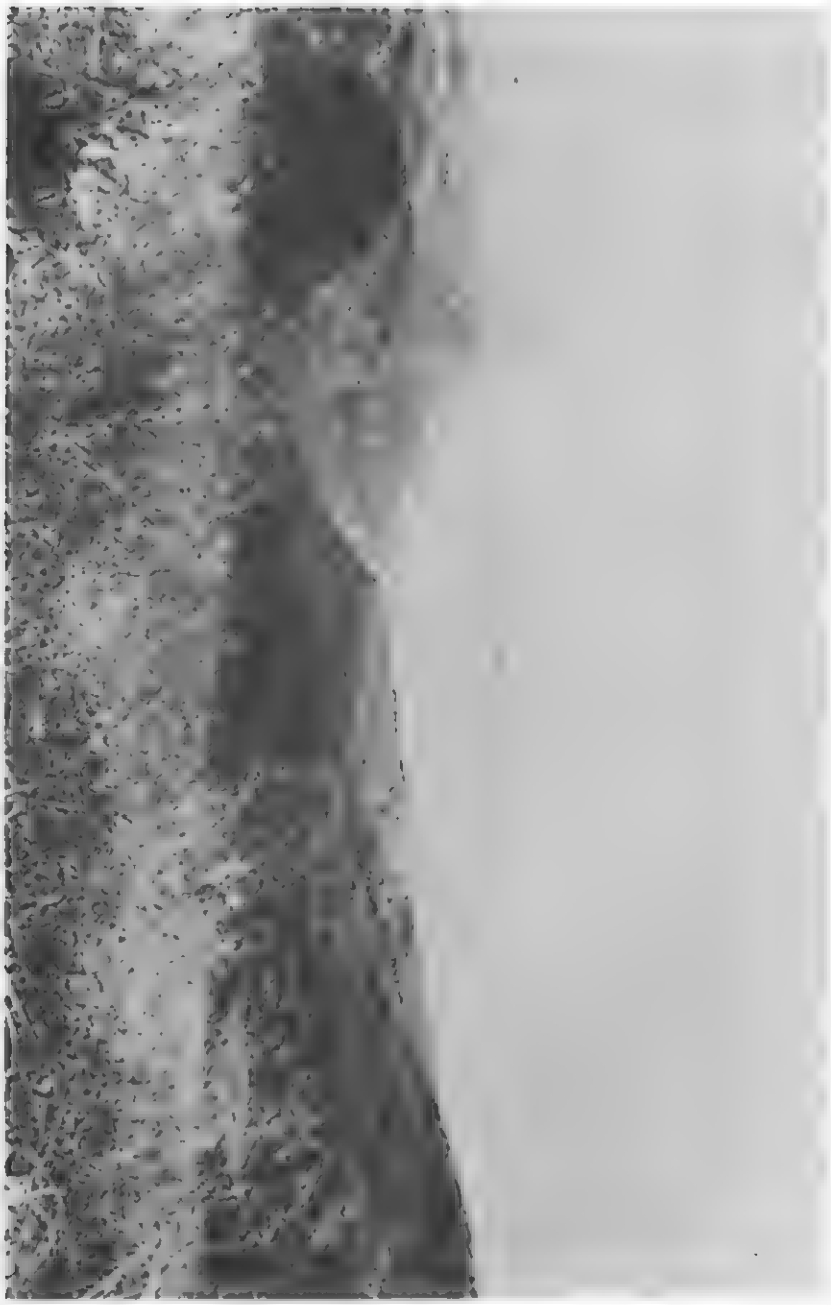

(وادى أربوت)

فاذا كان عندى كهف وأخليته فانه قد ينتقل الى غيرى ، فالكهوف ليست ملكا لشخص معين أو جماعة معينة لأنها هبة من الله لنا .

وقد حضرت لزيارتى مجموعة أخرى من المهرة ، من بيت « الشطنه » . وربما كان لقبهم هذا اسما على مسمى فقد كانت شهرتهم بالميل الى الشر ذائعة . وكان زعيمهم ويدعى الشيخ بخيت الأعرج ، وكان أحدهم يشكو من الربو بسبب رصاصة أصابته خلال معركة من المعارك وطلب منى دواء ، وقد أرانى المكان الذى أصابته فيه الرصاصة وأثر على رئتيه ، ثم سألنى عما اذا كان عندى دواء لرجل مصاب فى قدمه ولم يكن يستطيع المشى . فسألته منذ متى ؟ فقال : بعد اصابته بطلقة فى رأسه .. فأجبته بأنه لا يوجد دواء لمرضه فى أى مكان فى العالم . لأنى كما فهمت منه أن الرجل كان مصابا بالشلل .. فقال أحدهم : الحمد لله رب العالمين .

ثم أخذوا ينظرون الى بعضهم البعض فى أسى بالغ بحيث شعرت وكأنهم يحاولون اختبارى وربما اعتقدوا بأنى لا أريد مساعدتهم أو أننى لم أكن أتمتع بالمهارة والقـوة الروحية التى كانوا يظنونها .. ولكنى أعطيتهم شيئا من التمر فانصرفوا وطلبت منهم أن يصطادوا لى غريرا وهو حيوان يصعب اصطياده .

بعد الغروب دخل الأربعة خيمتى ليسمعونى أغانيهم ، فى الوقت الذى كنت جثة الأرنب الذى اصطدته فى اليوم السابق ملقاة على الأرض لكى تشمها الذئاب أو الثعالب فتأتى الى المكان . وهذه المنطقة مشهورة بوجود نوع من الثعالب العربية الكبيرة الحجم ، وهو نوع مسطح البطن قاتم اللون وكنت كلما أضأت المصباح (الكشاف) حول المنطقة القريبة من المخيم شاهدت هذه الثعالب ذات العيون النحاسية البراقة .

وهناك اعتقاد بين سكان القرى الساحلية بأنه عندما يبنى أحدهم بيتا فإن أول شىء يفعله عند بناء البيت هو دق أربعة مسامير طويلة فى

الأركان الأربعة منه بقصد [illegible] . [illegible] يقوم صاحبه بذبح خروف على عتبته [illegible] من [illegible] وذلك على غرار ما نفعله نحن في [illegible] من [illegible] عند تدشين البواخر .

وفي بعض مناطق عمان يقوم صاحب البيت بعد الانتهاء من بنائه بذبح ماعز ورش شيء من دمها عند عتبة البيت . وهذا التقليد معمول به في ظفار أيضا وإن كان يختلف في تلك المنطقة بعض الشيء حيث تجرى العملية أثناء بناء المنزل . وليس عند الانتهاء منه [illegible] على عمال البناء . وأما الدم فيرش بطريقة [illegible] على جدران المنزل . ثم تكسر بيضتان عند عتبة البيت وبيضتان أخريان على السلم ومثلهما على السطح .

ويجرى الزواج للجنسين في سن [illegible] وكان الذكور قد يتزوجون قبل بلوغهم هذه السن [illegible] . وقد تتزوج البنت قبل البلوغ إذا كان والدها على قيد الحياة ويراقب على زواجها . أما إذا كان أحد الزوجين قد بلغ سن الرشد فلا يمنعهما أحد من ممارسة النكاح .

وقد سألت الشيخ حسن . هل هذه [illegible] شائعة عندكم ؟ وما هي تقاليد الزواج عند قبيلتكم ؟ .. فقال بأن والده زوجه عند بلوغه السادسة عشر تقريبا . وكان الشيخ يحبب حاضرا معنا [illegible] إلى كبر أولاده . وكان يبدو على عتبات الرجولة . وقال بأنه زوجه من ابنة عمه منذ سنتين . ولكنه الآن بعد أن كبر . أحب امرأة أخرى وعندما تنتهي مدة خدمته عندي . فسوف يتزوج مرة أخرى [illegible] الذي سأدفعه له .. ثم سألت عن ابنة عمه التي تزوجها [illegible] من أجمل فتيات الجبل . وعندها بعض الأملاك ومع ذلك [illegible] وإنما تحب المرأة الأخرى التي يريد الزواج منها الآن .

فسألته : وهل هي شابة (أقصد زوجة الابن) ؟ .

فأجاب : كلا .. انها سيدة كبيرة .

ثم عدت أسأله : هل هى فى العشرين مثلا ؟ .

فأجاب : ربما يكون عمرها نحو ثمانيه عشر عاما ولكنه سوف يسعب لتتزوج هى من رجل آخر .

وليس من الغرابة فى شىء اذا قررنا بأن الزواج فى مناطق الجبل يتم بدافع النزوات . وأن أغلى صداق للزوجه لايزيد على عشرين بقرة (أى ما يعادل ٢٠٠ ريال) وأقل صداق لايزيد على بقرة واحدة (أى ما يعادل عشرة ريالات) . ويطلق على هذا النوع من الزواج اسم « جيـلاب » .

وتتم اجراءات الزواج بأن يتوجه وكيلا العروسين . وهم عادة والدا العروسين الى القاضى لتقنين الزواج وعند عودتهما تقوم نساء الحى بزف العروس الى زوجها ويتقدم هذا الموكب رجال المنطقة . وأثاث بيت الزوجية الوحيد هو سجادة صغيرة تشترى خصيصا لهذه المناسبة . ويقوم الرجال بذبح بقرة أو بقرتين ان كانوا من الأغنياء لإعداد وليمة بهذه المناسبة ، ويتم الاحتفال بالزواج بانشاد الأغانى من جانب رجال الحى . غير أنه لا يصحب المناسبة رقص قبلى كما يحدث بالنسبة للاحتفالات التى تقام لختـان الذكـور .

أما الطلاق فيتم بمنتهى السهولة من جانب الزوج ، كما هو الحال فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ويحدث هذا نتيجة لملل الرجل من زوجته ويقوم باشهار الطلاق وفق العرف المتبع ، وبعدها فإنه على المطلقة أن تغادر بيت الزوجية الى منزل والدها ، أو أحد أقربائها ومعهـا مؤخر الصداق الذى لا يزيد عن نصف بقرة (خمسة ريالات) .

ويجوز للمرأة أيضا أن تطلب الطلاق اذا هى شاءت وان كان هذا

يكلفها كثيرا من الناحية المالية . اذ عليها أن تعيد الى الزوج نصف الصداق المدفوع لهـا (أى ما يعادل عشرة بقرات) أو ١٠٠ ريال .

ومن حق الزوجين المطلقين أن يتزوجا مره أخرى . وليس من الضروره اتمام اجراءات الطلاق أمام القاضى . ومن هنا تكثر المزيجات بعد يسر الطلاق . فمن حق الرجل وفق الشريعه الاسلاميه أن يتزوج بأربعه نساء ويجمع بينهن . واذا حملت امرأة من زوجها فيحق له الزواج من أخرى أيا كان سنها . ولكن عليه فى هذه الحاله أن يدفع لها (اى لزوجه الأولى) تعويضا ماليا لكسب رضاها . وهذا التعويض لا يقل عن نصف الصداق . وذلك هو أحد الأسباب التى تمكن النساء من جمع الأموال . كما من حق كلا الزوجين أن يمتلك ما يشاء .

وذات يوم سألت (مستهيل) . أحد المرافقين لى من أهل القرا عن عدد أولاده . فقال : ثلاثة أولاد — بنت وصبيان . فعدت أسأله وهل هم من زوجة واحدة ؟ فأجاب بالنفى وقال إن البنت وهى أكبر الثلاثة من زوجه أخرى طلقتها — وعندما سألته عن السبب الذى دعاه لطلاقها أجاب لأنها لم تنجب ولدا ذكرا . ثم انها هى التى طلبت منى الطلاق . ثم سألته هل استرجعت منها الصداق ؟ فقال نعم . بل حصلت على أكثر مما دفعت لها عند الزواج فقد دفعت لها ست بقرات وبعد الطلاق دفعت لى ثمانى بقرات ، وأخيرا سألته عن صداق ابنته عندما زوجها ؟ .. فقال : انها حصلت على أربع بقرات ، وأنها كانت تستحق أكثر من هذا غير أن ابن عمها لم يكن لديه أكثر من ذلك ، ولهذا وافقت على زواجها . فقلت : ان معنى هذا أنك حصلت على ست بقرات ، اثنتين من مطلقتك ، وأربع من ابنتك أليس كذلك ؟ .

فضحك وقال : والله كنت أحمق ، فقد تزوجت مطلقتى من ابن زيدى وأنجبت منه أربعة أولاد ذكور .

فسألته وماذا عن زوجتك الثانية . وهل لك منها أولاد ؟ فقال . نعم لقد أنجبت لى ثلاثة أولاد ذكور ولكن لم يبق منهم الا اثنان .. فسألته كيف يكون تصرفك عندما تقابل مطلقتك المتزوجة الآن من غيرك . وكيف تسير العلاقة بينكما ؟ ..

فقال : إننى أسألها فقط عن صحتها .

ان المرأة فى هذه المنطقة تعمل فى ظل نوعين من المحرمات . فلا يباح لها حلب الماشية كما لا يباح لها أن تطهو الطعام .. فهذه الأشياء تعتبر من الأعمال المخصصة للرجل وحده . ويقتصر عمل المرأة على الرعى . ورعاية الماشية وجمع الحطب وجلب الماء الى جانب صناعة الأوانى وجمع التبن وعمل حشيات منه للنوم .. أما وظيفتها الأساسية فهى الانجاب فحسب .. ولكن الأفضلية للذكور .

وطرق منع الحمل غير معروفة فى هذه المناطق . وقد ينفرون منها . وتعمل المرأة حتى اليوم الأخير من الوضع . وتضع أولادها اما تحت الأشجار أو داخل الكهوف وتباشر المرأة عملها فى اليوم التالى للوضع .

وعلى الرغم من الحرية الواسعة التى تتمتع بها النساء فان السفاح يكاد يكون معدوما . وربما كان ذلك راجعا الى سهولة الزواج والطلاق والزواج مرة أخرى . أكثر مما يرجع الى التطبيقات الشرعية المعمول بها فى شبه الجزيرة العربية . وفى عمان مثلا تقتل المرأة اذا حملت سفاحا . وقد يقوم بالقتل والدها أو أخوها أو ابن عمها . وليس زوجها . أما فى هذه المنطقة فانهم يجردونها من تبعيتها القبليه ويتركونها تذهب الى حيث تشاء . والزانى فى جبال القرا مطارد من أقارب الزانية لكى يقتلوه واذا تمكن من الفرار فانهم يلاحقون زوجته أو أى قريبة له للانتقام منه .

واذا خطبت احدى الفتيات الجميلات قبل بلوغها . فانها لا تعرف أى

مسئولية وبالنسبة لأول زواج فان والد الفتاة هو الذى يقوم باختيار الزوج المناسب لها دون موافقتها أو استشارتها وفى عمان تعتبر استشارة الفتاة البكر فى أمر زواجها شيئا مخجلا . فوالدها هو الذى يدبر لها أمر الزواج ، وهو الذى يتصل بالوالى فى هذا الشأن ، أما هى فلا تعرف شيئا عن هذا الزواج الا يوم تهيئتها له .

أما فى المنطقة الجنوبية فان والد الفتى قد يفضى الى الفتاة بموضوع الزواج ويأخذ فى مدح ابنه والاشادة بأخلاقه .. وعند طلاق الزوجه من زوجها يؤخذ رأيها بالنسبة لزواجها من رجل آخر . وهناك من الحالات ما يثبت أن المرأة بعد الطلاق قد تكون لها الحرية فى اختيار الزوج المناسب الذى تريده ، اذا وافق والدها على هذا الزواج .

أما اعطاء الأفضلية لابن عم الفتاة فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية ، فهو لا ينطبق على هذه المناطق فيما عدا قبيلة المهرة . لأن الشخص الذى يحق له اتخاذ القرار النهائى فى الأمر هو الأب[1] .

غادرنا منطقة « خيونت » عبر طريق يمر بضفة احدى الوديان الذى تكسوه الأشجار وكان اتجاهنا نحو الجنوب الغربى صعودا الى ارتفاع يبلغ ١٩٥٨ قدما عن سطح البحر . وقد استطعت تحديد موقعنا بالضبط من المواقع الساحلية المعروفة . ومن ذلك المكان واصلنا السير بقية اليوم باتجاه الشرق الجنوبى عبر مزارع الشعير ، وابتداء من هذا المكان أخذ الطريق يزداد وعورة ، والأشجار تزداد كثافة ، فاضطررت للنزول من فوق البعير للسير على قدمى وأخرجت شبكة صيد الفراشات وأرسلنا الجمال عن طريق آخر أسهل وان كان أطول .

---

(١) ... ان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اغتربوا لا تضووا » .. ومعنى الحديث انه ينصح بالزواج من غير الأقارب الأقربين لأن ذلك يؤدى الى ضعف الذرية .

وقد انفصلت عن بقية المجموعة . وفجأة سمعت أحد البدو من بيت آل كثير يجرى من خلفى ويصيح : قف .. قف .. أيها الصاحب ، فأنت هنا فى مكان غير مأمون وبيت قطن حجزوا جمالنا .

كان بيت قطن وهو أحد القبائل الجبلية فى نزاع مع حكومة ظفار التى اعتقلت أحد رجالهم وأودعته السجن فى صلالة ، بعد أن رفضوا دفع الضرائب المستحقة عليهم . كما كانوا يشنون الغارات على المناطق الحكومية . وعلى أية حال فانى لم أكن أفضل التوقف فى هذا المكان . غير ان البدوى أخذ يتكلم بصوت عال وفى عصبية ان بيت قطن قد يعتدون علينا وسبق أن اغتالوا أحد رجال الحكومة ، على أنه لم يكن عندى أحد من القرويين ، ولو أنى رجعت فقد لا يجدى هذا شيء . ولهذا قررت السير مع العبد الوحيد الذى كان يصحبنا متوقعين بألا نتعرض لأى حادث أو اعتداء فى الطريق .

كان طريق حمرير يؤدى الى جرف منحدر يقع على جانبى الوادى وكان كثيف الأشجار كما كانت قرية « عربوت » ووادى نحيز موطن بيت قطن الى اليمين .

وبعد مسيرة ثلاث ساعات فى مناطق غير مأمونة وصلنا فى المساء الى « غزح » المطلة على « أربوت » ، وكنا فى غاية التعب والارهاق . كما كانت أقدامنا تؤلمنا من طول السير ، وعندما أخرجت البوصلة ثبت أننا على ارتفاع يبلغ ١٣٥٠ قدما .

فى « غزح » اخترت بقعة تحت الأشجار فى احدى الحقول وكانت تطل على منظر طبيعى من أروع المناظر ، وكان ماء وادى عربوت الذى يقع تحتنا ينساب فى هدوء عبر مجراه ، بينما الشاطىء على الجانب البعيد يحف به ذلك الشريط الفضى من مياه البحر ، وفى هذا المكان على حافة السهل تمتد المنحدرات الجبلية المواجهة للبحر والتى تأخذ فى التقلص تدريجيا حتى تلتقى عند الهضبة .

وفى غرح . لم يكن هناك أى عدو يتربص بنا . فيما عدا الرعاه الفتيان الذين يمرون بنا من حين الى آخر ، وقد اشتريت منهم نعجه أخذتها الى المخيم فى الوادى . كطعم للنمور التى كنت أحاول اصطياد واحد منها . وبعد مرور ساعتين انضمت الينا بقية القافلة . غير أن المرافقين فضلوا ألا يتحدثوا عما صادفوه من متاعب أثناء الرحله . وفور وصولهم تناولوا غرب الماء ونزلوا الى الوادى لمنأى من عين غرح رغم ما كانوا يشعرون به من تعب الرحلة .

ويعتبر هؤلاء الجبليون من أمهر متسلقى الجبل فى المنطقه ، فقد صعدوا الجبل الى ارتفاع ٨٠٠ قدم وهم يحملون غرب الماء على ظهورهم . غير مبالين بمشاق الصعود ولا بالظلام فى مناطق تعج بالأفاعى والثعابين . بحيث أننى استطعت أن أجمع بين يوم وليلة أربعة ثعابين .

أمضيت فى هذا المكان ليلتين وفى احدى هاتين الليلتين بينما كنت مستلقيا على الأرض أشاهد القمر يظهر ويختفى من تحت السحب . وكانت الساعة تشير الى الثالثة والنصف صباحا سمعت فجأة صوت طلق نارى ثم أعقبه أصوات عناء خافت . وقد تصورت فى البدايه أن الذى كلفته باصطياد نمر فى منطقة الوادى كان يعبر عن سروره بنجاحه فى مهمته . غير أن الأمر كان غير ذلك فقد فوجئت بأحد شيوخ القرا ، ينهض ويمر بجانب خيمتى . لأنى لم أسمع أى صوت لحركته ، وتوجه فورا الى المكان الذى كانت تصدر منه أصوات الغناء . فاكتشف جثة قتيل من المهرة على التل وكانت لاتزال فيها بعض الحياة . وكان مصابا برصاصه فى الظهر والدم ينزف منه .

وفى وقت مبكر من الصباح جاءنى الشيخ حسن وشيخ المهره . ونبهانى الى أن المنطقة غير مأمونة ومن الأفضل أن نغادرها على الفور . وقد وافق الجميع على رأيهما ، لأن ذكريات الثأر الذى لهم على المهرة ، كانت ترغمهم أن يظلوا يقظين دائما ، وكان رأيهم أن تلك العملية من فعل بعض المتهورين أو المتطرفين من قبيلتهم . ومن هنا فقد أصبح وجودهم هنا يعرضهم

للخطر ، وقد طلبت من الشيخ حسن أن يحدد لى القاتل . فقال ان ذلك علمه عند الله ، فقد يكون من بيت « جعيوب » (فـرع من القـرا) . وسألنى : ألم أسمع ذلك السيل من الطلقات الذى يصاحب مظاهر الابتهاج فى المنطقة ؟ . فقد كانت تلك الأصوات تأتى من ناحيتهم . وكانت تدل على أنها احتفالات تعبر عن فرحتهم بإحدى عمليات القتل أخذا بالثأر .

وقد تأكد لى هذا الرأى فيما بعد عندما قتل أحد المهرة قبليا من آل جعيوب وهاهم الآن يثأرون من القاتل . وعلى أية حال فقد كان على المهرى أن يلتزم الحذر ولا أعرف كيف سمح لنفسه بأن يسافر فى مناطق تعتبر من مناطق قبيلة القرا . لقد نجح السلطان فى عقد هدنة مع هاتين القبيلتين مدتها عام واحد انتهت منذ شهرين . ثم جددت لعامين آخرين .. أليس هذا العمل مناقضا للهدنة وانتهاكا لها ؟ قال الشيخ حسن : ان هذا أمر مقدر ثم عاد يقول : صحيح ان هناك اتفاقية معقودة لوقف القتال ، وان الذى وقع الاتفاقية هو القاتل نفسه ، وقد تعهد فيها بأنه لن يسفك دم مهرى واحد لمدة عام على الأقل ، ولكن بعد شهرين من توقيع الاتفاقية قام باغتيال أحد أفراد قبيلة المهرة أثناء نومه .

لقد كنت أعرف القتيل . انه سهيل وهو من قبيلة بيت الشطنة الذين زارنى بعضهم عندما كنت فى جعيوب قبل ثلاثة أيام . وقص علىّ بعضهم قصصهم الشعبية .. ولقـد كان سهيل شابا ونموذجا فريدا بين رجال القبيلة . ولكن تلك هى قوانين الثأر التى لا ترحم ولا يكتفى أهل القتيل بمطاردة القاتل ولكنهم يلاحقون كل فرد من أفراد القبيلة وكل من له صلة القربى به ، وحادثة الاغتيال التى أشرنا اليها أبلغ دليل على ذلك .

ثم سألنا ، ولكن ما هى الدوافع وراء ارتكاب الجريمة فى هذا المكان بالذات ؟ وفى سـيادة من تدخـل هذه المنطقة ؟ وهل هى تابعة لقبيلة جعيـوب ؟ .

فأجاب الشيخ حسن : بأن المنطقة تابعة له ولكن العرب لا يحملونه أى مسئولية لأن القتيل لم يطلب لنفسه الأمان منه ، ولو أنه فعل ، لأدى هذا الحادث الى تعكير صفو الأمن فى المنطقة واعتبر قتله بعد منح الأمان جريمة نكراء ، ثم لو أن بخيت (وأشار بكلتا يديه الى ابنه) كان عليه ثأر لأى مواطن من سكان القرا ، لكان قد اغتيل ، وكنا سنضطر كذلك الى الثأر له ، وانى لأفضل طبعا أن يقتل ابنى من أن يقتل شخص هو فى عهدتى .

كان بين الشيخ حسن وقبيلة القاتل عداء شديد . فقبائل القرا منقسمه على نفسها فقد لمست من لهجة حديثه عن القاتل . نوعا من الشعور بالارتياح لمقتل أو اغتيال واحد من قبائل القرا .

ثم انتفت الى أحد الكثيريين وخاطبه قائلا : لابد أن تكون سعيدا لأن أحدا من جماعتك لم يشترك فى هذه العملية ، فرد عليه يقول « سامحهم الله » فنحن البدو نحترم كلمتنا على عكس سكان المناطق الجنوبية ، فانهم مشهورون بالغدر ، ولعل القرا والمهرة لا يدركون الآثار المؤلمة للجرائم المفجعة التى يرتكبونها علنا ، بل انهم لا يحترمون العهد ولا الربعة (الأمان) وقد لا تصدق أن القاتل ربما استضاف القتيل فى بيته وأكل من قراه ، سامحهم الله جميعا .

عندما كنت عائدا الى ظفار من منطقة الجبال فكرت أن أضع حدا لهذه الرحلة ، فالضباع وغيرها من الحيوانات المتوحشه لن تأسف على عودتى ، الا أنه على الرغم من الأحداث المؤسفه التى صاحبت الرحلة . فقد كان التفكير فى العودة أمرا غير مقبول . لأنه لو حدث ذلك كنت سوف أحرم من مشاهدة منطقة من أجمل المناطق فى شبه الجزيرة العربية ، وهى معين لا ينضب من الالهام للفنان . وعاشق الطبيعة . وعالم الأجناس فضلا عما كانت ستقدمه الى من متعة حقيقية وبهجة روحيه .

منذ ذلك الوقت لم يكن زملاء الرحلة يفارقوننى بعد الغروب كما

كانوا يفعلون سابقا وقد ظل مخيمنا يعج بالحركة وقد انشغل الرجال بتجهيز أمتعتى والعينات[١] • التى جمعتها استعدادا للرحيل •

وقد نمت فى تلك الليلة نوما عميقا واستيقظت فى الصباح لكى ألقى نظرة على وادى عربوت وقد أخذ ينفض عنه النعاس • ومن فوق التلال حيث كان الزملاء يؤدون الصلاة كنت أسمع تسابيحهم كما لو كانت آتية من احدى الكتدرائيات الكبيرة • وكان ضوء النجوم يخفت تدريجيا تحت زحف ضياء الصبح يتلوه شروق الشمس التى أخذت ترسل أشعتها الذهبية على البطاح • ومع نسمات الصباح العليلة أخذت أعواد العشب تتمايل وتهتز ، بينما أخذت الطيور على الأغصان تغرد بألحانها الشجية ابتهاجا بطلوع النهار بينما كانت الشمس تلقى بضيائها على جنبات الوادى الذى كان لايزال يغشاه الصمت ويكتسى بردائه الأحمر • إذن هاهى شمس الصباح قد بدأت تنشر أشعتها البنفسجية على الكون ، غير أن جبل نشيب الشامخ وهو يستلقى على شاطىء البحر كان المكان الوحيد الذى ظل يتحدى كل الظواهر ، ومع انقضاء النهار كان الأفق يكتسى بألوانه الزاهية ، بينما أخذت قطع من السحاب تنقشع فى زرقة السماء وتتغير ألوانها من الأخضر الى البنفسجى • ومع استفاقة الوادى من غفوته أخذت الأشجار على السفوح تكتسى بالوان جميلة زاهية ••

---

(١) .. تتألف هذه المجموعة من الاشياء الآتية :

اسم الحيوان	العدد	اسم الحيوان	العدد
سباع	٥	خفافيش حتل	٢
ثعالب	٣	عقارب	١٦
ذئاب	١	ام اربعة واربعين	٤
ارانب	٢	حشرات متنوعة	١١٢
غرير	١	سحليات	٢٨
نئران حتل	٢	فراشات	٦٦
جراد	٥٠	ضفادع	١
ثعابين	٢١	يعسوب	٦٠١

.. بالاضافة الى فرس النبى والعنكبوت والزنابير •

الفصل التاسع

الساعات الأخيرة فى ظفار

حصن ظفار : اليوم السادس من ديسمبر • كنت أشعر بتحسن فى ذلك اليوم من مرض « الدوسنتاريا » ، الذى أصبت به وألزمنى الفراش ثلاثة أيام بعد عودتى من منطقة الجبال •

لقد مضى شهران منذ ترتيب مسقط ، كما مضى أكثر من ستة أسابيع منذ بدأت أحلامى فى اجتياز الربع الخالى تتبدد • وقد تبين لى بوضوح أن تلك المنطقة كانت أكثر قسوة مما كنت أعتقد وكنت قد يئست تماما من وصول أى خبر عن المبعوثين الذين أرسلتهم للتمهيد والاستطلاع . فمن المحتمل جدا أن يكون أولئك الرسل قد لقوا حتفهم فى الطريق على يد بعض خصومهم . وهنا أحسست بأن الأعوام الطويلة التى أنفقتها فى التحضير لهذه الرحلة والهدايا التى جمعتها ورتبتها فى عناية فائقة ووزعتها فى كثير من الكياسة ، قد ضاعت سدى •

وفى الغد سوف تصل السفينة الحربية « آل سعيد » • قادمة من مسقط • ومن المفروض أن أعود عليها • كما أنى أشك فى أن تعليمات رسمية جديدة قد تصل معها اذ ليس من المستبعد أن تكون عمان قد شهدت بعض الأحداث كالحروب والاضطرابات مما يستدعى عودتى الى العاصمة •

ومن مرياط كان قد وصل أحد المواطنين بعد أن علم بوصول هذه السفينة وسمع طلقات مدافعها ورأى العلم السلطانى يرفرف فوق ساريتها • وقد جاء مسرعا لكى يتمكن من الوصول الى السفينة لعرض ما يحمل من السلع والبضائع التى يعرف أنها سوف تدر عليه كثيرا من الربح •

وعلى أسطح المنازل كان جمهور المواطنين يطلق النار احتفالا بوصول

السفينه الى ظفار • وفى هذا الوقت بالذات كنت فى داخل غرفتى بالحصن مستلقيا أفكر فى مصير الرحلة ، واذا كنت فى العام الماضى قد نجحت فى الدخول الى المنطقة من الشمال مسافة مائتى ميل تقريبا حتى مشارف منطقة الرمال ثم اضطررت الى العودة ، فاننى فى هذه المرة لم أتمكن حتى من القاء نظرة على المناطق الواقعة وراء جبال القرا •

وقد مرت نحو ساعة وأنا على هذه الحال ، ولم يقطع حبل تفكيرى غير دخول (الخادم محمد) عند الغروب ليخبرنى بأنه يحمل لى أنباء سارة ، فقد وصل فى نفس اللحظة بدويان من الصحراء . وقالا له بأنهما مقدمة لقافلة كبيرة يقدر عددها بأربعين بعيرا من بينهم (معيوف وخويتم) اللذين كنت قد كلفتهما بالتوجه الى منطقة الرمال • وقال بأنه من المتوقع أن يصل الاثنان الى عين فروم هذه الليلة وغدا سيصلان الى « جربيب » • ان شاء الله •

حقا ! ! لقد كانت أخبارا سارة لو انها كانت صحيحة ، غير أن السفينة سوف تصل غدا هى الأخرى ، فهل كان من المقدر أن يتأخر وصول المبعوثين يومين أو أن تلك خدعة القدر تأتى فى اللحظة الأخيرة •

بينما كنت فى اليوم التالى أطل على بهو الحصن رأيت مجموعة من راكبى الجمال ومعهم عدد من البدو الذين يرتدون بعض الملابس المهلهلة ، وكانت تلك هى قافلة الجمال التى وصلت من منطقة الرمال ، والتى سوف تصحبنى فى رحلتى الى الربع الخالى •

ومن ناحية أخرى كانت السفينة «آل سعيد » التى وصلت فعلا ترسو فى الميناء ، وقد حضر قبطانها الشجاع « سالم المنذرى » ليصحبنى الى البارجة التى ستبحر الى مسقط •

وعلى الفور عكفت على قراءة كومة الرسائل التى كانت وصلتنى وكانت احداها وعليها الشعار السلطانى من صديقى الحميم السيد تيمور •

وقد قرأت هذه الرسالة أكثر من مرة . وبحكم الثقة المتبادلة بينى وبين جلالته ، فقد أعددت على الفور قرارا بعدم السفر الى مسقط وذلك حتى أقوم بمحاولة أخرى لاجتياز الربع الخالى عن طريق غير تلك التى رسمتها سابقا . ومنذ تلك اللحظة فسوف يرتبط مصيرى بهؤلاء الرجال الغرباء الذين سأشترك معهم فى اقتحام تلك الصحراء المجهولة .

وعندما دخل على خويتم ومعيوف يصحبهما الشيخ صالح تحدثوا الىّ عن الصعوبات التى عانوا منها فى محاولتهم اقناع البدو بالحضور بعد أن أبدى هؤلاء البدو لهم ما سوف يتعرضون اليه من متاعب وأخطار وجوع أثناء الرحلة .

والواقع أن حالة الجمال كانت خير شاهد على تلك المتاعب ، كما طمأنوهم على المكافآت السخية التى سوف يحصلون عليها من تلك العملية ومن أول وهلة أعجبت بالشيخ صالح وكان يلقب بـ « ابن كلوت » وهى احدى النساء الشهيرات فى الربع الخالى وابنة محارب مشهور وأم لثلاثة من المقاتلين فى المنطقة .

ومن التقاليد التى تتميز بها هذه المنطقة هى الانتصار على الخصوم والوقوف بجانب الأصدقاء ، وهى صفات تمثل قمة البطولة والنبل الانسانى . وكان صالح قصير القامة ، عريض البنية ، كبير الرأس أصلع . عريض الوجنتين — وهى سمات قلّ أن تجتمع فى البدوى ، كما كان له حاجبان كبيران وربما يرجع ذلك الى صلعته وعينيه الواسعتان . وكان سمحاً وصريحاً وكان يتحدث فى صوت خافت واتزان وقد شجعتنى هذه الخصال الى أن أضع فيه مطلق ثقتى .

وبعد أن كشفت له عن خطتى ، طلبت منه بأن يعاهدنى على عدم افشاء خبر رحلتى وقلت له بأن ما أهدف اليه هو أن أقطع الربع الخالى من البحر الى البحر .

وسألنى : وفى أى منطقة تريد أن تنتهى الرحلة ؟ .. فقلت له . فى أى بلد ممكن الرياض أو البحرين أو أبو ظبى .. ولكنه قال باصرار بأن هذا الأمر مستحيل . فعدت أسأله وما هو الممكن اذن ؟ .. نأخذك الى موطننا فى ديرة الراشد جنوب الربع الخالى ثم نعود بك انى ظفار ومع ذلك فانى أسأل الله أن يكفينا شر قبيلة « الصيعر » . وهكذا فنحن لا نستطيع أن نأخذك الى مناطق القبائل الأخرى ، غير أننى أصررت على رأيى ، فاما أن أعبر الصحراء من الطرف الى الطرف ، أو أعود فالغى الرحلة نهائيا . وقلت له : بأننى لا أرى أى فائدة من رأيك هذا .

فعاد يقول بأن شهر رمضان سوف يحل بعد شهر منذ ذلك التاريخ . ومن عادة الناس ألا يسافروا فى هذه الآونة لأن الكل يفضل البقاء مع أسرته خلال شهر الصيام .

ومن الطبيعى أن الشيخ صالح لم يكن على استعداد للسفر فى رمضان خصوصا فى رحلة طويلة كهذه .. غير أن البدوى عنيد الطبع ولأنه عنيف أيضا فانه لا يعرف التردد فى اتخاذ قراراته ولهذا رأيت من المناسب أن أمهله بعض الوقت — يومين أو ثلاثة للتفكير واتخاذ قرار فى الموضوع ، أو الاهتداء الى فكرة لم يكن قد اهتدى اليها فى تلك اللحظة .

وعندما عاد الىّ صالح فى اليوم التالى وجدنى مصرا على تحقيق هذه الفكرة حتى لو استدعى الأمر السفر على البارجة الى أبو ظبى والاستعانة هناك بقبيلة العوامر فى عبور الرمال ، وقد توخيت من مساومتى هذه أن أدفعه الى الموافقة على مرافقتى .. وبالفعل فبعد هذا الحديث أبدى الشيخ صالح مرونة أكثر واستعدادا للاتفاق معى وقال : ولكنك أيها الصاحب لا تعرف شيئا عن الظروف التى قد تحيط بالمنطقة وأن ما تطلبه منى هو فوق طاقتى .. وأما بالنسبة لديار آل الراشد فهذه يمكننى أن آخذك اليها وأدعو الله أن يقينا مكائد الأعداء .. وبما أنك تريد الذهاب الى مناطق آل مرة فاننى لا أستطيع الدخول اليها لأنه ليس لدىّ الأمان

من تلك القبائل فالدخول الى مناطقهم دون اذن أو أمان سابق أمر غير ممكن . كما أنى لا أعرف ما اذا كانوا سيوافقون على دخولك الى مناطقهم أم لا .. ولهذا فاننى لا يمكننى أن أتحمل مسئوليه هذه المغامره .

ولما كانت البارجة « آل سعيد » لاتزال بحسن الحظ موجوده فى ظفار واذا كان ما قاله رجال البدو عن مخاطر الصحراء صحيح فان المجازفه بالرحله ستكون عملا خاطئا . لاسيما وأن المحاذير التى أشروا اليها قد تتجمع كما توغلنا داخل الصحراء . ولقد جربت هذا بنفسى فى الرحلة السابقه . فان التوجه الى الرحلة والفشل فيها سوف يعنى سببا واحدا هو العودة الى ظفار ومنها الى مسقط بسفينه شراعيه بما تنطوى عليه من خطر دون تحقيق الهدف الذى جئت من أجله . ولهذا فكرت فى أن أستبقى البارجة « آل سعيد » بعض الوقت الى أن تتضح الأمور .

فى اليوم الثالث بدأ رجال البدو الذين قدموا من الصحراء يتنحلون مما وصلت اليه الأمور . فقد كانوا يتوقعون أن يحصلوا على شىء من المال ، ولكنى لم أدفع لهم شيئا وفضلت أن أعطيهم بعض المواد الغذائيه .

عاد صالح إلىَّ فى اليوم التالى ليشرح لى حرج موقفه إزائى وإزاء البدو الذين اتفق معهم . وقال بأنهم متذمرون من الطريقه التى عالجت بها الأمور وقال بأن هؤلاء قوم بسطاء يتأثرون من أبسط الأشياء . وانه كان من الأجدر بى أن أكسب ثقتهم أولا . وأطمئنهم على حقيقة نواياى . فهم يعتقدون بأنى قد جئت الى هذا المكان لأتجسس عليهم لحساب سلطان مسقط أو الملك ابن سعود وأحصى ما يملكون من ابل . ولذا فقد وجدت من الحكمة أن أصارحهم بأهدافى بوضوح وأن أجرد الرحلة من أى صفه رسمية وأن أؤكد لهم بأن الرحلة شخصية لأنى رجل مغرم بالرحلات . كما حاولت أن أستنهض فيهم الهمة والمروءة بأن أقنعتهم أن مشاركتهم لى فى الرحلة ستكون خدمة كبرى لقضية العلم التى يجلها ويقدرها أهل

(الشيخ صالح بن كلوت)

بلدى ثم سألت الشيخ صالح : كيف ترى الموقف الآن ؟ .. فأجاب الشيخ صالح : سبق أن بينت لك أننى مستعد لتقديم المساعدة اليك ولكن ليس فى وسعى أن أتعهد لك بتحقيق طلبك ..

وقد يكون الشيخ صالح صادقا فيما قاله ولكنى لم أكن مستعدا لقبول ما كان يترتب عليه من نتائج ، فقد كان من الواضح أن صالحا لم يكن فى وضع يسمح له بتقديم ضمانات حيال قبيلة أخرى وعلى الأخص بالنسبة لأجنبى غير مسلم مثلى ، ولكنى عدت أقول له بأن قبيلة مُرة من القبائل الصديقة وأتصور أننى لو دفعت لهم مكافأة سخية وتأكدوا من أننى فى حمايتك فانهم قد يسمحون لى بالمرور من أراضيهم . فرد قائلا : نعم وأنا أؤيد رأيك فى هذا فى أنهم قد يوافقون ولكن هناك مشكلة أخرى ، وهى مشكلة العشب وموارد المياه ، فلو توفرت هذه الأسباب ، فان القيام بالرحلة سيكون ممكنا ، كما أن قبائل مُرة أكثر القبائل خبرة بالطرق التى تؤدى الى بحر الرمال . وكان هذا بالضبط ما كنت أرمى اليه ، وهو ضمان موافقة الشيخ صالح على تنفيذ الرحلة واستعداده لمرافقتى فيها بنفسه ، فلو تحقق هذا وأمكن الوثوق من تعاون قبائل مرة فلسوف أتمكن من القيام بالرحلة فى شهر رمضان .

وقد وعدت الشيخ صالح أنه فى حالة نجاحنا فسوف أهديه جملا وبندقية وبعض الملابس ، وأثناء هذه المساومات طرأت لى فكرة الاستعانة بالسيد سعود والى ظفار الذى كان قد عاد لتوه ، لكى يكون وسيطا بيننا فى هذا الاتفاق وخاصة وأنه كان يحظى باحترام القبائل ، كما كنت من ناحيتى أقدر له مواقفه وأسلوبه فى معالجة الأمور وكان أول شىء طلبته من الشيخ صالح تعهدا منه بحمايتى وبأن لا تبدر أية خيانة أو غدر من أى جهة فيما عدا شيئين كانا خارج سلطته وهما غارات القبائل والقضاء والقدر .. وتمّ ذلك أمام الوالى السيد سعود بحكم مركزه الرسمى والدينى .

ولما كان الشيخ صالح قديرا ، كما عرفت . فقد تصورت أن العهد الذى طلبته منه لا أهمية له ولكن لم يكن من المعقول أن أطلب أكثر من ذلك . حتى لا يثير ذلك حساسيات دينية ، وكان روح التعهد وليس التعهد نفسه هو المهم بالنسبة لى .

وتأسيسا على ذلك فقد تعهد الشيخ صالح بشرفه بأن يتعاون معى فى اخلاص وحسن نية ، ولكنه طلب أن يبقى موضوع الاتفاق سرا بيننا . وألا يعرف أحد من البدو شيئا عنه . وشرح لى أسباب ذلك قائلا : انهم سحبونى الى هنا على أمل أن تأتى أنت الى مخيمنا فى الدتاكة كما سبق أن اتفقت على هذا مع سهيل الراشدى فى العام الماضى ، كما أنهم علموا بالمكافآت التى أغدقتها على هؤلاء وقد قبلوا المجىء هنا طمعا فى مثل هذه المكافآت .

وكان صالح يتحدث بلهجة البدوى وحماسته الفائقة ، ثم أضاف قائلا : وعلى أية حال فعند وصولنا الى عين الدحية ستكون جمالهم قد انهكتها التعب ، وعندئذ يمكنك أن تنهى الاتفاق معهم ان شئت وأتولى أنا قيادة القافلة ونبحث هناك عن مجموعة نواصل بها الرحلة . فسألته وماذا عن الطريق يا شيخ صالح : أجاب : الحرب .. الحرب يا سيدى .. ان بيننا وبين سكان منطقة المعراب ثأر ، وهى من القبائل التوية[1] . ولكنى

---

(١) ... فى جنوب شرق الجزيرة العربية توجد قبيلتان رئيسيتان هما الغافرية والهناوية ومن هاتين القبيلتين تفرع القبائل الأخرى ومنشأ هذين الاصطلاحين يعود كما يبدو الى صراع سياسى قديم على السلطة فى عمان ، وذلك فى القرن الثامن عشر .. غير انى عرفت من مصادر اخرى ان جذور هذا الاختلاف اعمق من ذلك ، وان الهناوية بوجه عام تنتمى الى تلك القبائل المنحدرة من قحطان .. بينما تنحدر الغافرية من قبيلة نزار او معد وغيرها من القبائل ذات الأصل الغير يمنى .. وفى هذا الاطار فان التقسيم هو تقسيم عرقى فى الأصل اكثر منه سياسى . ولهذا فان قبيلة الصيعر تقيم فى تلك المناطق التى تشملها الغافرية بينما تشمل الهناوية قبائل بيت كثير والراشد ، اما القبائل التى تسكن المنطقة الوسطى فتعتبر من الغافرية .. ذلك على الرغم من انه

آمل ألا نصادفهم فى الطريق • أما قبائل المهرة فأمرهم يختلف . وهؤلاء لابد أن نستعين بهم اذ بدون ذلك لن نستطيع مواصلة الرحـلة •

كان لابد أولا من اجراء جرد دقيق لعدد أفراد القافلة وما تحتاج اليه من المؤن وكان واضحا أننى لم أكن أستطيع بطاقم أو طاقمين من الجمال ان نأخذ كل هذه الحمولات على الجمـال عبر مناطق رملية تجتاحهـا المجاعات خصـوصا وأن الجمال سوف تفقد بيئتها الأصليه ولهذا اقترح الشيخ صالح أن نجعل الرحلة على أربعة مراحل على أن نعيد النظر فى هذه التقديرات كلما توغلنا فى داخل الصحراء •

ولكن بما أننا فى المرحلة الأولى قد نلتقى ببعض قبائل الصيعر فلم يس من الحكمة أن نخرج الى الرحلة بأقل من أربعين فردا • غير أنى لأسباب مالية كنت أفضل عددا أقل من ذلك ولكن تبين فيما بعد أن رأى مستشار الرحلة كان هو الأصح ، لأن مجموعة الأربعين قد لا تكون كافية لتغطية الرحلة ، وذلك لأن جماعات الغزو تتألف فى أغلب الأحيان من ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص حيث أن عمليات القتل والسرقة والنهب تعد من النشـاطات العادية فى الحدود الجنوبية لشبه الجزيرة العربية • ولهذا سألت صالحا : ما الذى سنفعله اذا اعترضت طرقنا مجموعة أكبر عددا ؟ •• فقال : عندئذ لا حول لنا ولا قوة الا بالله العلى العظيم •

كانت مؤونتنا تتكون من الأرز والدقيق والزبد والتمر ، وعلى أساس طبيعة هذه المواد يمكن تحديد عدد الأكياس التى يمكن حملها فى كل مرحلة

لا يوجد ذلك التماسك القبلى فى جنوب شبه الجزيرة العربية باستثناء عمان .. كما ان هذه التسميات ليست لها اهمية سياسية .. اما قبيلتا المعراب والشعاشعة فهى تسميات اقليمية وهى تشمل جنوب وشرق ظفار .. وبالتالى فان قبائل الصيعر وغيرها من مناطق المنطقة الغربية تعتبر من قبيـلة المعـــراب .

من مراحل الرحله فلو أننا أخذنا كميات كبيرة من تلك الأطعمة فان ذلك سيكلفنا كثيرا ليس من الناحية المالية فحسب وانما بسبب ارتفاع الأجور . لأن الجمال الصحراوية صغيرة الحجم ولا تقوى على الأحمال الثقيله أما اذا أخذنا كمية محدودة فان ذلك لا يساعدنا على تحقيق أهداف الرحلة . ولهذا كان الحل الأمثل هو تقسيم القافلة الى أربع مجموعات . تبدأ بأربعين بعيرا ، ثم تنخفض الى ثلاثين ثم الى عشرين ثم الى خمسه عشر . على أن توزع المؤونة قبل بدء الرحلة فيعطى كل جمال حصته من هذه المؤونة أما الجمال الأخرى فانها سوف تقوم بحمل مؤونة بقية المجموعات الثلاث وهكذا يتكرر هذا التنظيم على كل مرحلة من مراحل الرحلة ، وعن طريق هذا التخفيض التدريجى لأفراد الرحلة فقد قدرت أننا سنحتاج الى **خمسين كيسا من المؤون فى بداية الرحلة .**

كذلك فقد اتضح أن التنظيم السليم والدقيق سوف يكون أمرا أساسيا لتحقيق النجاح حتى ولو لم يكن ضمانا له فمن المحتمل أن نلتقى باحدى المجموعات الكبيرة من قبيلة الصيعر (وان وجود ٣٠٠٠ ريال فى حقيبتى ، قد يدفع القبائل المعادية بالاغارة علينا هذا فضلا عن أننا بعد دخول الصحراء سوف نواجه ثلاثة عوامل لم تكن فى الحسبان الأول : هو موقف قبيلة مُرة من دخولى أراضيهم . والعامل الثانى : هو اذا ما كانت المراعى وموارد المياه متوفرة بالقدر الكافى هذا العـام ، والعامل الثالث : ما اذا كان يمكن وجود بعض البدو على استعداد للاشتراك معنا فى الرحلة خلال **شهر رمضان .**

أما موقف قبيلة مُرة فلم يكن معروفا حتى ذلك الوقت ولم يسبق لأى شخص من خارج الحدود أن سار فى مناطقهم ، وعلى اليقين لم يقدر لأى رجل أبيض ومسيحى مثلى أن يرى تلك المنطقة ، وقد أخذت أتساءل فى قرارة نفسى .. هل ستتعاون معى هذه القبيلة يا ترى ؟ .

وكان رأى الشيخ صالح أن احتمالات النجاح والفشل تكاد أن تكون متساوية وفى غمرة هذه الشكوك والأمل واليأس قررت بعد انتظار دام شهرين ان أغادر ظفار الى وجهتى وذلك فى اليوم العاشر من ديسمبر عـام ١٩٣٠ •

وزارة التراث القومى
المكتبة
الرقم العام : ٨٤٣٧

الفصل العاشر

عبر التلال الى بحر الرمال

انطلقت الجمال من بهو الحصن وسط جموع من الناس جاؤوا بهذه المناسبة لتوديعنا متمنين لنا رحلة موفقة .

شيء واحد فقط يمكن أن يشغل البدوى عند السفر الا وهو بعيره أو ناقته وقد يحدث أن يتذكر شيئا نسيه فيعهد ببعيره الى أحد معارفه ويتوجه هو الى السوق لساعة أو بعضها لشراء ما كان يحتاج اليه .

وفى هذه الأثناء جاء خويتم الى حاملا فى يده ثلاثة مسامير بعيره وسلمها لخادمى وقال له : هل تعرف لأى شيء هذه المسامير . انك سوف تحتاج اليها قطعا فى منطقه الرمال . وكان هذا سببا للتأخر ريثما يقوم الحداد بصنع الكعوب الحديدية لجمال القافلة .

خذ واشرب ايها الصاحب . ثم ناولنى جرة مليئه من الماء الذى أحضره من المسجد وبعد أن فرغت من الشرب . جلس هو وزملاؤه على الأرض ليشربوا ، لأنه من التقاليد عند هؤلاء القوم ألا يشربوا وهم وقوف . وقد ابتهجت كثيرا من هذه اللفتة التى ذكرتنى بأيام العراق . حين كنت أزور العتبات المقدسة هناك ، وأرى الآن هذه الظاهرة بين عرب الصحراء .

وبعد أن قطعنا فى السير نحو خمسة أميال بدأ الزملاء يبطئون من سيرهم ويتحركون فى تشكيلات مبعثرة الى أن وصلنا عند بعض الشجيرات . فأخذوا يصيحون هيا دعوا الجمال ترعى .. هيا دعوا الجمال ترعى . ثم اقترحوا علينا النزول فورا من على الجمال لأن مجموعة الشيخ صالح لازالت خلف الركب .

وما ان ترجلت من فوق ناقتى . حتى قام أحد البدو بحل مقودها وساعدها حتى بركت لتتناول نصيبها من العشب من احـدى الأكمات القريبه وقد أمضينا الليله فى ذلك المكان ولما جيء بالعشاء وضع كله فى كومه واحدة ، ربما خوفا من اللصوص الذين كانت تعج بهم المنطقه . ولمـا كان الشيخ صالح يعرف طبيعة زملائه البدو . فقد حضر الى المـائدة متأخرا .

وبمجرد وصوله صاح بهم : يا جماعه .. يا قوم .. ان هذا زاد الوزير فى أمانة الله وأمانتكم . وقد رد عليه الجميع فى صوت واحد : تم ـ تم . فى الوقت الذى كان فيه الجميع مشغولين بشئونهم الخاصة . فمنهم من كان يقطع العيدان ليصنع منها عصيا ، ومنهم من كان يصب الزيت على القرب لتقويتها حتى تتحمل الرحلات الطويلة بينما كان آخرون يصنعون الأكياس لارتدائها لأن الملابس الجاهزة لم تكن متوفرة هناك . وقد اضطرنى هذا الى شراء مجموعة من هذه الأكياس فى ظفار قبل بدء الرحلة كما توجه آخرون منهم الى السـوق لاحضار بعض الحاجيات . ومنها ابريق كبير من الألمونيوم . بينما رأيت شابا آخر يقلب فى يديه مرآة ذهبية اللون . لعله كان يزمع اهداءها الى فتاة عزيزة عليه .

وفى هذه الأثناء نادانى الشيخ صالح وقال : تعالى أيها الصاحب لترى خفى الناقة . وكان فى يده ابرة كبيرة من التى تستعمل لحياكة أشرعة السفن ، وكان مكبا على أحد النوق بينما كان أحد البدو يمسك بالناقة من أحد جنبيها . ويمسك الآخر رأسها ويجذبه نحو مؤخرتها . بينما كان الثالث ينزع شيئا من شفتها ويمسك الرابع باحدى رجليها من الخلف . وكان الغرض من كل تلك العمليات هو خياطة قطعة من الجلد فى خف الناقه بتعليه خف أصيبت به أثناء سيرها فى الطريق الصخرى . وسوف تمكن تلك العمليه الناقه من السير واستئناف الرحله فى اليوم التالى .

وبعد أن انتهى البدو من هذه العملية دخلوا يتجادلون بشأن وزن الحمولات وقد كان كل منهم يفضل أن يكون وزن حموله جمله أو ناقته أقل من الآخر • ولهذا السبب أعيد تقسيم الحمولات وأسفرت هذه العملية عن نقل حمولة ناقتى بحجة أنها لم تكن مناسبة وبعد أن تم توزيع الحمولات على الجمال ، وجدت نفسى فى اليوم التالى أمتطى جملا لم أشعر بالراحة عليه • ولم يكن يمر يوم واحد دون حدوث مثل هذه المشاكل والخلافات • لأن البدوى أحرص على جمله من أى شىء فى الوجـــود لدرجة أنه مستعد دائما أن يضحى بحياته فى سبيل جمله •

بعد الغروب تجمع زملاء الرحلة لأداء صلاة المغرب • وكان يؤم أحد الفريقين الشيخ صالح ؛ ويؤم الفريق الآخر « الكربى » •• وعلى حد رأى خادمى فان طريقتهم فى أداء الصلاة كانت تختلف عن طريقة بيت كثير الذين كنا معهم فى السنة الماضية ، فأولئك كانوا يؤدون الصلاة فرادى وليس جماعة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يرفعون أصواتهم الا أنهم لم يكونوا يفقهون شيئا من الكلمات التى يرددونها أثناء الصلاة فقد كانت غير مفهومة اطلاقا •

فى صباح اليوم الثانى تحركت القافلة وبعد مسيرة ساعتين عبر السهل فى اتجاه نحيز ، وصلنا الى غار فضل وهو كهف فى احدى التلال السفحية التى يكسوها العشب ، وكما فهمت من بعض المصادر المحلية ، فان ذلك الكهف يفسر لنا ما ورد فى مؤلف « بنت » عن وجود احـــدى الظواهر الطبيعية فى تلك المنطقة والتى قد تكون لها صلة بقصة « وحى العمـــر » للبطليموس •

وقد أحسست فى تلك اللحظة بشىء من خيبة الأمل ، فقد كان الكهف كبيرا بشكل غير عادى بحيث يبلغ قطر فتحته نحو عشرين قدما ، وعلى جوانبها أكوام مستديرة تشعر الناظر اليها وكأنها تحجب ورائها الحائط

الذى أشار اليه « بنت » ، كما أنها تضم بعض الآثار وقد بنيت جوانب الفتحة من الطين الأحمر الفاتح اللون . وترص كما لو كانت تلك الفتحة مسورة بحائط من القرميد أو الحجر وعندما ألقيت بحجر من الكهف استغرق نحو ثانيتين لكى يصل الى بطن الكهف • ومن هنا يمكننا أن نتصور أن عمق الكهف قد يبلغ نحو مائة قدم تقريبا •

أما سكان القرا فينسبون ذلك الكهف الى « المنجوى » وكان من أشهر حكام تلك المنطقة خلال العصور الوسطى •• كان هذا رأيهم ولعلى أوافقهم على أن الكهف من صنع الانسان وليس من صنع الطبيعة •

وكان بالقرب من الكهف وحوله متاريس على شكل مساكن النحل يصل ارتفاع بعضها الى علو جبل ، ولم يكن ذلك البناء أثرا كما ارتأى « بنت » ؛ وانما كان نوعا من المساكن التى تشبه بيوت النمل بلغة أهل الجبال الذين يطلقون على النمل « أزدريد » •

وعلى بعد نحو ميل من الكهف وعلى مدخل وادى نحيز وعلى جانبه الغربى بالذات ، رأيت كهفا آخر يسمى « صحور » وهو فتحة سوداء على ارتفاع ٢٥٠ قدما وتقع وسط غابة كثيفة • وقد صعدت الى ذلك الكهف ومعى سهيل من بيت قطن وحفيد سهيل الأول الذى رافق الرحالة « بنت » فى رحلته الى الكهف المذكور ولكنهما لم يدخلاه . وفتحة الكهف كانت عبارة عن فجوة سمتها نحو مائة قدم ، وترتفع من الداخل نحو أربعين قدما الى سقفها الذى تتدلى منه هوابط صغيرة قد تغير شكلها بفعل العوامل الجوية كما كانت أسراب الحمام تطير بالقرب من ذلك المكان •

وثمة خرافات شائعة عن ذلك الكهف منها أنه مسكن للجان ومرتع للعقارب ، وعندما طلبت من بعض المرافقين مصاحبتى فى دخول الكهف تطوع عدد كبير منهم ، وكانوا جميعا يؤمنون بوجود الجن ، فتوكلنا على

الله وبدأنا الدخول زحفا على بطوننا فوجدنا أنفسنا داخل غرفه داخليه واسعة غير متناسقة التصميم . وكان يوجد بالاضافة اليها غرفة رئيسية أخرى وكانت الغرفتـــان مظلمتين . وعندما أضأت المصباح الكشـــاف رأيت صخرة بيضاء صافية كالبلور وكانت قطرات الماء تنزل من هوابط داكنة اللون الى حد ما ، كما رأينا بعض القطع الصخرية بارزة من الأرض . ثم كان هناك عمود ملحق يشبه الحوض ويبلغ قطره نحو ثلاثة أقدام . مقام على نصف دائرة مجوفة من نفس تركيبه • وكانت القاعة تؤدى الى قاعات أخرى معظم مداخلها ضيقة جدا . كما كان الوصول الى المداخل الأربعة الأخرى غير ممكن الا عن طريق المدخل الذى اكتشفناه •

وقد قال لى بعض الأهالى بأن عددا محدود جدا من الناس استطاع الوصول الى المكان الذى وصلنا نحن اليه ، وكان الكهف عبارة عن سلسلة متصلة من الغرف المتصل بعضها بالبعض على امتداد أميال وراء الجبل وكانت توجد به بعض الأجزاء الفسيحة بحيث لو ألقى أحد بحجر فلن يصل الى السقف وكان الجو داخل الكهف حارا . شديد الرطوبة بحيث لم نستطع البقاء داخله أكثر من نصف ساعة قضيتها فى جمع العينـــات الجيولوجية ، كما اصطدت بعض الخفافيش قبيل الخروج من الكهف • وفى النهاية خرجنا الواحد تلو الآخر من ذلك السرداب الى حيث الضـــياء والهـــواء •

ثم صعدنا « عقبة حمرير » ، على الناحية المقابلة من الوادى عبر منحدرات كثيفة الأشجار وبعد نصف ساعة من الصعود وصلنا قمة الجبل فتبين أننا ارتفعنا عن منطقة فزح بنحو ١٣٣٠ قدم ومن ذلك المكان سرنا وسط مناطق خضراء فى اتجاه الشمال الى أن وصلنا « نحيز » ، وكانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، وكنا وقتئذ على ارتفاع يبلغ ٢٣٧٠ قدما أى أننا كنا تحت منطقة القطن ، وقد جاء خويتم ليخبرنى عن وجود عين ماء على بعد ميل واحد تقريبا غربا ويسمونها نبع « أرويز » ، وأن ماءها حلو كالمســـك •

وفى الغد سوف نتزود بالماء من عين « هنون » ، وان كان ماء عين « هنون » ليس عذبا كماء عين « أرويز » . ولذلك كان من الأفضل فى رأى خويتم لو قطعنا الرحلة هناك وتوقفنا لاستراحة قصيرة ريثما نتزود من مياه أرويز الحلوة . وقد اعترضت أولا على اقتراح خويتم بالتوقف هناك ولكنى عدت فوافقت لأننا كنا فى منطقة تكثر فيها الأشجار من نوع « السمر » الكبيرة الظليلة . وكان ذلك وحده مبررا كافيا للتوقف بعض الوقت على ذلك الارتفاع الشاهق ، كما كانت أشجار المنطقة أفضل طعام للجمال . وعلى ذلك الأساس وافقت على قطع الرحلة لبعض الوقت ، كما انى من خلال معايشتى لأولئك القوم أدركت أهمية اكتساب ثقتهم واحترامهم من خلال اهتمامى براحة الجمال وما تتطلبه من رعاية .

وهكذا تقدمت المجموعة فى طريقها الى اقامة المخيم ثم عادت الينا . لتغير أكياس القش بكميات جديدة منه ، وكان الشيخ صالح كسلفه الشيخ حسن الذى رافقنى فى رحلتى الى جبال القرا من أنشط رجال المجموعة فى جمع الحطب وذلك من تقاليد البيئة القبلية فى توجيه الزعماء لأتباعهم سواء فى الحرب أو فى السلم .

ولقد تجمع جمهور من مواطنى المنطقة حولنا ، وخشى بعض رجال البدو والمرافقين على ما كان لدينا من مؤن فقاموا بتكديسها ثم نام البعض فوقها والبعض الآخر بالقرب منها خصوصا وأن سكان منطقة الجبال من أشهر اللصوص .

فى هذه الأثناء سألنى أحد المرافقين هل تحب أيها الصاحب أن تطلع على طريقة عجيبة من طرق العلاج ، وكانوا قد جاءوا برجل من الجبل للكشف على مريض بالمخيم ، وبعد محاولات كثيرة اقتنع المريض برفع الغطاء عن جسمه حيث ظهر من تحت الغطاء رجل عليل جدا كانت يده مقطوعة ، وكانت قد قطعت وفقا لقوانين الشريعة الاسلامية التى توجب قطع يد السارق ، وكان

قد قبض على ذلك الرجل متلبسا بالسرقة فأمر جلالة السلطان بتنفيذ العقوبة فيه وقام بقطع يده حارس السجن الخبير بمثل هذه العمليات وهذا النوع من العقوبات تطبيق لمبادىء العقيدة الدينية .

كانت الريح الجنوبية تهب مُغيرة اتجاهها نحو الجنوب ، وكان الجو باردا على هذا الارتفاع الشاهق كما كانت السحب المنخفضة القاتمة تحجب وجه السماء ، ولكن الرطوبة كانت شديدة الى درجة مزعجة ولم أكن أحمل معى خيمتى ؛ فقد تعلمت من الرحلات السابقة أن بعض القبائل البدوية كقبيلة مرة وغيرها سوف ترفض شحن الخيمة على الجمال . ولهذا السبب لم أحضرها فى هذه الرحلة ، وقد شعرت فى تلك اللحظة بأهمية الخيمة وعلى ذلك الارتفاع الكبير حيث البرودة شديدة .

وكان كل من مقياس الحرارة الجاف والرطب يسجلان درجة الحرارة بنفس المعدل ، وقد تبللت بطانيتى ووسادتى من الندى بحيث اضطررت الى أن أقلبهما أكثر من مرة أثناء الليل . وكنت فى نفس الوقت ألبس الكوفية الصوفية العربية ، ولكن درجة الرطوبة العالية جعلتنى أستيقظ من النـــوم مثقل العينين .

أما جمالنا فقد أمضت الليل كله جاثمة على الأرض تجتر طعامها وقد استيقظت فى الفجر على صوت أصحابها وهم يؤدون الصلاة فنهضت من أماكنها تنتظر ضوء النهار ودِفاه أيضا ! ثم جاء أصحابها فاقتادوها الى أحد المراعى القريبة الى أن جاء وقت استئناف الرحلة .

كان الطريق يؤدى الى منطقة قطن . أعلى قمة فى سلسلة جبال القرا . والتفت ورائى لألقى نظرة على ساحل المحيط الهندى الذى كان تحتنا بعمق ٣٠٠٠ قدم وهناك انتهت المناطق التى يكسوها العشب لتبدأ مزارع اللبان المكتظة بالأشجار .

وقد جرى بعض الصبية نحوى يقدمون الى اللبان ظنا منهم بأنه سيكون من الأشياء التى قد تثير اهتمامى ، وطمعا فى الحصول على هبة ، وقد رأيت نوعين من النباتات أحدهما يشبه الطماطم ويسمى « الحلقوم » ، والثانى نبات الصبار ويستعملونه كدواء للمغص وللرمد ولحاء شجرة الصبر يفرز سائلا أخضر ضاربا الى الصفرة وتستعملها النساء عندهم للتزين •

ونظرا لوعورة المنطقة فقد اضطر الموكب الى أن يسير فى وصف واحد ، ثم بدأنا فى طريق النزول من مكان بعيد من جبل القرا • وذلك عن طريق وادى القبلى الذى يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠٠٠ قدم ، وكان الطريق من خلال أحد الجروف الداكنة اللون وعلى جانبيه فجوتان تستعمل احداهما كحظيرة للدواب بينما كانت توجد صخرة ضخمة بالوادى عليها بقع من القشـــور البيضـــــاء •

وعند مرورنا على بعض القبور الواقعة خلفنا مباشرة ، قرأ الشيخ صالح الفاتحة • ورأيت أن أرفع قبعتى تحية للأموات ، وهنـــا سألنى الشيخ صالح عن الطريقة التى ندفن بها الأموات فى بلادنا وهل صحيح ان الكفار يحرقون موتاهم ؟ •• وقبل أن أرد عليه تساءلت فى نفسى أنه اذا اعتقدنا أن هناك بعثا أو حياة أخرى ، فإن حرق الميت ، وهى عادة أخذت تنتشر فى العالم ، يعتبر جناية فى حقه وأجبته بأننا نأخذ موتانا الى الجامع لاقامة الصلاة عليهم ثم نلفهم فى كفن أبيض وندفنهم وهنا صاح أحد المرافقين من قبيلة الرواشد « والله مسلمون » ••

ولكن آخر النهار شعرت بأن اجابتى التى أدليت بها كانت موضع شك ، رأيت أحد الكثيريين يجرى بالقرب من ناقتى ، فاقترب منى وكان بشوشا ، وأخذنا نتحدث ، فقال له الشيخ صالح : « ان هؤلاء قـــوم صادقون » •• وكان يعنينى بهذا الكلام • ولكن الشاب البدوى قال : ان

الله قد أعفاهم هذه الدنيا ولكنه سيحاسبهم فى الاخرة . استغفر الله . قال له الشيخ صالح لا بل ان الله سيغفر لهم أيضا ولكنه كان يعتذر لى بنيابة عنهم باعتباره الرجل المسئول عن القافلة .

وهنا بدأ مقياس ضغط الهواء يشير الى انخفاض درجه الحراره عندما أخذنا نسير فى الممر الضيق ، وبعد أن قطعنا أربعه أميال وصلنا منخفض وادى صعدان وهو وادٍ ناعم الرمال ورأينا أمامنا سلسله من المرتفعات الجيريه الشاهقة اللون ذات أشكال مخروطية وهرمية ومن أبرز تلك المرتفعات « قرن فهد » الذى كان يقع الى الغرب منا وفى مواجهتنا مباشرة « وقرن الشيبة » على الجهه الشماليه الغربية . وقد ارتأينا بأن نقضى الليلة فيه . ومن هناك رأيت منخفض فضاء واسعه أرضها متدرجه وكانت على عكس المرتفعات المكسوة بالأشجار التى خلفناها وراءنا .

وخلف الضفاف المقفره للوادى الذى يجرى شمالا عبر المنحدرات تختفى أشجار اللبن البريه . ومن مظهرها تبدو تلك الشجيرات وكأنها ليس لها جذعان رئيسيه بل تتفرع أغصانها من تحت التربه مباشره وترتفع الى علو جمل أو أكثر وقشرتها رماديه اللون وأوراقها صغيرة مجعدة . وقد قفز أحد المراعين من على ناقته ليحضر لى عينه من ذلك اللبن قبل نضجه . ثم وضعها على طرف نصل خنجره . وكان شكله أشبه بالفحم الأخضر وكان شفافا وله رائحة ذكية .

وتبدأ شجره اللبان فى اخراج ثمرتها فى العام الثالث أو الرابع من عمرها ويشترك الرجال والنساء فى جمع محصول اللبن وتتم استخراجه عن طريق احداث شقوق كثيرة فى أغصان الشجرة بسكين خاصة . وتفرز تلك الشقوق السائل الذى يتجمد على شكل حبات الزيت وهو ما يعرف باللبـان .

وتتشكل المادة التى تخرج من تلك الأغصان الى أشكال متعددة . وهكذا

(أشـــجار اللبان البرية)

تستمر شجرة اللبان فى افراز ذلك السائل كلما زاد تعميق الشقوق فى أغصانها ، الأمر الذى يتم على فترات من عشرة أيام الى خمسة عشر يوما • وعند نضوب الشجرة من السائل تجف وتترك الى أن تستعيد حيويتها خلال فترة تتراوح بين ستة أشهر وعامين تبعا لحالتها •

ويتم جمع المحصول فى فصل الصيف ثم يودع داخل الكهوف الى أن يحل الشتاء وعندئذ تتم تعبئته وشحنه الى موانىء التصدير ، لأن حركة النقل فى الموانىء تتوقف خلال فصل الرياح الموسمية العاصفة ، وفترة تخزين اللبان تسمح له بأن يأخذ نصيبه من الجفاف على الرغم من أنه يمكن تصديره بعد عشرة أيام أو عشرين يوما من جمع المحصول •

ومن مدينة بومباى فى الهند ، يجد اللبان الظفارى طريقه الى معابد الشرق الأقصى ، والسيدات فى ظفار يستعملن اللبان الذى يتبخرن به كعطر فى المساء ، كما يستعمل لطرد الشياطين •

واللبان منذ العصور القديمة يعتبر من المواد النفيسة ، ومن أفضل وسائل القرابين للآلهة ، فقد استعمله المصريون القدماء لتحنيط الأعزاء عليهم من الموتى كما عرفه الفراعنة وغيرهم من أصحاب الدماء الزرقاء ، كما كان يقدم للتماسيح وكان الإسرائيليون يحرقونه فى معابدهم فى عهد النبى موسى ، كما ورد ذكر اللبان فى أقوال النبى سليمان كما جىء به للمسيح عند ولادته مع الذهب وصمغ المر •

ينمو الصمغ بكميات تجارية فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة العربية فقط فى منطقة تقدر مساحتها ما بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قدم[١] مربع

---

(١) .. اشجار اللبان تنقسم حسب حجمها الى : (١) **المنزلة** : وهو نوع كبير الحجم ومن اهم انواعه العفور ، والعسوق ، والعفار ، والزوا ، والعطا ، والنشيط ، والنايم ، والعموت .. (٢) **الحويل** : وهذا النوع يكفى خمسة

من جبال القرا من خط طول ٥٣ر٠٠ درجة الى خط طول ٥٥ر٢١ درجه شرقا ، ولعل وقوع مناطق زراعه اللبان على حزام منطقه الرياح الموسميه الفريدة فى طبيعتها . انما هو دليل على أن الأحوال الجوية الملائمة لزراعته لا توجد فى أى منطقه أخرى من شبه الجزيرة العربية ، ومن هنا تجىء شهرة تلك المنطقة من شبه الجزيرة العربيه . وعلى أية حال فان مزارع اللبان فى اليمن وفى حضرموت قد تضاءلت أهميتها بحيث لم يعـد هناك من يذكرها فى تلك المناطق .

ولمـدة ساعة أخذنا نسير وسط أحراش من أشجار اللبان الحديثه العهد . وكانت تظهر على جذورها آثار شقوق حديثة ، وأصحاب هذه المزارع رعاة وليسوا متفرغين لجمع اللبان . وانما يكتفون بتأجير مزارعهم الى أفراد قبيلة الكثيرى أو المشايخ على أساس المناصفة ، وفى ذلك الموقع وعلى مسافة تربو على العشرين ميلا من شاطىء البحر تنتهى الحـدود الشمالية للقبائل المستقرة وأعنى قبائل القرا والشحرة وغيرها من العناصر الجبلية التى تنتمى الى بيت كثير والمهرة وهى تكاد تكون تقسيمات جيولوجية ، والى الخلف منا تقع سلسلة الجبال الكلسية « العصر الجيرى الأخير » وأمامنا صحراء واسعة تتناثر فوقها مرتفعات على مساحة تمتد الى مسيرة ستة أيام حتى أطراف بحر الرمال ، وفى تلك الصحراء تقيم بعض قبائل البدو الرحل أغلبها من بيت كثير والمهرة وبيت المشايخ .

.. أسخاص او امل لجمع محصوله .. اما بالنسبة الى اللبان نفسه فثمة ثلاثة أصناف : النجدى . والشرزى ، والشهابى . وترتب اصنافه تدريجيا على نفس المنوال فالنجدى وهو فضى اللون ينمو على المرتفعات على جبال سمحان والقرا واما الشرزى — فهو من منتوجات الاقليم المسمى باسمه وينمو فى سلسلة جبال القرا والقمر والنوع الثالث هو الشهابى وهو اقليم جودة وينمو فى المنطقة المحيطة بسهل عربوت . واما الموانىء التى يصدر منها اللبان فهى حسب مواقعها من الشرق الى الغرب : جرمب . رخوت . ربوت . عوقد . صلالة . حاسك . طاقة . مرباط . سمدح . حضبرم .

ولقد كانت سعادتى لا توصف وأنا أعود الى ظهر ناقتى وأبتعد عن حياة الصخب والضجيج فى ظفار الى هذه الآفاق الواسعة الهادئة ، ولم يكن المرافقون حتى تلك اللحظة قد شرعوا فى الغناء كما كان يفعل زملاؤهم فى رحلتى السابقة . ولقد تذكرت فى تلك اللحظة حداء الإبل الذى كنت أسمعه فى عمان ، وكان سهيل هو الشخص الوحيد الذى يغنى بين رجال القافلة ، ومع ذلك فقد كان جميع المرافقين ظرفاء مرحين وان كانت أحاديثهم تنحصر فى الجمال والبنادق والنساء ، فالوجوم الذى يخيم عادة على المجالس الأوروبية ويعتبر من تقاليدها لا وجود له فى تلك المناطق على الاطلاق . فلقد كان البدو كأطفال المدارس فى تصرفاتهم حيث يتبادلون الفكاهات والنوادر فيما بينهم ، ولم يكونوا يخجلون حتى من ذكر شئونهم الخاصة .

كان «قرن الشيبة» — وهو المكان الذى خيمنا فيه للمبيت — عبارة عن تل مخروطى الشكل على الناحية الشمالية من ضفة وادى صعطان . وقد سبقنا أنا وسهيل الى النزول الى الوادى عبر طريق مكتظ بأشجار السمر ، وقد أقمنا مخيمنا فى ذلك المكان ثم انضم الينا بقية المرافقين الذين حضروا الينا مشيا على الأقدام ، وبعد قليل كان الجميع قد فرغوا من اناخة الجمال وبدأوا يشعلون النار ، ولما كانت منطقة الشصر لا تبعد عنا أكثر من مسيرة أربعة أيام ، ولما لم تكن هناك عيون للماء على الطريق فيما عدا « عين هنون » القريبة منا ، فقد كان أن يتعين علينا التزود من الماء بما يكفينا استعدادا للرحلة القادمة .

وبعد صلاة الصبح تفرق البدو لتجهيز جمالهم والاستعداد للرحلة الى « هنون » وبعد أن سرنا ساعتين شرقا عبر تلال جرداء ، وصلنا الى « تل هنون » والذى يواجهه من الناحية الأخرى تل « أرداف » الثلاثى الشكل .

وفى هذه المنطقة شاهدنا فتحة من الصخور البللورية ومنها هبطنا عبر ممرات بيضاء الى أحد الوديان الخضراء والذى يقع على انخفاض ١٥٠ قدما

تحتنا ، وكانت الطبقات العليا من الوادى تتغير من منطقة الى اخرى بحيث تكونت منها كهوف طويلة منخفضة ، وكان هذا هو وادى « غبرتان » • والذى يتصل بهادى « ركبيت » • ثم يكوّن الاثنان واديا كبيرا على الجهة الشمالية من بحر الرمال •• وعند منبع ذلك الماء وقفت ألقى نظرة على ضفاف وادى « هنون » وتذكرت وقتها الحكايات التى يتناقلها البدو فى اطراء هذه المنطقة وجمالها •

وكان البدو يقولون عن هذا الماء أنه ماء عذب ، غير أننى وجدته على العكس من ذلك ماء ملحا ، وتساءلت ماذا ستكون إذاً مياه منطقة الرمال التى كان البدو يقولون عنها إنها مياه مالحة ، خاصة وانه لم يكن هناك ماء فى تلك المنطقة أحلى من ماء « هنون » •• وتبين لى أن كل تلك التسميات كانت نسبية ؛ ولكن لابد للانسان أن يقنع بالماء الذى يجده ، ومما لاشك فيه أن عين هنون كانت تعتبر عين مياه حلوة فى تقدير البدو وقد تذكرت منطقة شبيهة بها فى «سيدون » •• وكانت منطقة جافة ولكن وصفها بعض البدو بأنها من أفضل المناطق لإقامة المخيمات • وكان هذا الوصف حقيقيا • وان كان مضحكا ولقد تذكرت المثل العربى الذى يقول « حمارى ولا حصـــان غـــــيرى » ••

وكان الوادى الصغير الذى يتجه الى « غبرتان » يسمى (بامزغيف) وفيها أحد المقابر التى دفعنى الفضول الى اكتشافها لأنها كانت تشير الى وجود بعض الآثار فى ذلك المكان من النوع الذى اكتشفته سابقا فى هذا الحزام من مناطق زراعة اللبان والتى لم تكن تبعد سوى بضعة أميال الى الشرق •

وكانت المقبرة عبارة عن مجموعة من الآثار التى تحمل فى بعض نواحيها كتابات من المحتمل أنها مخطوطات حبشية ؛ مما يســاعد على الاستنباط بأنه كانت هناك صلة قديمة بين لهجة سكان الجنوب الأوسط لشبه الجزيرة

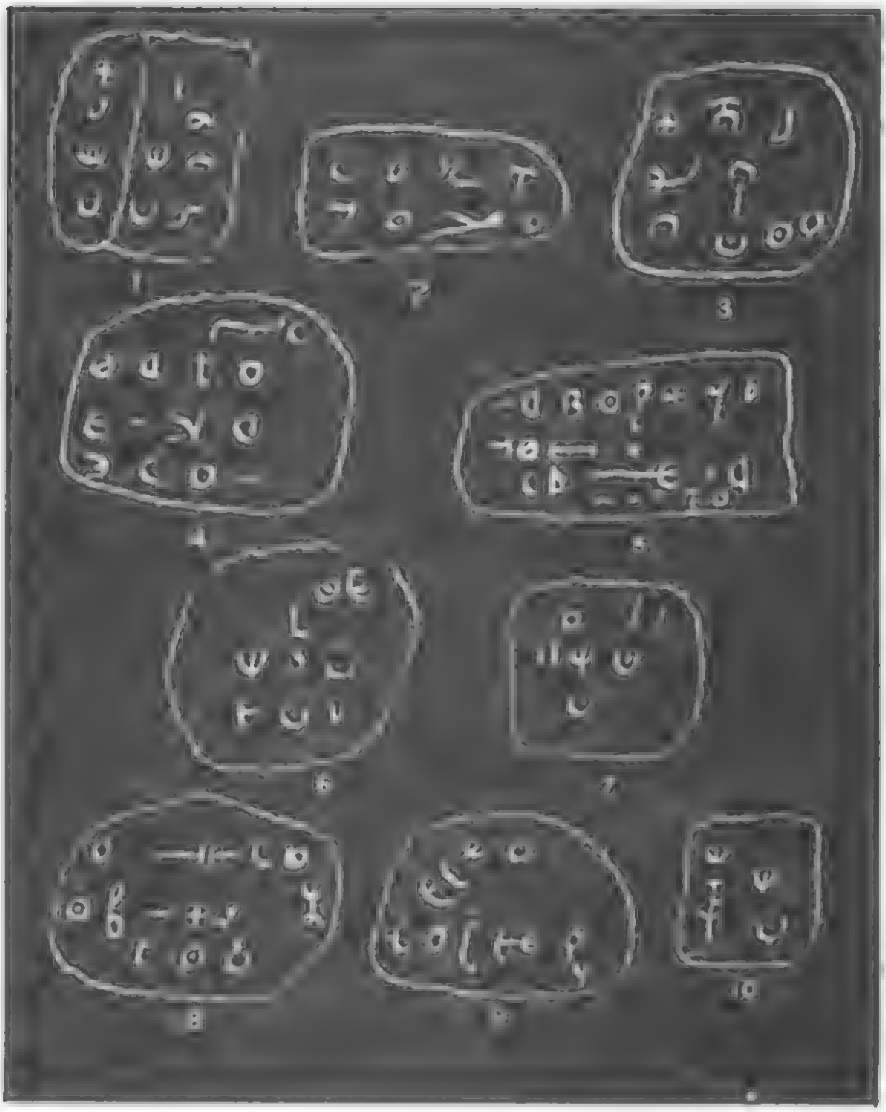

(خطوط وجدت فى عدة أودية . تشبه فى أشكال زخرفية على الصخور)

العربية وبين اللغة الحبشية ، أما « بامزغيف » فقد خيبت أملى لأنى لم أعثر هناك على أية كتابات على الشواهد العديدة التى كانت فيها والتى كانت فى أقصى حالات الاندثار •

كما كان هناك نوع آخر أكثر دقة اكتشفت مثله فى مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية ، وكان يتكون من تركيب ثلاثى ، بمعنى أنه كان يتكون من ثلاث كتل حجرية عارية ومستطيلة الشكل وجنادل قائمة يبلغ ارتفاع كل منها نحو ثمانية عشر قدما وتقوم على قواعد ، وهى مسقوفة من الداخل وذلك ضمانا لثباتها على الأرض • وكانت هذه الثلاثيات مركبة على خط مستقيم كل عمود منها يبعد عن الآخر بمقدار خطوة ونصف ، وفى بعض المواضع كانت الثلاثيات مغطاه بطبقة من الحصى البيضاوى الشكل : وكان عدد كل مجموعة من تلك الثلاثيات يتراوح ما بين خمس وسبع وتسع كتل ، وكذلك احدى عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة كتلة ، وبمحاذاة كل مجموعة منها وعلى بعد ثلاث خطوات تقريبا تقوم سلسلة أخرى من الأعمدة الصخرية المخروطية الشكل تشبه ذلك النوع الذى اكتشفته فى مكان آخر من تلك المناطق ، وكان المواطنون يشوون اللحم عليها •

وربما كان لتلك الثلاثيات أهمية بالنسبة لاجراء الطقوس وتقديم القرابين ، أما الثلاثيات الأصغر من تلك المجموعة فلم تكن عليها تلك الحجارة بينما الصفوف الطويلة عليها تلك الحجارة ، وفيما بين الثلاثيات والأعمدة شاهدت جنادل مربعة الشكل صغيرة لعلها كانت تستخدم كمقاعد ولم يكن لتلك الآثار طابع مشترك ، ولعل الصفة الوحيدة الغالبة عليها أنها جميعا كانت تقع على ضفاف الأنهار وبمحاذاة مجاريها ، ولكنى لم أجد عليها كتابات مما يدل على أن الكتابات قد انمحت ربما لأنها كانت مكتوبة بالجير •

أما الجنادل المكتوبة فقد عثرنا عليها فى منطقة الآثار بوادى «نضور»•

غير أننى فى وادى « دكور » وجدت تلك الجنادل مركبة فوق الثلاثيات تغطاء لها • وكانت الكتابات على العموم بحروف متفرقة يبلغ طولها بوصه ونصف وقد كتبت بطريقة بدائية مما يدل على أن الأداة التى استخدمت فى كتابتها كانت حجرا مسنونا . ونظرا لتآكل الألواح فان معظم الكتابات كانت غير واضحة فيما عدا واحدا منها •• ولعل الأسباب كانت الصور التى التقطناها سواء بالكاميرا أو بطريقه الضغط كانت غير واضحة • غير أننى استطعت أن أستنتج أفضل المجموعات من تلك الكتابات بالكامل ولقد حالت وسائل النقل دون احضار أكثر من عينه واحده من تلك الأحجار وكانت تحمل على ظهر جمل . وقد أهديت تلك النوع الى المتحف البريطانى •

كما اكتشفت آثارا أخرى فى المناطق التالية : سراب . العينين ، الرغيف ، الحرضى . نضور (تحت ممر الخنجرى) ــ الداغوب . ديكور . بامزغيف . وبالقرب من العيون •• وأغلبية تلك النقوش والكتابات توجد فى وادى ديكور •• ووادى الداغوب . وهى توجد على هيئة صفوف الى جانب بعضها البعض ومن المحتمل جدا أن تكون تلك شواهد لبعض القبور ولم استنتج ذلك الرأى من منظر الشواهد فحسب وانما من كثرتها فى الوادى المذكور وهو الوادى الذى لايزال أهله يحتفظون بتقاليد الدفن تلك • كما اتضح لى ذلك من المقبرة التى بنيت فى عهد قريب ثم من المقبرتين اللتين يرجع تاريخهما الى ما قبل الاسلام أو على الأقل من الأطرزة غير الشرقية من المقابر التى رأيتها . وأعنى بها المقابر المبنية من الصخور والعجيب أن السكان لم يكونوا يعرفون بأن الرموز التى على الشواهد كانت كتابات كما لم يكونوا يعرفون شيئا عن أصلها ، هذا على الرغم من أنهم ينسبون تلك الآثار الى ناقة سيدنا صالح بن هــود •

وفى منطقة « الكثيب » فى الغرب يطلقون على هذه الشواهد « بيت أبى غســان » نسبه الى بنى غسان . كما جــاء ذلك فى قصة الغساسنة للبطليموس • وبالطبع فهناك أسرة غسانية فى ظفار نزحت اليها بعــد

(نصب تذكارية ثلاثية المظهر)

الاسلام وبقيت فيها . غير أن الطريقة التى أقيمت بها تلك الشواهد تدل على أنها تمتد الى ما بعد حدود ظفار ، واذا حكمنا على تلك الشواهد من الكتابات التى عليها والتى يرجع تاريخها الى ما قبل العصر العربى فان طابعها غير الاسلامى يشير الى أنها تنتمى الى العصر الجاهلى .

ان الديانه القديمة لسكان جنوب غرب شبه الجزيرة العربيه ، هى عبادة النجوم التى أدخلها الصابئون . ومن هنا يجوز الاعتقـــاد بأن نظام الثلاثيات الذى أشرنا اليه آنفـــا رمز لثالوث العربى القديم وهو اله الشمس والقمر والزهرة والأخيرة هى فينوس العرب .

كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، ولمـــا كنت حريصـــــا على استئناف الرحلة بأسرع ما يمكن فقد حثثت المرافقين على أن يستعدوا للتحـــرك بعد أن يتزودوا بكفايتهم من الماء . وعلى الرغم من أنهم سمعوا ندائى الا أننى لم أكن أتوقع أن يسرعوا الى ذلك . وكان من عادتهم التباطوء عند عيون المـــاء وعلى الأخص وأن عين الماء الثانية كانت بعيدة من المخيم مما جعلنى أستسلم بحكم التجربة لتلك العادة .

أما الشيخ صالح فلم يتزود بشىء من الماء من ذلك المكان فلقد كان من المقرر أن يسبقنا فى الخروج من أجل الترتيب لمجموعة أخرى من الجمال ومن أجل استطلاع أخبار الطريق وكان المرافقون يفكرون فى الإتفاق على دليل آخر من منطقة الدكاكة من آل مرة ليكون فى انتظارنا عند خور الدحية حيث كنت قد عزمت على قضاء أيام عيد الميلاد هناك ، وكان ذلك اليوم هو الثالث عشر لبدء الرحلة ، وقد اقترح صالح ألا نسير عن طريق الشصر لوعورته وخلوه من الزروع والماء وبالتالى لم يكن ذلك الطريق يصـــلح للجمال البطيئة السير غير المحملة بشىء

وكنا سنتزود بالماء من عين « مشديد » وهى من الآبار العميقة فى

منطقه « غيدون » كما أن النزول الى تلك البئر التى يبلغ غورها ستة وثلاثين قدما لابد وأن تتم على مراحل . وثمة اعتقاد بين السكان عن تلك البئر مؤداه أنها قد تكونت من سقوط أحد الشهب • وأنه لم يقم أحد بحفرها • ولكنى لا أستطيع أن أقطع ما اذا كان ذلك الاعتقاد من بقايا عهد عبادة النجوم فى تلك المنطقة • ولكنى عرفت بوجود ذلك الاعتقاد فى أجزاء أخرى من جنوب الجزيرة العربية . وهكذا فان مثل هذه الاعتقادات ملموسة فى كل المناطق الرملية الواقعة ضمن مناطق (غانم وجده الحراسيس) . حيث توجد آبار وعيون ترتبط بمثل هذه الخرافات • وكذلك المنحدر المائى فى منطقه « بجير » فى بلاد البطحرة يعزى وجوده وبدرجة أقوى الى نفس الأسباب •

وهكذا غادر الشيخ صالح ومعه احتياطى من الدقيق والتمر الذى سوف نحتاج اليه فى الطريق ، كما سلمته عباءة لتقديمها هدية الى شيخ قبائل مرة الذى كان يمارس نفوذا واسعا . وبعد أن أقيمت صلاة المغرب وعند منتصف الرحلة من موارد المياه تحركت القافلة وكان ذلك فى نحو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر •

وسرعان ما تركنا منطقة سعطان وأخذنا نسير فى اتجاه الشمال الغربى وهو الطريق الذى كان سيؤدى بنا الى منطقة تتوسط وادى غيدون والدوكة • والطريق الأول منخفض ، فيه كثير من المرتفعات المنبسطة والكثبان الرمليه الحجر • وفى طريقنا تقع « أمستاح » وهى فرع من وادى الدوكة المكتظ بأشجار السمر والنخيل بحيث اضطررنا أن نسير فيه ببطء شديد . ثم عبرنا سلسلة أخرى من التلال ثم توقفنا هناك للمبيت ، وكان بعض الجمال عند وصولها تحمل بعض أوراق النخيل فوق ظهورها وكان البدو قد أحضروها لتقديمها الى نسائهم ليصنعن منها أوعية لحفظ اللبن كما يصنع الرجال منها الأحبال والأكياس • وقد ذكر أحد البدو بأنه سوف يصنع مقودا لناقته منها ، بحيث عندما نستأنف الرحلة يكون عنده مقود جديد •

كانت الرياح الجنوبية التى ظلت تهب على المنطقة فى تلك الليلة معكسة لقراءات أجهزة الرصد . لأن هبوب الرياح يؤثر على السائل الزئبقى فى أجهزة الرصد . فلا تؤدى عملها ولذلك لم يكن فى الامكان تحديد مواقع النجوم على المؤشر . وبالتالى تعذر علىّ تحديد مواقعنا فى تلك المناطق المنخفضة . وكان مركز القطب قريبا الى الناحية الشمالية من الأفق .

ولهذا كان لابد لى لتحديد المواقع أن أقف بعيدا جدا من المكان الذى كنا فيه . ولحل هذه المشكلة كنت أصطحب معى طاولة أضع عليها تلك الأجهزة عند استعمالها فى الليل . أما بقية الأجهزة فقد كنت أخفيها حتى لا يعتقد البدو أنها أجهزة أزاول بها أعمال السحر . وكانت الأجهزة تبقى فى صناديقها فى النهار ولا أخرجها الا فى الليل .

وكانت عملية رصد النجم القطبى وارتفاعات الكواكب خلال النهار وسيلة لمراجعة مواقعنا من يوم الى آخر وقد حرصت منذ البداية على ضمان سرية هذا العمل . على عكس المرافقين الذين كان شبح الأعداء والأخطار تطارد أفكارهم باستمرار ، فقد كنت أختار مكانا على بعد ثلاثين أو أربعين ياردة من المخيم ، وفى ذلك المكان يتولى خادمى اعداد السرير وفتح الصناديق بينما أتعمد أنا تبادل الأحاديث مع الزملاء الى أن يحين وقت النوم .

وكان من بين واجبات خادمى أن يمنع أى فرد من المرافقين من الدخول الى الخيمة ، وقد جرت العادة على أن تحفظ كل هذه الأجهزة فى صناديقها كل صباح عند القيام بالرحلة ثم يعاد فتحها فى الخيمة ليلا ، كما كان من عادتى بعد أن أخلو الى الراحة بعد كل مسيرة أن أقوم بعملية تسجيل القراءات ومقارنتها ، كما كنت أجرب الأجهزة كل صباح لأتأكد من صلاحيتها للعمل ولاستخلاص نتائج القراءات وفقا للتوقيت فى لندن « جرينتش » ، أما درجات الارتفاع والحرارة فكان يتم تسجيلها بالأجهزة الأخرى عند الشروق وبعد الغروب ثم مرتين أو ثلاث مرات فى أثناء الليل .

وكان يبدو أن بعض المرافقين لم يكن قد رأى ساعة فى حياته وكانوا يدهشـــون للغاية عندما كانوا يضعون أذانهم على وجه الكرونومتر ويسمعون دقاته وكانوا يبتسمون تعبيرا عن الدهشة والاعجاب . ثم ينظر أحدهم الى الآخر فى حيرة تامة بعد ذلك يرددون عبارة « لا إله إلا الله » تعبيرا عن تلك الدهشـــة .

وكانوا يطلقون على أى جهاز يرونه اسم ساعة .. صحيح أن البوصلة التى كنت أخرجها بين كل دقيقة وأخرى لتحديد الاتجاهات وقراءة المساحات الطبوغرافية كانوا قد تعودوا عليها غير أن الأجهزة التى كانت تدق أو تحدث أصواتا فقد كانوا يسمونها ساعة وذات يوم عندما توقفت فى احـــدى المناطق لتغيير طاقم الجمال . اقترب أحد البدو المرافقين وأمسك بمقياس الحرارة ووضعه على اذن أحد زملائه ولكن زميله لم يثر اهتمامه ذلك الجهاز فأخذه بيده ووضعه على أذنه كأنما ظن أن فى الأمر خدعة ما .

بعد مسيرة ثلاث ساعات توقفنا . ولكن أحد المرافقين نبه الى أن بعض رجال القافلة لم يحل منذ الليلة الماضية . وكان هذا شيئا مفهوما لأننا كنا نسير فى مناطق كثيفة المراعى . بينما المكان الذى كنا نتجه اليه هو « الشصر » منطقة قاحلة ليس فيها ماء ولا عشب . ولمـــا كنت حريصا على أن نصل منطقة الرمل فى أقل وقت ممكن فقد اقترحت على رجال القافلة بأن نسرع فى السير ، على أن اقتراحى لم يقابل بالتأييد .

ان المسافر فى الصحراء يكتشف على الفور بأن حياة الجمل هى أهم من كل شىء وأن السير أو التوقف يعتمد على نوعية المراعى التى يعثر عليها المسافرون وعلى الطعام أو العشب الذى تأكله الجمال . والذى هو أهم حتى من المـــاء لأن الجمـــل فى استطاعته أن يعيش أسبوعا كاملا بدون مـــاء . وأن الفـــرد الأوروبى المتعـــود على النظـــام وعلى برمجـــة رحلاته لا يستطيع بهذا المقياس أن يعتمد على هذا الوضع ، إن أبنـــاء

الصحارى والمناطق القاحلة يخضعون كل شيء لمصلحة الجمل وصحته وحياته .. ان البدوى ليس من طبيعته أن يبارح منطقة فيها المـاء والمراعى ، فهو اذا وجد مثل هذه المنطقة فسوف يتشبث بها حتى ولو كان ذلك أثناء النهار والطقس حارا ، وعلى العكس من ذلك فى المناطق التى تخلو من الماء والمرعى ، فانه يواصل سفره حتى ولو كان فى أشد حالات التعب والارهاق من عنـاء الرحلة .

لهذه الأسباب فقد كان يوما سيئا بالنسبه لى ، حين اضطررت الى التوقف فى منتصف مبعد عن مخيم انيله السابقه بنحو سبعه او ثمانيه أميال . وبمجرد الوصول الى ذلك المكان حملت بندقيتى وتوجهت الى الغابة . وقد لاحظت آثار ذئاب وثعالب وغزلان . ولم يتكشف المساء عن أى من تلك الحيوانات غير أننى فى وادى « غيدون » وكان يبعد عن مكاننا بنحو بضعة أميال الى الغرب وعلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم حيث تكثر أشجار الصفصاف والسمر . استطعت أن اصطاد بقرة وحشية كبيرة وقد حرصت على أن أنزع جلدها لأخذه كعينة للبحوث العلمية لأن بدو تلك المنطقة يتخذون من جلد البقر الوحشى تذكارا كما يصنع صيادو الثعالب من فرائها كساء لبنادقهم . وكان من النادر أن تجد أحدا من المرافقين لى لم يكسُ قاعدة بندقيته بفراء بقرة وحشية أو ظبى ، كما يتخذ البدو من أمعاء الحيوانات غذاء لجمالهم ودواء لهم .

ومن معتقداتهم أنه لا يوجد دواء يعادل ذلك الدواء .. ويعد ذلك من مميزات الحيوانات عند البدو[1] . كما أنهم يصنعون من قرون تلك البقرة

---

(١) .. من المميزات لبقر الوحش جلدها . كما يستعمل دمها لدواء لدغة الثعبان ، واما مياه الأمعاء فتستعمل كدواء للمفاصل ، ولحمه عندهم مفضل على لحم سائر الحيوانات ولو ان لديهم اسبابا لتلك المعتقدات . فاربما اذا اصطادوا واحدا منه يكونون فى غاية الجوع فيلتهمون لحمه بشراهة . وعلى الرغم من أن البدو يشربون الماء بكميات قليلة الا انهم اذا عثروا على بقرة وحشية فانهم يأكلونها بشراهة ولهذا السبب فان معظم الذين اكلوا من لحم البقرة الوحشية جاءوا الى يشكون من آلام فى المعدة ويطلبون منى ان اعالجهم .

نوعا من الناى يسمونها ربابه تستعملها فتيات البدو فى جنوب الجزيره العربية . لانهن لا يعرفن الطبل ولا أى نوع من أنواع الآلات الوتريه .

فى ذلك اليوم خرجنا مبكرين وكنا نتجه الى أحد السهول ومنها الى أحد المناطق الرملية الصلبه . وكنا نصادف بين وقت وآخر طبقات متحجره وبارزة من الأرض تعلوها طبقات من الرمال الخفيفه . ثم مررنا بحقول من الكسارة فى مناطق متباعدة . ثم مررنا على مناطق معدده بطبقه من الرمل الحجرية . ولم نجد فى تلك البقعة أثرا لأى حيوان . والحيوانات الوحيـده التى رأيناها هى الثعابين والجعران والسحالى . وقد كانت الأخيره ذات أهمية خاصة بالنسبة الى متحف التاريخ الطبيعى فى انجلترا . لأنها كانت من الأنواع الجديدة التى لم يسبق لباحثين العلميين أن اهتدوا اليهـا . ويسميها البدو أبو قرش بسبب ذيلها المستدير .

ومن هناك واصلنا السير مدة سبع ساعات متواصله قطعنا خلالها ما لا يقل عن ٢١ ميلا تقريبا . وخلال اليومين التاليين من وصولنا الى «الشمر» كنا ندخل متاهات صحراوية شاسعة وحين هبت علينا عاصفة رملية شديده حاملة معها الأتربة لم أر أى أثر لنبات أو زرع فى تلك المنطقة . ولعل الجمال كانت تعلم ذلك فقد أبدت حماسا لمواصلة الرحلة الى أن وصلنا الى صحراء كبيرة وكنا نرى السراب وهو يغطى أرض الصحراء كلها ولم يكن هناك أثر لمـاء على الاطـلاق .

الفصل الحادى عشر

النجود - الحياة على المرتفعات الجبلية

كنا نتوقع أن نصل « الشصر » فى اليوم التالى ، ولم يكن من الغرابه ان أرى على البدو كل هذا الاهتمام بالشصر . لأنها كانت أول عين ماء نصل اليها بعد مسيرة خمسه أيام ، كما أنه لم يكن هناك عين ماء أخرى قبل سبعه أو ثمانيه أيام أخرى . وبعد مسيرة يوم كامل فى تلك الصحراء القاحلـه المحرقة التى لم نر فيها غير السراب . وصلنا عند غروب الشمس الى واحه صغيرة تقع الى الشرق . وعلى أيه حال فان الاقتراب من عين مثل تلك **العيون يجب أن يكون بمنتهى الحذر .**

فاذا كان هناك عدو ، فلن يكون أمامنا سوى خيارين اما التراجع بسرعة متحملين عذاب العطش والخوف من المطاردة . أو الاقتتال لاحتلال العين . وكالعادة فعندما وصلنا الى تلك العين كان الماء عندنا قد نفد . ومن عاده البدوى عند الوصول الى مثل هذه الأماكن أن ينزل من فوق ناقته ويتجول فيه بحثا عن أى عدو محتمل . أو لاقتفاء أثر أى جماعة من جماعات الغزو . وبذلك فبعد وصولنا بقليل خرج ثلاثة من البدو والمرافقين للبحث عن منطقه يحفرونها للبحث عن المـاء .. ولمـا كانت « الشصر » من المناطق غير المأهولة فقد كان من الأفضل بأن نسرع فى التزود بالماء خوفا من أى حدث محتمل . وكان من المعتاد أن تتدخل الطبيعة فى مثل هذه الأحوال فتردم **البئر بعد يوم أو اثنين من حفرها .**

فى اليوم التالى غادرنا ذلك المكان فى مجموعات كل مجموعة من ستة أو ثمانية أفراد وكان من عادة الابل أن تستغرق وقتا طويلا فى الشرب محسوسا من القرب الصغيرة التى كنا نحملها أو من مياه العيون القليلة .

وكان الطريق يمر وسط أحد السهول الواسعة المنبسطة (ومن هنا منايا للمخيم) ، لأنه كان يقع فى واجهة احدى المرتفعات التى كانت بها بقايا قلعة أثرية قديمة . وقد رأينا تحت الأكمة وعلى عمق خمسين قدما فى عند السفح فجوة تتسع بصعوبه لدخول يد انسان وكان وراء الفجوه بيوت ، وهناك أسطورة منتشرة بينهم عن ذلك المكان وهى أن الذى بنى قلعة « الشصر » هو بدر بن طويرق فى العصور القديمه ، وسمعت منهم بأنه يوجد فى السهل الصحراوى المحيط بذلك المكان بقايا مناطق زراعية مما يدل على أنه كانت هناك حياه زراعية فى الماضى فى تلك المناطق . ولكن ذلك الاحتمال لا يتفق والواقع . لأن « الشصر » صحراء قاحلة ووجود الماء نادر فيها لدرجة أن أى غزو قبلى لتلك المنطقة قد لا يستمر أكثر من أسبوع .

وعلى الجانب الشرقى أو بعبارة أدق على ذلك السهل تقع حله الشصر تلك الواحة الصغيرة التى كانت قبل ثلاث سنوات مسرحا لمعارك دمويه بين القبائل المتناحرة وقد اشترك فى تلك الحرب بعض الأفراد البدو المرافقين لى وكانت لتلك الحوادث أهمية بالنسبة لى . فقد كدت أتعرض بنفسى لصدام مع بعض جماعات الغزو فى المنطقة الشرقية التى تقع على بعد مائة ميل من مكاننا . وكانت تلك الجماعة مؤلفة من خمسة وعشرين شخصا كانوا من قبيلتى الكرب والصيعر هاجموا مجموعة صغيرة من قبيلة المهرة كانت تخيم فى عين نضر وخلال المعركة تمكن المغيرون من قتل سبعة من المهره مقابل سقوط واحد منهم وكان القتيل شيخ القبيلة . وقد غنمت القبيلة المغيرة أربعين جملا وبعد مضى أربعه أو خمسة أيام من ذلك الحادث وصلت مجموعة الاستطلاع التابعة لقافلتنا قادمه من الناحيه الشرقيه من منصورة ، بعد أن قطعت مسافة ٦٠٠ ميل ، وعند وصولهم فوجئوا بنبأ ذلك الحدث الذى رواه لهم بعض من اشتركوا فى المعركة وكانوا من قبيلة المشايخ . وخلال الأحاديث التى جرت بيننا فى تلك الليلة ، نبهونا الى عدم الشعل

(مجموعة من الرجال الجبليين)

نار فى أثنـــاء الليل . وقد امتثلنا لذلك التخـــدير على الرغم من شـــدة البرودة .

وقصة ذلك الحادث كما رواها لى أحد شهود العيان تتلخص فى أن فريقا من القبائل التقى مُصادفة بمجموعة من قبيلتى المهرة وبيت كثير ، وكان بينهم اثنـــان من الذين كانوا يرافقوننى فى الرحـــلة وقد صحبنى « نويخر » الى ذلك الموقع الذى دارت فيه تلك المعركة وأخذ يصور لى عمليا كيف وقعت أحداثها وبالمصادفة فانها حدثت فى نفس المكان الذى كنا نخيم فيه وقال اننا أخذنا نتعقب آثار تلك القبيلة طوال اليوم اعتقادا منا أنهم قد يعودون الى نفس المكان ليخيموا فيه لأنه لم تكن توجد عيون ماء فى الجهة الغربية حتى منطقة « ســـناو » . وفى ذلك المكان المكشوف توقفنا للاستراحه حتى صلاة المغرب . وبعد أن تركنا الجمـــال فى عهدة بعض رجالنا رجعنا نزحف على بطوننا فى الظلام نحو مخيم الأعداء وكان الوقت منتصف الليل فوجدناهم يغطون فى النوم واستطعنا أن نراهم بوضوح من خلال أثوابهم المصبوغه فتقدمنا مسافه خمسين خطوة ثم أطلقنا النار عليهم . وفى غمره الفوضى التى تجمعت عن ذلك استللنا حناجرنا وأطبقنا عليهم وقد حقق الله لنا النصر والحمـــد لله الذى يمنـــح بركته لمن يشـــاء . وقد سقط أربعة منهم قتلى واسترجعنا الجمال التى كانوا قد استولوا عليها فى نضور كما استولينا على خمسة من جمالهم ، وبالتالى فان عددا كبيرا من الذين تمكنوا من الفرار قد اضطروا الى الركوب كل اثنين على جمل .

وهنا تدخل أحد البدو مؤيدا لحديث نويخر وقال :فى اليوم الثانى بينما كنت أرعى الابل فى وادى غيدون اكتشفت أن واحدا من أفراد قبيلة الصيعر والذى كان مختبئا طوال الليل يخرج من مخبئه وعندما تقدم نحوى طلب الأمان وأنى لأشهد الله أنه كان أعزل من السلاح ولهذا أعطيته الأمان .

فسألتهم لنفرض أنهم لم يقاتلوكم وألقى الجميع بسلاحهم .. هل كنتم ستمنحونهم الأمان أ فرد نويخر بلنفى . فمادامت هناك حرب قائمه بين قبيلتين فان ذلك يعتبر عملا مخجلا عند العرب .

تقع الشحر على بعد ٩٠ ميلا من الساحل الجنوبى وعلى ارتفاع ٩٣٥ قدما من سطح البحر على حافه مرتفعات بحيث تلامس الرمال . وفى ذلك الوقت كنا على بعد مسيرة يوم واحد منها فقط ، وقد عبرنا هضبه الحدود الجنوبية الواسعة والواقعة بين شاطىء البحر وبحر الرمال الذى يمتد الى الغرب والجنوب الغربى الواقع على حدود نجران ومن الشرق الشمالى شرقا حتى «جدء الحراسيس» وقد سبق لى فى العام الماضى أن قمت برحلة الى المناطق الرملية فى نفس الاتجاه وعلى امتداد نحو مائة ميل حتى واحة مقشن[1] المشهورة وكنت فى هذا العام أنوى أن أعود الى الجهة الغربية لاكتشاف الطرف الجنوبى للوادى ولكنى قبل أن أقوم بسرد مراحل هذه الرحلة فانه يبدو من المناسب أن أعود الى بحث جغرافية المرتفعات الجنوبية فى تلك المنطقة فى شىء من الايجاز :

بالرجوع الى خريطتى تظهر السلسله المتصله بالمرتفعات الساحلية على خطوط الطول ٥١ر٤٠ — ٥٤ر٤٠ والتى تسمى جبل القمر وجبل اثرا وجبل سمحان ومن جانبها الداخلى تتفرع سلسلة من الأودية الأثرية الجافة والتى تكوّن فى مجموعها عددا من الوديان المنتظمة . ويتفرع من الوادى

---

(١) .. يعتبر وادى مقشن من اهم الاوديه فى منطقة جنوبى شرق الجزيرة العربية بلا منازع لأنى لم ار له مثيلا فى تلك المنطقة وهو يتألف من حزام واسع من شجر « السدر » التى يكون منها غابة طولها حوالى ثلاثين ميلا (على محور الشرق — الغرب) على امتداد حافة الجنوب الشرقى للرمال . ويوجد على ضفته الشرقية (وعلى ارتفاع ٤٠٠ قدم) مياه صالحة للشرب تنبع من عين او عينين . وهناك خميلة كبيرة من اشجار النخيل البرية المهملة تمتد على ضفاف ذلك الحزام . وعلى الناحية الشرقية توجد بحيرة يبلغ طولها بضع مئات من الياردات وعرضها نحو ١٥ ياردة .

(شبـــاب من بيت امانى)

الرئيسى سبعه وديان[1] فرعية تمتد على شكل متوازٍ فى الاتجاه الشمالى من سلسله الجبال الساحلية حتى حافة الصحراء ثم تواصل امتدادها حتى تلتقى بواد كبير يمتد على مسار الرمال فى اتجاه نحو الشمال الشرقى . وعند احدى النقط من مساره ينحرف عنها لتصب داخل الرمال عند خط عرض ١٩٫٣٥ درجة وخط طول ٥٤٫٥٠ درجه وعند البقعة التى تلتقى فيها بالرمال تقع واحة مقشن الخصبة .

وترتفع الوديان السبعه بالقرب من ذلك التقاطع بمعدل يصل الى ثلاثه آلاف قدم على امتداد مسيرة يومين من الساحل وتشكل مصادر تلك الأوديه المنطقة التى تتراكم فيها مزارع اللبان . وأسماء هذه الأوديه من شرقها الى غربها كالآتى : قتبيت ، الدوكة ، غيدون ، عيدام ، شحن ، حات .. وتلك الأودية تمتد الى مسيرة تتراوح بين ثمانية [illegible] قتبيت الى أربعة أيام من حات . أما بالنسبة للوادى [illegible] ستة وديان فرعية هى حات وشحين وأثبتا وأم الحياة والأرض ومقشن وذلك فى مساره من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى . ويمكن تسمية هذا النظام باسم « أم الحيـاة » ، والذى يسمى أحد فروعه به .

ومن الجانب الشمالى الغربى تمتد كثبان الرمال الى ما لا نهاية حتى

---

(١) .. تشكل الأوديه الرئيسيه لتلك المنطقه نظاما قائما بذاته . فوادى قتبيت وفقا لتلك القاعدة يرفد عددا من الوديان الفرعيه هى : بضور ، ذهبون ، انجودان ، ورخبيت .. كلها تنصرف على الجزء الشرقى من جبال القرا والجزء الغربى من جبال سمحان . اما الطرف الشرقى لنظام الصرف المذكور والذى يرتفع الى الشمال من قمه جبال مرباط (والذى يسمى فى الخريطه بجبل الدعن) فغير معروف للأهالى بهذا الاسم وانما باسم زبون .. اما وادى الدوكه فهو يرتفع فى مستطيل صلاله ويستقبل الخوف وخرفيت . بينما يرتفع وادى غيدون قليلا الى الغرب من الدوكة ويستقبل حله وظهير وعلوت على ضفته اليمنى وغارة على ضفته الشماليه اما وادى عيدان فيرتفع فى مستطيل رحبوت وبفرعيها الكبيرين دفين وحبروت اللذين يرتفعان الى الشمال من جادب ودمنوت فانهما يصبان بكليتهما فى سلسله جبال القمر . وبخصوص وادى شنين وحات فانهما من الأوديه القصيرة ويرتفعان معا على الأطراف الشرقية والغربية .

تخوم سلطنة الواسر ونجران . والوادي الطرف الجنوبي للربع يلتف حول الوادي الرئيسي في كل من مقنن والأرض . وبعض سلطنة أم الحمام ثم يبتعد عنها من شمال شحن الى مسافة قصيرة جدا . ويمتد السفوح السفلى لمرتفعات الحدود الجنوبية على ذلك النحو وتنتهي الشمال أسفلنا بحيث تنفصل من الجهة الغربية ثم تمتد بعد ذلك الى الاتساع حتى خط طول ٥١ر٣٠ درجة أو أكثر من ذلك الاتساع .

والى الغرب من أم الحياة على الحدود تقسم أوديه هوازنه الربع في جبل حضرموت ثم الى الشمال حتى تنتهي في أطراف منطقة الربع . وأسماء تلك الأوديه التي تبدأ من غرب ثم الجهة هي : مينان ، خوات ، شعيب أرخوت ، عربوت ، ثمريت ، الدحنة ، الاساف ، رأس أبوات ، المناهل ، جناب خضرا ، خضر ، أبوات الصغير ، وحدى .. ومن المناهل العامرة على عيون ماء في منطقة سنا بوادي الدحنة . وتوجد بوادي رمثه . وبسم بوادي ضرار . ومنواح بوادي أبوب الصغير ، وبالشمالي قليل طرق الغزو من شرق وغرب وادي منداخ محفوفة بالأخطار .

أما في المنابع الجبلية للواديين فتوجد في أندهور وحبروت ميه جارية . غير أن مجاريها السفلى جافة جدا . وهكذا فهي تزداد اتساعا وضحالة ورمالا كلما استمرت في مسارها نحو الشمال الى أن تفقد مجاريها على السهل القريب من الرمال . ولا يمكن تمييزها الا بتلك الشريطة من الأحراش الجافة . أما في المرتفعات فانها تعتبر مرتبان الحياة . كما أنها طرق تحركات البدو . فضلا عن أنها مرتع للحيوانات الموجود العشب فيه بندهر على ضفافها رغم ضآلته (انظر ملحق ٤) . أما فيما عدا تلك الأجزاء من المرتفعات فمحلة وجرداء . ولهذا فليس في وسع المناطق أن تكون مصدر عيش لغير البدو الرحل وعند جفاف تلك الأودية في فصول الصيف ينتقل البدو من المناطق الجبلية بالقرب من عيون الماء في أندهور وهنون وشوبرة وحبروت (التي تقع على حدود أم الحياة) ولكن ما ان ينزل المطر حتى يعودوا اليها شهرا أو شهرين في المناطق التي تناسبهم مسترشدين بنذران ومصدر البرق .. أنها حياة العطش والجوع .

(انواع من النخيل البرى فى احدى الغابات)

أما من كان يقطن منهم فى ظفار فيقضون فصل الصيف فى مزارع اللبان حيث الاقامة مريحة وحيث يتمكنون من شراء ما يحتاجون اليه من السلع والأغذية كالأسلحة والأرز والبن وذلك من حصيلة بيع اللبان • غير أن رجل البادية الحقيقى يحتقر مثل تلك الحياة ويرى فى حياة الصحراء المثل الأعلى للعيش حيث يعيش عموما على لبن الناقة مسترخصا فى سبيل تلك الحياة كل شىء كما ان الغزو والغارات القبلية بالنسبة اليه هى ملح الحيـــاة • ولم أجد بين الجماعة الذين رافقونى فى تلك الرحلة من لم يشترك فى غارة من تلك الغارات على حضرموت أو لم يتعرض موطنه أو مرعاه الى غارة مضـــادة • ورأيت فى أجسام بعضهم ندوبا وعلامات لنصـــال الخناجر أو رصاص البنادق وهم يفخرون بتلك العلامات • ومن ثم فان السلاح والقتال والجمل هى دعائم القانون بالنسبة اليهم كما ان الأحقاد القبلية المتوارثة تمزق شملهم حيث القوة فوق القانون وحيث يتحرك كل فرد وسيف الخوف على حياته وممتلكاته مسلط فوق رأسه •

والقبائل البارزة التى تستوطن الحدود الجنوبية من الشرق الى الغرب هى **بيت كثير ، المهرة ، المناذل ، العوامر ، الصيعر ، النهد** ، أما المهرة فهى أكبر تلك القبائل اذ يصل تعدادها الى الالآف ، بينما نهد وكرب[1] أصغرها جميعا اذ لا يزيد عدد كل منها على مائة أو مائتين •

---

(١) .. ان التقسيمات القبلية فى هذه المناطق هى كالآتى : فى منطقة أم الحياة تقيم قبيلتا المهرة وبيت كثير ، وقد تمتد منطقتهما الى الغرب . ومن الضفاف السفلى بالوادى وهى الدوكة وغيدون وعيدان وحياة تخص بيت كثير ، هذا على الرغم من أن المهرة يستخدمونها فى حرية تامة ، اما المنابع العليا للأودية (باستثناء غبدون) فهى فى الغالب فى يد المهرة وعلى الأخص حبروت وغزال وانحودان ، والدهيون ، هذا بالاضافة الى الأودية الفرعية الواقعة مباشرة الى الغرب ، كما ان هناك عددا من القبائل الصغيرة التى تنتمى الى الحضر ، وهى من أصل غير عربى تنتشر بين قبيلتى المهرة وبيت كثير ، وهكذا فعلى الجانب الغربى من وادى الحياة وفى منابعة السفلية تقيم قبيلة بلحاف . وهى قبيلة غريبة لا يعرف اسمها ولا تدين بالولاء لأى فريق وان كانت تتحدث لغة المهرة ، =

ان الحياة فى تلك المنحدرات بدائية الى أقصى الحدود . وكما أشرت آنفا . فان الجفاف وخطر الغارات يدفع بتلك القبائل الى مناطق المياه الجبلية وان كانت فى قرارة نفوسها تفضل البقاء بالمناطق الصحراوية . وعند حلول موسم الأمطار تراهم يخرجون بمواشيهم وأمتعتهم الى الصحراء حيث لكل بئر مياه اسم وذكريات يعتزون بها ويمكثون فى تلك المناطق الى أن يعود الجفاف اليها .. والواقع انه لا يوجد فى تلك المناطق الصحراوية ما فيه الكفاية من المياه وسبل العيش كما أنهم لا يعرفون البيوت أو الخيام ، وفى المنحدرات فانهم يأوون تحت أشجارهم ، وفى الجبال يقيمون فى كهوفها وكل أولئك السكان أميون . وقليل منهم يقرأ القرآن رغم أنهم يواظبون على أداء الصلوات ، وهم لا يقربون المشروبات الكحولية وان كانوا يدخنون . وهم ينتمون الى المذهب الشافعى ويؤمنون بالأولياء . كما أن تعدد الزوجات وكثرة الطلاق التى يشتهر بها العرب غير موجودة عندهم وهم لا يجمعون بين زوجتين الا نادرا على الرغم من كثرة انجابهم للأطفال . وتربية الماشية هى من أعمال النساء وان كان غير مسموح لهن بحلبها .

ومن مميزات افراد هذه القبيلة انهم يحملون سكينا بدلا من الخنجر وهى لا تغير على احد ولا احد يغير عليها ولا تدين بأى ثأر لأى قبيلة شأنها فى ذلك شأن قبيلة سلوب فى نجد .. ووليها هو الجوهرى فى منطقة (ام الطباخ) وهو الضريح الذى يزوره المهرة ويقدمون له القرابين والأضحية وفى الطرف الشمالى لأم الحياة يوجد وادى نضور الذى يعتبر موطن قبيلة البطاحرة (بيت بحمور) هذا على الرغم ان قبيلة المهرة تستوطن هذه المنطقة ايضا . ان قبيلة البطاحرة وهى من مستوى ادنى ويهددها الانقراض ومعظم افرادها يزاولون مهنة الصيد ولهم لغة خاصة بهم . كانوا فى الماضى هم السكان الرئيسيون للمنحدرات الشرقية برمتها ابتداء من وادى غيدون (التابع لبيت كثير) الى وادى كادون التابع للحراسيس .. بينما الطرف الغربى منه يعرف بأنه كان موطن قبيلة دربوت الخرافية وهناك عناصر من قبيلة صغيرة اخرى وهى عفار تستوطن بالاشتراك مع المهرة والمشايخ (بيت اسبيت) ويسمى احيانا (انشحت) منطقة حيروت ويقال انها ترتبط بنسب الى قبيلة الشحرة وهى تستوطن وادى « انغدوم » بالقرب من عين هنون والى الغرب من ام الحياة يمتد مواطن قبيلة المهرة الى وادى رامة والمناهيل الى وادى الجوف ؛ أما العوامر فيمتد مواطنها الى وادى الخضرا حيث تبدأ بعد ذلك مواطن قبيلة الصيعر .

منظر لأعالى الحد الوديان

أما تسوية المنازعات فى تلك المناطق فتتم عن طريق التحكيم حسب اصطلاحهم (حكم العوض) ، الذى هو مجموعة القوانين المحلية ، وهى طبعا غير قوانين الشريعة الاسلامية أما السرقات الصغيرة فنادرة الحدوث وتعتبر عندهم من الأعمال المنافية لقيمهم الأخلاقية وذلك على نقيض عمليات السلب والنهب التى تتم عن طريق القوة وتعتبر من أعمال الرجولة شأنها شأن الغارات القبلية التى تشنها القبائل بعضها على البعض فهم ينظرون اليها نظرة تقدير واحترام كما تنظر الشعوب الأوربية الى الحروب .

والأعشاب هى وسيلة العلاج عندهم (انظر الملحق الرابع) ثم الكى والرقية بالبخور والتعاويذ ، كما تدخل فى قائمة الأدوية أمعاء الحيوانات التى يصطادونها . كذلك فان بول النوق الصغيرة من الأدوية الشائعة عندهم . غير أن الكى يأتى فى الدرجة الأولى من وسائل العلاج .

ويندر أن يوجد بين مواطنى تلك المنطقة من لا يحمل على جسمه أثرا أو ندبا لكىٍ ولقد أتيح لى أن أشهد بنفسى احدى عمليات الكى فظننتها عمليه من عمليات السحر فقد أصيب أحد أفراد قافلتنا بامساك شديد لم ينفع معه كل الأدويه المسهلة وبذلك تعطلت الرحلة ، فقام زملائه باستعمال طريقة **الفويرة** لعلاجه . وقد تمت تلك الطريقة بايلاج مسمار داخل النار الى أن أحمر ثم كوى به الرجل فى سبعة من المواضع فى جسمه : الكعب الأيسر ، والكعب الأيمن . وخلف طبلة الأذن اليمنى . وخلف طبلة الأذن اليسرى ، ووسط الجبين تحت الشعر مباشرة ثم أعلى الرأس وأخيرا فوق السرة .. وقد كان لذلك العلاج مفعول قوى فقد تحركت القافلة صباح اليوم التالى .

أما الاصابة بالعين (الحسد) فتعالج بطريقة أخرى . وقد حضرت مرة

حدى هذه الطرق وكانت تسمى حمراء الرايه[1] وهذه العمليه تستمر على مدى ثلاثه أيام من يوم الاصابه بالمرض مما تستعمل تلك العلاج لدغه الثعبان . وتجرى بأن يقوم أحد أصدقاء المريض المصاب بتعرية الجزء المصاب من جسمه ثم يلفون بأجسامهم عوده وينفون ترفيه بصوت خافت فى البدايه ثم يرفعون أصواتهم تدريجيا ويقوم آخرى بتلاوه التعويذة بصوت مرتفع ثم يردد من وراءه بقية المشتركين عباره واحده (حمراء الرايه) ومن حين الى آخر يخرج أحد المشتركين فى التلاوه ويمسح جسم المريض فوق مكان اللدغ ويشد على الجلد ثم يرفع رأسه فى وجه المريض بيده بصيح الآخرين ثم يبصقون على جسم المريض وهنا تصل العمليه الى ذروتها . كما يجب أن تطلق البنادق بعد نهاية العمليه . غير أن تلك التعويذه لا تستعمل الا لابعد العين (الحسـد) .

لقد حضرت عمليه أخرى بعد تلك العمليه التى لم يكتب لها النجاح والعمليه الثانيه هى نوع من استرضاء أو استحضار الأرواح وتسمى بعمليه (الحبل) . ويمسك المشرف على هذه العمليه بحبل فى يده ثم يجلس على بعد ثلاث خطوات من المريض ويحنى الى شخص اخر الاشراف والامساك بطرف الحبل وبعد أن يقيس المشرف الحبل بذراعه وبساعده ثلاثا ينكس رأسه ويتمتم ببعض كلمات غير مفهومه ثم يتناول حفنه من التراب وينثرها على الحبل وعندما ينتهى يحف للمريض العلاج الآتى : خذ عند غروب الشمس شيئا من التمر والزبد ثم توجه وأنت به فوق الرمال . . هذا بالنسبة للراقى وطريقته فى علاج مرضاه .

أما بالنسبة للحيوانات التى تعيش على المرتفعات الجنوبيه فهى قليله وخلاصة القول أنه نظرا للطبيعة الجافه لتلك المنطقه تنتشر الحيوانات التى

---

[1] . . عند اجراء هذه العمليه يتوسط المشرف الرجل المصاب والمريض . وقد سجلت تلك التلاوة ولكننى لم اترجمها حتى الآن .

فى منتصف الوادى

تعيش فيها الى تكييف حياتها مع طبيعة تلك البيئة الجافة ، والاكتفاء بما تجود به من قطرات الماء فوق الأعشاب أو الصخور ، أما من حيث نوعها الحيوانى فان تلك الحيوانات تنتمى الى المجموعه الثديية .

وكانت بقرة الوحش من الحيوانات الثديية التى اصطدتها وهى من النوع النادر ، كما اصطدت ظبية وثعلبا ، واكتشفت أثناء الرحلة آثار ذئب وقطط متوحشة وغرير ، ولكنى لم أعثر على واحد من تلك الحيوانات فى المرتفعات . أما الريم أو الظبى الأبيض فيعتبر من الحيوانات المنقرضة فى المنطقة . رغم أننى شاهدت زوجا من قرون ذلك الحيوان وكان يشبه القيثارة وعليه خصلة من الشعر لاتزال موجودة ، وعلى عكس الظبى الأحمر . ينتمى الريم فى الواقع الى المناطق الرملية أكثر ما ينتمى الى منطقة المرتفعات ، وكان القنفد الذى اصطدته رملى اللون وصغيرا بالمقارنة بالقنافد الكبيرة السوداء التى تعيش فى عمان .

ويعتقد السكان هناك ان القنفد يهاجم الثعابين ويقتلها ولكنه شديد الخوف من الصقور ، واذا رآه فانه يستسلم له بسهولة . أما الصقور فلم أشاهد أيًا منها فى المرتفعات ، بالرغم أننى كنت أتوقع ان أراه هناك وبدلا منه رأيت نسرا كبيرا أسود وكان ميتا ، ويرى سكان المنطقة فى ظهور النسر أو الصقر نذيرا بغزو محتمل وأما الغربان السود فتوجد بكثرة وقد اصطدت واحدا منها وكان عنقه أبيض اللون ، وقد طلب منى أحد البدو قلب أحد الغربان لكى يأكله لأنه يعتقد أن فيه بعض الفوائد وهم يستعملون قناة الغراب الصفراوية كحلا للعين ، وهذا الاعتقاد ينتشر بكثرة بين سكان المدن ، أما البومة فلم أرها قط وان كنت أسمع صوتها كل ليلة وأنا فى مقشـــن .

وقد أخبرنى أحد المرافقين أنهم اصطادوا نعامة منذ بضع سنوات ولكن النعام لم يعد له وجود بعد ذلك فى تلك المناطق (فيما عدا منطقة قبيلة الصيعر

الواقعة فى الغـرب) هذا برغم أننى وجدت بقـايا متحجرة لبيض النعام ، ويرجع سبب انقراض النعامة فى المرتفعـات الجنوبية الى كثرة اصطيادها .

ومن الطيور التى اصطدتها عصفور من أندر العصافير ، وكان يمثل أهمية علمية ، أما البلبل والحميراء فإنهما من الطيور التى يراها الانسان كثيرا فى تلك المنطقة ، أما طائر الزعرة واللقلق وغيرهما من الطيور فانها من الطيور التى تهاجر فى فصل الشتاء الى افريقيا أو حضرموت .

كذلك جمعت عينات من الفراش والخفافيش والعناكب والنمل (انظر الملحق الثانى من الكتاب) وقد اصطاد أحد البدو عقربا كبيرا غير سـام وكان يمسك به من ذيله . أما الزواحف فقد شاهدت ثلاثة أنواع منهـا أحدهما الأفعى السامة ذات القرون ، عدا ما شاهدته من السحالى التى لا يقل عدد أنواعها عن عشرة منها ثلاثة عينات جديدة الى جانب العينات العادية من النوع الذى يؤكل ويعتبره أهل المنطقة من أشهى الأطعمة . بل يفضلونه فى الأكل على الحيوانات الثديية ، وقد طاردت أحد تلك السحالى وكانت مطاردة مثيرة جدا عندما اختفت السحلية فى أحد الثقوب فقام بعض البدو المرافقين بالحفر حول المنطقة التى اختفت فيها وفجأة ظهر ذيلهـا فأمسك به مرافق آخر وجذبها من الثقب ، ثم أمسكها رافعا ذيلها الى أعلى ورأسها الى أسفل وكانت عيناها تتحركان بوحشية وفكها مفتوحا وأخذ البدو يجرونها على ظهرها ولكن السحلية قفزت نحو البدوى وعضته فى ركبته فى محاولة منها للهرب ، وقد جاء البدوى بعد ذلك لأعالجه ولكنى بعد أن أدركت قصده ناولته ريالا فعاد وكأنه لا يشكو شيئا .

كذلك شاهدت نوعا آخر من هذه الزواحف يسمونه (شويرة الشمس)

وهو لا يؤكل وقد سمى بهذا الاسم لتفضيله للبقاء فى المناطق الساخنة موليا وجهه للشمس وكان كبير الحجم وله ذيل أحمر وبشرة ناعمة وله كيس أزرق اللون تحت الذقن وبعد موت ذلك الحيوان يتلون ذلك الكيس ويصبح فضيا وكان ذلك الحيوان هو الحيوان الوحيد من الأنواع التى تعيش فى المرتفعات التى شاهدتها والتى تخشى ضوء الشمس .

الفصل الثانى عشر

استئناف الرحلة على الطرف الجنوبى للرمال

ودّعنا واحه مفينيح الواقعة على ضفه وادى عيدون بعد أن أمضينا فيها ليلتين نستريح من متاعب الرحلة . ومن أجل أن ترعى الجمال وتتزود من الماء من منطقة الشحر التى كانت قريبه منا . وفى الصباح البكر من شهر ديسمبر ومن تلك المنطقة التى كانت سماؤها فى تلك اللحظة تتألق بالألوان الذهبية والقرمزية بارحنا مخيمنا فى طريقنا الى سهل مقفر ذكرنى بأرض النيلين .

وما كدنا نسير بعض المسافات حتى سمعت المرافقين يصيحون صياحا مثيرا : الرمل .. الرمل ، ثم أخذوا يشيرون بعصيهم الى الأمام . وعندما سرحت ببصرى فى الأفق البعيد لمحت شريطا أصفر ثم أخذت أنظر بشوق إلى تلك الكثبان التى عشت حياتى أعشقها وأمنى نفسى برؤيتها وكان يفصل بيننا وبين الرمال سهل موحش لا يغير من رتابته سوى بعض النتوءات البيضاء التى تكون سلسلة التلال الصخرية المنخفضة وهى **دم الحملة** ، **ثويرب** ، **لحجة** ، **قارون كلبه** . وهى مناطق لها منزلتها عند البدو لأن فيها تتجمع مياه الأمطار .

وكان يمتد أمامنا والى مسافة مائة ميل متاهات خطيرة لا حصر لهـا ونظرا لوجود حالة حرب بين القبيلة التى كان أفرادها يرافقوننى وبين قبيلة قوية من جاراتها . فقد أصبحت رحلتى محفوفة بالأخطار . لقد شهدت تلك المنطقة ولسوف تشهد دائما صراعات دموية تنشب على حدودها الجنوبية لكونها مناطق مشاع لا تخضع لسيادة مجموعة معينة من القبائل . الا أنها فى نفس الوقت الطريق الرئيسى الى موارد المـاء التى ترتادها جماعات الغزو والسلب والنهب ، فعندما تلتقى مجموعة من تلك القبائل بمجموعة أخرى

منظـــر لرمـــال الجنـــوب

وثنة للبحث عن الدعى فى الحدود الجنوبية القاطنة

من خصومها فان من عادة القبيلة الأقوى أن تعلن عن وجودها باطلاق عدد من الأعيرة النارية فى الهواء كتمهيد لبدء القتال للقبيلة المعادية .

ونظرا لخطورة الوضع فى تلك المنطقة فقد كان زملائى يتحركون كأنما لو كانوا يسيرون على أشواك ومن وقت لآخر كان يجىء أحد المرافقين ليؤكد لى أننا لانزال فى منطقة معادية وعلى الرغم من أنهم عندما كانوا يتوقفون أو يخيمون فى منطقة ما فان الطريقة التى يوزعون بها أنفسهم لم تكن تدل على أنهم يتوقعون هجوما أو يستعدون للانسحاب من تلك المنطقة . وبعد فان الصحراء بالنسبة للبدو ترمز فى حد ذاتها الى الايمان بحتمية الأحداث (أى الاتكال على الله) و (المقدر كاين) و (الحمد لله رب العالمين) ؛ هذه هى الفلسفة التى على البدوى سواء فى مواجهة الشدائد أو الموت أو من خلال احتمال وقوعها أن يتقبل الواقع من غير تذمر ، كما يرى فى الحرية الفردية هرطقة وخروجا على نواميس الحياة ، وهو يؤمن فى مرارة نفسه بأن الانسان لا يصيبه الا ما كتب الله له ، وان ما يحدث فى حياته من اعتداء على الأفراد أو الابل انما هو بارادة الله والا لكانت الحرب عملا شيطانيا والثأر معصية ليس لها ما يبررها ، ولاستحال على الانسان أن يمارس شعائر دينه .

كانت كثبان الرمال الضخمة البيضاء بمنطقة بن جولى تبدو واضحة لنا من خلال التقائها بمنطقة أم الحياة حيث تصب مياه المرتفعات ويتغير اسمها الى اتينا . والى الشمال من هذه المنطقة كان بحر الرمال يبدو شاحب اللون ومن خلفه سلسلة التلال الوردية اللون . وأمام كل هذه المناطق كان يمتد وادى أم الحياة بخضرته الزاهية . وكنا كلما اقتربنا من الرمال كانت تبدو وكأنها روابى تشبه قباب المساجد . ثم بعد مسيرة قصيرة ظهرت لنا بعض الشجيرات التى كانت تتناثر على المنطقة والتى استهوت جمال القافلة . فخفت لتأكل من أعشابها .

ان منطقة أم الحياة تعد من المناطق الهامة لسكان المرتفعات ، رغم أن الأمطار قد لا تهطل فترة قد تمتد سنين . وبسبب تعرض

المنطقة للجفاف • ثم ما ان ينزل المطر حتى تخضر تلك الروابى وتزدهر غيبة حيه . أما معالم الخصب الذى رأيناه فقد كان نتيجة هطول أمطار غزيرة فى السنه السابقة عندما كنت أزور المنطقة ولقد تذكرت جماعتى عندما كانوا يشيرون الى المناطق التى هطلت عليها الأمطار فى ذلك العـام والى مناطق العشب والمناطق التى جرفتها السيول[1] • وكانت البهجة والسعادة تعلو وجوههم وهم يتحدثون عن ذلك •

أخذت السحب فى تلك الليله تتجمع متدافعة فى سماء المنطقه وأخذ البرق يضيء الأفق الأسود . وقد لجأت مع المرافقين الى بعض الأكمات القريبه منا ، بحثا عن مكان نأوى اليه وكان الجميع سعداء وهم يتوقعون نزول المطر • فالمطر بالنسبة لسكان الصحراء يشبه الذهب عند الباحثين عن ذلك المعدن النفيس • ثم أشرق الصباح وتحركنا وأخذ المرافقون ينشـدون أغانيهم بينما كنت الصواعق لاتزال تزأر فى جنبات الوادى . وكأنها موسـيقى تشنف آذاننا بألحانها • وكان الجميع يتمنون نزول المطر حتى ولو غرقت المنطقة فقد كانت تلك أغلى أمنيه عند سكان الصحراء •

وكنا كلما تقدمنا فى السير كلما ازداد الأفق اضطرابا ثم أخذت البروق تقترب منا والصواعق تزداد هديرا • وقد شاركت الجمال أصحابها فى تلك السعادة فأخذت تنفخ الهواء من أنوفها تعبيرا عن سعادتها هى الأخـرى وقد انقسمنا الى ثلاثه مجموعات للبحث عن بعض برك الماء وكان ذلك القرار خلافا لرأيى ، فقد كنت أعتقد بأننا حتى لو عثرنا على بعض تلك البرك . فانها لن تفى بالغرض . وكنت أفضل أن نواصل السير حتى نصل الى العيون المضمونه • بعد عشرين دقيقة من ذلك الوقت سمعنا طلقا ناريا . وقد فسر المرافقون ذلك بأن أحدا ما قد اصطاد ظبيا . وقد نتناوله فى العشاء غير أن نويخر صاح « لقد عثر العرب على المـاء » ومن عادة البدوى عندما يتحدث عن نفسه فانه يشير الى ذلك بالشخص الثالث •• ضمير الغائب ••

---

(١) •• اخاديد الرمال تشبه فى شكلها خراطيم الفيلة .

ثم قال آخر وعلامات السعادة بادية على محياه : صحيح ؟ • ثم تحركنا فى طريقنا الى مكان المـاء مع أنى لم أشعر أنه غفن الى وجود المـاء قريبا منا • بل تصورت أن أحد النوق قد شدها الحنين الى ناقة من المجموعة الأخرى • لأن من عادة الابل التى تنشأ معا منذ مولدها بغض النظر عن الفصيلة التى ينتمى اليها . أن يشدها الحنين الى زميلاتها تلك •

ولكنى سألتهم قبل ذلك وعلى سبيل الاختبار . ما اذا كانوا متأكدين من وجود ماء قريب • لأنه قد مر علينا ست ساعات ونحن على ظهـور جمالنا ، بينما المكان الذى كان من المتوقع أن نتوقف فيه لايزال على بعـد ثلاث ساعات • وهنا صاح نويخر موجها كلامه الى : « اسكت » . وان كانت تلك اللفظة تعنى فى مناطق أخرى من البلاد العربية « اخرس » أو « أغلق فمك » فانها هنا تعنى « بالطبع » أو بلاشك •

بعد قليل تسلقنا أحد المرتفعات فى منطقه السهل للبحث عن بعض رجال القافلة الذين كانوا موجودين تحتنا فى احدى المنطق الصخرية البارزة وكانوا يملأون قربهم بالمـاء ويزودون جمالهم من العين ولمـا كنت حينذاك فى شدة الظمأ فقد وجدت نفسى أنحنى على المـاء مستندا على ركبتى لأشرب من النبع الموجود فى الصخر وكان الماء عذبا بالفعل ويبدو أنه قد تكون من تجمع المطـر ، ولمـا قارناه بالمـاء الذى كنا متزودين به . وجدنا لون الأخير مغبرا كلون الرمل وطعمه كطعم اللحم المتعفن لطول بقائه داخل القرب وتلك طريقة البدو فى تخزين المـاء • ولقد مرت علىّ لحظات كنت أفضل أن أبقى عطشانا من أن أشرب من ذلك المـاء ، غير أن المـاء الذى اكتشفناه كان عذبا ولم أشعر بعد الشرب بأى تعب خاصة وأننى لم أكن متعودا على شرب الماء المعقم خلال رحلاتى لأن الوقت والظروف فى تلك الرحلات لا تسمح بذلك ولكن هاهو صوت ثعيلب ينطلق بنغماء مره أخرى بينما يردد من وراءه زملاءه فرادى وجماعات معبرين جميعا عن سعادتهم •

وكان المقطع الأخير من تلك الأغنية هو الترديدة (الكورس) ولقد ترجمت تلك الأغنية الى الانجليزية وتقول كلماتها :

مهلا فالبرق يبدو هناك على المدى البعيد
لعل حملها يسقط عند أم الحيـــاة
منهمرا أمطـــارا دائمـــة
تسقط عبر كثبان الرمل وممرات الأنهار
حتى تعبر أبو وارد وتصل الى ما بعدها
هناك حيث توجد امرأة جميلة تعيش وتستمتع
تقف بلا حجـــاب
وحبيبها راكع عنـــد قدميهـــا
وقد التأمت جراح قلبه

فى ذلك اليوم تعطلت رحلتنا بسبب ما أبداه الجميع من رغبة فى أخذ قسط من الراحة للترويح والمتعة ولقد كانت قطرات المـــاء القليلة التى فى حوزتنا سببا كافيا لقافلتنا للتوقف ورعى الجمال .

وعندئذ أعلن سهيل وهو من قبيلة الرواشد أنه سوف يدخن واذا بالجميع يتجمعون حوله ويجلسون فى شبه حلقة لمشاركته التدخين ، ومن عادة البدو أن يشتركوا جميعا فى تدخين الغليون ، وأدخل يديه تحت حزام الخنجر واستخرج أدوات التدخين وهى عبارة عن كيس من التبغ مصنوع من الجلد يحيطه حزام ، وكان ذلك واحدا من ممتلكات سهيل القليلة ، وان كانت له فى نفسى منزلة خاصة ، وحين هم سهيل بفتح ذلك الكيس كانت العيون كلها ترقبه ، وهذا الكيس مكوّن من جيبين جيب للتبغ وآخر للغليون الى جانب حجر القداحة لأن الكبريت لم يكن معروفا فى هذه المناطق بل ويعتبر من الأشياء الكمالية .

وبالاضافة الى الغليون فقد كان سهيل يحمل حزاما لخراطيش بندقيه عيار ٣٠٣ بغير غطاء ، وقد أخذ سهيل يملأ الغليون بأوراق التبغ الأخضر

العمانية . وكان يمسك بالغليون بطريقة محكمة بحيث يمنع تساقط تلك الأوراق الثمينة . وكان معه خرقة قديمة يبدو أنها من بقايا قميص له وأخذ يشعلها بواسطة حجر القداحة ثم وضعها على الأرض . وتناول شيئا من بعر الجمال . وأخذ ينفخ فيه حتى أشتعل ثم أدخل الى النار عود شجرة الى أن أشتعل . وأخذ العود المشتعل ووضعه على فتحة الغليون . على غرار ما يحدث عندما يدخنون النرجيلة (الشيشة) .

وقد مرت تلك اللحظات التى استغرقها اشعال الغليون وكأنها من اللحظات الممتعة . فأوقات التدخين عند أولئك الناس تعتبر من اللحظات السعيدة . وقد جذب سهيل نحو ست أو ثمانى أنفاس سريعة وعميقة . بينما استمر فى النفس الأخير فترة أطول حتى أخذت عيناه تدوران يمينا ويسارا . وجسمه ينتشى . وفى تلك الأثناء سلم الغليون الى جاره الذى كرر ما قام به سهيل . وهكذا دار الغليون من فم الى فم ؛ كانت طريقة التدخين عندهم تشبه نفخ المزمار أو البوق بينما هناك طريقة أخرى يتم التدخين فيها من بعد تشبه الفلوت . غير أن تلك الطريقة تعجبنى ولذلك لم أفكر أن أسألهم عن أى الطريقتين أفضل من الأخرى ، كما أننى لم أسخر من سهيل الذى كان يعتبر الغليون من ممتلكاته الطريفة النادرة .

حيمنا فى أم الحياة فى موقع يتفرع منه واد يسمى وادى **نخذه الورقة** يقع الى الشمال الشرقى وأما **نخذه هشان** وهو واد توأم وهو الذى يقع الى الشمال الغربى فان مساره يتخذ اتجاها شماليا أكثر ، غير أن الواديين يسيران الى منطقة الرمال الجنوبية على امتداد مسيرة يوم ونصف حتى منطقة **أم الضرطة**، وفى تلك المنطقة انخفضت درجة الحرارة أثناء الليل الى ٤٧° فهرنهيت . فأحسسنا ببرودة شديدة لأننا كنا نخيم فى منطقة مكشوفة بعد يوم مرهق من أيام الرحلة وعندما أفقت وجدت يدى كالمخدرتين فلم أستطع أن أسجل أى شىء من الملاحظات عن الرحلة فى ذلك اليوم ، وقد استمر ذلك المناخ لسنة أيام أخرى بنفس معدل درجة الحرارة ، وبالرغم من أننى

كنت ملتحف ببطانيتين وأرتدى ملابسى كلها فقد كان البرد شديدا بدرجه لا تحتمل .

وأما بالنسبه للمراعين فقد كان الأمر أدهى وأمر . فالبدو معودون على أن يعيشوا فوق الرمال التى تكون حاره فى النهار وباردة فى الليل ولا يرتدون من الملابس الا بعض الاسمال القديمة كما أنهم لا يهتمون على الأسرة ويعتبرون مثل هذه الوسائل مخصصه للنساء فقط .

ففى النهار يجمعون الحطب والأعشاب الجافه ليشعلوها أثناء الليل فى المخيمات ثم يجلسون أمامها شبه عرايا أما ما كان عندهم من الملابس الأخرى وأهمها الجلابية فيخلعونها ويضعونها على الأرض ليجلسوا عليها ، وتفعل نساؤهم نفس الشىء باستثناء شىء واحد وهو أنهن يصنعن لأنفسهن خياما من شعر الحيوانات ويأوين اليها وحدهن ينمن عليها ولكنهن فى الليل لا يرتدين غير السراويل وأما ملابسهم الخارجيه اذا استثنينا الفتيات الموسرة فانهم يفرشونها على الأرض ليجلسن عليها . أما فى النهار فان الرجال والنساء يمشون وهم حفاة . واذا كانت الرمال حارة فانهن يرتدين الجوارب الصوفية وهم يمقتون الترف الزائد .

كان حدد سيرنا خلال الخمسة أيام الأولى يمر عبر البطاح الجنوبيه للرمال . وفى البداية كنا قد اتجهنا نحو الشمال الغربى ثم أخذنا ننحرف تدريجيا الى الغرب ولكننا حافظنا على الاتجاه بمعدل واحد وهو ٩٥٠ قدم . هذا بالرغم من أن المناطق المنخفضه فى الوادى كانت تدل على وجود مناطق أكثر ارتفاعا من المنطقه الغربيه وقد أخذت مسيرتنا تتعثر بسبب السير فى اتجاه الشمس . وقد سبق أن عانيت من نفس المشكلة فى رحلتى السابقة عندما أحالتنى المسيرات الطويلة فى الشمس الى اللون الأسمر ولكننى فى هذه

المرة فطنت الى تلك المشكلة فأرتديت الكوفيه العربية وبذلك الطريقه حميت وجهى من حرارة الشمس .

كما كانت هناك صعوبه أخرى فيما يتعلق بالسير فى الاتجاه الغربى وهى صعوبه تخطيط الخرائط لأن الكرونوميترات التى كنت أحملها معى تخضع لتوقيت جرينتش (توقيت لندن) وكان فى استطاعتى أن أحدد لارتفاعات بدقه تامه وبذلك استطيع مراجعه حساباتى اليوميه عن طريق ساعة و بوصله عندما تكون المسيرة من الجنوب الى الشمال (ومن حسن الحظ أن كل رحلتى تقريبا تقع فى هذا الاتجاه) غير أنه لا يمكن الاعتماد على الكرونوميترات لتحديد خطوط الطول بين الشرق والغرب خصوصا اذا كانت تلك الأجهزه محموله على ظهور الجمال . حتى مع وجود ثلاثه منها تعمل الواحدة بعد الأخرى وبحيث مستمرة قبل القيام بالرحله وبعدها ولو كان لدينا جهاز ارسال لأمكن تحديد القياسات بمنتهى الدقه ولكنى خشيت أن يكون وجود مثل ذلك الجهاز معى مثارا لشكوك رجال القافلة فضلا عن كونها أجهزة ثقيلة .

بعد مسيره ثلاث ساعات ونصف فى مناطق رملية كثيرة الكثبان ، وبعد مغادرتنا هشمان عبرنا السهل بسرعه دون أن تعترضنا عقبات من الرمال التى كانت تتراكم بكثرة فى تلك المنطقه وبعد أن قطعنا منتصفه أمر الرؤوس . أزداد اعتراض تلك الكثبان لطريقنا بحيث أبطأت من سرعتنا . وقد تطلب عبور أحد تلك الكثبان نحو نصف ساعة ومنه دخلنا عبر ممر طويل تحيط به من الجهة الشمالية سلسلة من التلال الرملية على امتداد ميل واحد بينما تحده من اليمين منطقة الرمال . ويطلق على ذلك الممر اسم « حرير » وقد تميزت مسيرتنا خلال الأيام القليلة التالية بوجود بعض المناطق الجافة للغاية ولم نجد بقعة خضراء واحدة سوى تلك التى يسمونها عبالة أو مرخ وكانت تقع على احدى جوانب كثبان الرمال . وكانت مجموعة الكثبان تقع على الطريق الذى كنا نسير فيه ، ثم تمتد منه الى السهل على ضفة الوادى

حيث تبدأ فى الشخص تدريجيا الى ان تنتهى فى احدى المدن القريبه من .

تلك هى المدن التى يرغبها هذا الغول (محمد الفقد) وهو فرع ولدى هذا الذى يسمى اسم شخصه ارضه منه مع يحب نائبه من كثيب الرمل الكبير ويسمى على الاصول (ام الجوع . أم العيبه . أم الدوله) .. غير أن المرعى فى تلك المناطق قليل جدا . بحيث اضطررنا الى أن نتفرق الى ثلاث مجموعات . وان يرعى الجمل فى منطقه يريد عشرها على مثل واحد . وكانت مجموعتى تتكون من أفراد من عبائل الكرب والعوامر وبنى تمير . الذين ابرموا يتسلمون بعض الأحراس الكبيره (مرح) ويجمعون من أوراقها علف للجمال وكان من جراء ذلك أن حمل جملى وجمال النقل على نوع من أفضل أنواع العلف وبعد كان ذلك الاهتمام الزائد من جانب البدو بالجمال أمرا صريحا . وهو ما كان يتعارض تعارضا صريحا مع المروءة التى تحكم العلاقات الشخصية فيما بينهم . فعندما يكون هناك نقص فى الطعام أو الماء فان الجميع يشتركون فيه واذا كان أحدهم أو بعضهم متعبا لسبب من الأسباب فان رفاقه يعذرون الى انتظاره حتى يأتى ويشاركهم الطعام . غير أن موقفهم من بعضهم البعض يختلف كثيرا عندما تتعلق المسألة بالجمل أو بطعامه أو بالحموله التى يحملها ففى تلك الحاله يصبح البدوى مصلحة جمله فوق مصلحة رفاقه . فمصلحه الجمل فى تقديره تأتى فى المقـــام الأول .

خلال رحلتى أثناء النهار . لم يتغيب أحد من المرافقين عن الرحلة لتأدية صلاة الظهر وذلك لأنه يحق للمسافر أن يجمع (١) بين الصلوات أثناء سفره . وهذا التيسير على المسافر ليس مصدره عند أهل الصحراء متبع فى عقيدتهم

---

(١) .. نص احكام الشريعه الاسلاميه على أن يرخص [illegible] لاكثر من سبب مثلا فى الجمع بين صلاتى الظهر والعصر أو المغرب والعشاء . وقصر الصلاة (اى تصلى الصلاة ذات الأربع ركعات فى ركعتين فقط . المترجم .

الجمـــل ابن الصحراء

فقد درج سكان المدن على اتهام البدو بعدم التقيد بالفرائض الدينية ، غير أن هذا الاتهام لم تثبت صحته من خلال تجربتى معهم ، فقد كان المرافقون حريصين على تأدية الصلاة فى أوقاتها بحماس بالغ بالرغم من المخاطر التى يتعرضون لها فى الصحراء ، وهم يذكرون الله صباحا وظهرا ومساء ، بينما شبح العطش والجوع يطاردهم باستمرار . والوحوش تجوس خلال الصحراء على مقربة منهم .

ولعل الوعى بتلك الأخطار التى تحيط بهم قد جعل منهم — مثلهم فى ذلك كمثل جنودنا وبحارتنا من الجيل السابق — مزيجا من التوكل والقدرية التى يمارسونها بسذاجة تشبه الأطفال . وهذه السذاجة ليست البسمة الوحيدة لتلك العقلية ، ولكنها فى الواقع المحور الذى تدور حوله حياتهم والذى تنعكس مبرراته العملية على جوانب معيشتهم اليومية وتشكل قاعدة أساسية يعتمدون عليها فى تلك البيئة القاسية ، الى جانب العقلية البدوية التى لا تختلف فى جوهرها عن التقاليد السائدة عندنا فى الغرب ، وعبارة بسم الله الرحمن الرحيم .. هى الصيحة التى أسمعها من هؤلاء البدو كل صباح عندما تبدأ الرحلة . وكثيرا ما كنت أسمع بعض المرافقين لى يصيح بعد فترة من الصمت بقول (اللهم أكفنا شر ما فى الغيب) والمقطع الأخير من كلمات آذان الصبح الذى ينادى به المسلمون للصلاة تصاحبه دعوات وتضرعات كثيرة من أولئك البؤساء ، وهم يرتعدون من شدة البرد فى طريقهم لتأدية صلاة الصبح ، وكل متعصب من المسيحيين يستطيع رغم تعلقه الشديد بالشئون الدنيوية أن يتعلم من أولئك القوم أشياء كثيرة اذا ما اختلط بهم أو عاشرهم وذلك من خلال تسليمهم المطلق وايمانهم العميق بخالق الكون ، وكثيرا ما كان يحدث ونحن جلوس أن ينادى أحدهم بقوله « لا إله إلا الله » .

وذات مرة عندما كنا جميعا جلوسا فى المخيم صاح أحد البدو الذى كان ينتمى الى قبيلة مُرة (لا تخفوا ايمانكم أيها المسلمون) . وقد قالها

فى لهجة كلها انفعال وحماس شديد . غير أنى كنت على يقين من أن ذلك التعصب لم يكن يمس العلاقه التى تربطنى بهم وكنت أحس منهم قدرا كبيرا من التسامح نحوى يندر أن يجده الانسان فى كثير من سكان المدن المحاربين بالغرور الناتج عن معرفتهم بالقرآن الكريم وبالمسائل الدينيه والذين يعتقدون أن معرفة الحق هى حكر عليهم وحدهم .

وسوف أقص عليكم قصه حدثت لى مع الشيخ صالح وكان ذلك فى بداية الرحلة فقد تقدم الى أحد أتباع الشيخ صالح وطلب منى أن انطق شهادة ألا إله إلا الله . ولعله كان يريد بذلك أن يتأكد من أننى مسلم ومؤمن بالله ورسله فأمسكت لحيتى بيدى وكنت فى ذلك الوقت قد أطلقت اللحية كما يفعل غالبية الأوروبيين خلال الأسفار وقلت له لا إله إلا الله . ولكن عندما قال الرجل « وأن محمدا رسول الله » توقفت عن القول وقلت له دعنى أوضح لك الأمر ، لاشك أن محمدا هو نبيكم وهو شخصية ممتازة وعلى خلق عظيم ، ولكن محمدا هو نبى العرب [1] ، ونحن من ملة أخرى ولكننا مثلكم من خلق الله ونؤمن بأن عيسى هو نبى الله . فسألونى وابن من يكون عيسى ؟ — ولأن البدو أميون ولا يتلون القرآن الذى ينص على أن « عيسى هو من روح الله » [2] وهنا تدخل الشيخ صالح معززا قولى وأنهى المناقشة بقوله (ان لكل أمة نبيها ولكنى أحمد الله فان هذا الرجل — أى أنا — ليس من الكفار وهو يؤمن بالله الواحد الأحد) .

وقد سألنى ما اذا كنا نحن المسيحيين نحرق موتانا أم أننا ندفنهم مثل المسلمين وما اذا كان الزواج يتم بالعقد أو بدونه وما اذا كنا نصوم ونصلى مثلهم . فأكدت لهم ذلك كما صححت بعض الانطباعات غير الصحيحة عنا والتى اكتشفتها خلال رحلتى السابقة وهى انطباعات منتشرة فى كل أنحاء الشرق الاسلامى .

---

(١) هذا التعبير يرفضه الدين الاسلامى ، فالاسلام دين الناس جميعا يقول تعالى « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (المراجع)

(٢) وهنا خطأ آخر فعيسى خلقه بدون اب كما خلق آدم بدون اب وبدون ام وعيسى من روح الله اى من خلق الله (المراجع)

ومن المعتقدات السائدة عندهم أن غير المسلمين عندما يرون السماء يحنون وجوههم . وربما كان سبب ذلك الاعتقاد هو اتباعه التى يلبسونها والتى تحجب عنهم رؤيه السماء[1] ولما كان السجود فى الصلاه وفقا لشريعه الاسلاميه يحتم على المسلم أن يلمس الأرض بجبهته . فان ارتداء القبعه الذى هو عنده مسيحيه لا يسمح بتطبيق هذا الشرط من شروط الصلاه . ومن ذلك نشأ اعتراض الجماعات الاسلاميه المحافظه فى ايران وأفغانستان والعراق وغيرها من الأقطار الاسلاميه على استعمال جنودهم لخوذات العسكرية ذات الطابع الأوروبى .

أما أنا فقد كنت أرتدى الكوفيه العربيه فى رحلته (أسفل تحت الكوفيه خوذة جويه منزوعه الحشيه وهى من النوع الذى كان يستعمله سلاح الطيران البريطانى قديما . أما ملابسى وطعامى وتحيتى وحديثى فقد حاولت أن تكون متطابقه مع ملابس زملائى ولحاهم وذلك بهدف تحقيق الألفة والانسجام فيما بيننا وللسبب نفسه لم أكن أستعمل نظارات الشمس أو غيرها من الأجهزة البارزة على رأسى . لأن ارتداء النظارات السوداء وسط أولئك الناس قد يعرقل مهمتى ويعطل الخطة التى أعددتها لاستكشاف تلك المنطقة ثم أننى لم أشعر بالحاجة الى تلك الأشياء .

كانت طبيعة السهل فى منطقة فسد ترابيه ومنبسطه ولكنى اليوم تحولت الى تربة صخرية فيها كثير من التعرجات والفتوءات كما صادفنا فى مسيرتنا بروزات أخرى يبلغ ارتفاعها نحو عشرين قدما . وبرورات رمادية اللون تتخللها عروق حمراء لامعة واستطعت بالمنظار أن أرى الكثبان الممتدة التى كانت تبدو من المكان الذى كنا فيه وكأنها رمال صخريه صلبه وقد لاحظت على سطحها طبقات صدفية وغيرها من متحجرات قد تفتتت وبلى

---

(١) . . لعل هذا الرأى يرجع الى العهود القريبه لأن القبعه الشمسيه لم تكن شائعة الاستعمال بين الأوروبيين منذ اكثر من مائة عام وهى لم تستعمله فى الأمريكتين ولا فى استراليا وجنوب افريقيا فى اعتقادى .

معظمها ولكن كان لايزال عليها من الآثار ما قد يساعد الباحث على اكتشاف المرحلة التاريخية الجيولوجية للمنطقة .

وكانت المنطقه يسودها الجفاف ولاحظت الجمال وقد وقفت فى صمت أو بركت على الأرض ولعلها كانت تتعجل استئناف الرحله بسبب جفف المنطقة . وعلى الرغم من أن الجمال ليست من الحيوانات الجميلة الشكل إلا أنها تتمتع بمقدرة فائقة على الصبر وتتحمل الظروف العصيبه وأقصى ما تطمع فيه من أصحابها هو أن تحصل على بعض العلف فان توفر ذلك بالقدر الكافى فعندئذ يمكن لأصحابها أن يضعوا فوق ظهورها ما شاءوا من الحمولات حتى ولو لم تشرب لمدة أسبوع . والشىء الوحيد الذى لا يريد أن يفعله صاحبها هو أن يعقلها فى كل مرة حتى لا تضل الطريق .

كان سيرنا فى الصباح من ميتان بطيئا بسبب برودة الطقس والجوع والتلال الرملية التى كانت تعترض طريقنا بين فترة وأخرى وبعد مسيرة ساعة من الزمن وصلنا الى منخفض كبير تؤدى ضفته الغربيه العالية الى طرف الوادى والذى تقع عند منبعه منطقة « الشفوت » والذى يبعد عنا مسيرة ستة أيام وهذه المنطقه من أخصب الأودية وأكبرها وخلف ذلك الوادى عادت الى الظهور المرتفعات الصخرية وبدأنا فى السير السريع . وفجأة صاح الرفاق الذين كانوا حريصين فى كل مرة الى شد اهتمامى الى أى شىء يعتقدون أنه يهمنى .. صاحوا انظر أيها الصاحب تلك هى الطريق الى أوبار وسألتهم ما هى أوبار ؟ ؟ فردوا بأنها احدى المدن العظيمه كما يروى آباؤهم وقد كانت مدينة مزدحمة فى الزمن الماضى ، وكانت تزخر بالرخاء والثراء ومزارع النخيل . وكانت فيها غلمة ذهبية .

ويروى البدو أن تلك المدينة مدفونة الآن تحت رمل تلك المنطقة المسماه « رملة شعيت » على بعد بضعة أيام الى الشمال . وقد سبق أن سمعت نفس القصة من العرب الذين رافقونى فى رحلتى الأولى وتحدثوا

عن مدينه اسمها « أوبار » وهى المدينة التى يقال عنها أنها غاصت تحت الرمال ولكن لم يستطع أحد أن يحدد مكانها • ولقد تبددت صورتها من ذهنى عندما أشار المرافقون بأيديهم الى آثار طرق بائدة على بعد نحو مئه باردة من المكان الذى كنا فيه على خط عرض ١٨ر٤٥ درجة شمالا وخط طول ٥٢ر٣٠ شرقا تقريبا على أطراف الرمال[١] •

وبعد أيام من ذلك حكى لى معيوف الراشدى قصة طريفة وكان معيوف أذكى رجل فى القافلة فقال : بأنه عندما كان صبيا وكان يرعى القطيع بعد أيام ممطرة فى المنطقة الواقعة فيما بين ميتان وفسد « ويبدو أنه نفس الموقع الفعلى وان كان يرجح بأنه يقع على بعد يومين من الرمال « وأثناء رعيه للقطيع رأى وعاء من الخزف مكسورا وكان لونه بين الأحمر والأصفر كما عثر على قطعة من حجر الرحى وزوج من الهاون أسود لامع بالاضافة الى لوحين من الحجر مستديرين لونهما أبيض ، ومثلومين من الأطراف وكانا متشابهين فى الشكل غير أنهما كانا كبيرين فى الحجم بحيث أن كلا منهما يلزم لرفعه من الأرض شخصان على الأقل •

---

(١) .. انني ادين للمستر فلبى الذى لفت نظرى الى الشبه بين أوبار ووبرة . ولا يوجد بين الجغرافيين البارزين من العرب من تعرض الى تلك المدينة . الا ان ياقوت الحموى اورد بعض الروايات المستقاة من المصادر المحلية وكلها تجمع على نفس الرواية وتحدد مكان المدينة بوجه عام فى منطقة الرمال بين الشحر وصنعاء ويقول انها كانت مدينة عظيمة تقع وسط واحة خصبة وينمى أهلها الى قبيلة عاد ولكن نزلت عليهم لعنة الله فمسخوا الى قردة من النوع الذى بنصف جسم وعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة وبعدهم سكنها الجن الذين كانوا يمنعون كل واحد من الدخول اليها أما الذين يصلون اليها فان الجن يبيدهم ، ويقال ان الجمال المهرية هى من سلالة تلك الجمال التى تنتمى الى أولئك الجن . وفى بعض الروايات ان اهل الشحرة كانوا يصطادون النسانيس ويأكلونها ويقول عالم الآثار العربى الجنوبى نشوان بن سعيد الذى عاش فى القرن السادس الهجرى والثانى عشر الميلادى ان لفظة « وبار » هى اسم البلد الذى ينتمى اليها عاد فى الأجزاء الشرقية من اليمن . أما اليوم فقد طمستها الرمال .. كما يقال بأن تلك المدينة كانت لأهل الراس . وربما يكون اكثر توافقا فى الرواية ان العربشة « وهى ارض الحاكم الزنانى » هى المرادف للكلمة الشحرية « راس ».

بم أحد معيوف ينبش الرمال ولكنه لم يعثر الا على تراب أسود • ولكن معيوفا لم يرجح أن تكون تلك الأشياء بقايا أو آثار لاحدى المدن الكبيرة على الرغم من أن وجود الخزف فى الرمال قد أثار دهشته لأنه ليس من عادة البدو استعمال الخزف أو الصينى فى تلك الأصقاع حيث أن الاوعيه والأوانى التى يستعملها البدو كلها مصنوعه من سعف النخيل وجذوع الأشجار ويستعملون أحيانا بعض الأوانى المعدنية •

ويومئذ فكرت فى الذهاب الى المكان الذى وصفه معيوف ولكنى أدركت أن محاولة كتلك سوف تعرضنى للخطر (حتى ولو رافقنى كل رجال القافله) • وكان ذلك أمرا بعيد الاحتمال بسبب سوء حالتهم النفسيه فى ذلك الوقت كما أن كمية الماء التى كانت معنا لم تكن تكفينا حتى نصل الى مورد آخـر من موارد المياه • وقد ذكر البدو بأن الطريق الى ذلك السهل ينتهى عند الناحية الجنوبيه . وربما يرجع سبب ذلك الى أن الطرق القديمه ربما كانت تمر من أحد الوديان المهيئة بالحجاره وهى المر الطبيعى الى المناطق الجبليه حيث لم تكن هناك طرق أخرى . أما أن الرمال كانت تزحف جنوبا . فمن ذلك يتفق مع رأى العرب الذى يؤيده هبوب عواصف شماليه على امتداد تلك الحدود الجنوبية . وهو العامل الذى كيّف طبيعة تلك المنطقه من المرتفعات والسهول والرمال •

أما الطرق المنخفضة الواقعة على المنحدرات فالتفسير الوحيد لتكوينها يرجع الى الظروف المناخية التى كانت تتغير خلال العصور التاريخيه المعروفة • والى الجنوب من تلك المنطقة تقع مزارع اللبان المشهورة منذ القدم والتى من المحتمل أن تكون متصـلة بالطريق البرى المؤدى الى « جرهم » . الميناء القديم على الساحل الفارسى أو تكون متصلة بمدينة بطرة التابعة للنبطيين كما أنه من المحتمل أن يكون موقع مدينة أوبار فى نفس تلك المنطقة •• فهل هناك فى هذه الحالة أى صلة بين كلمتى « أوبار » و « أفار » ؟؟ •

لا ينبغى بأى حال أن نقلل من الأهمية التاريخية لتلك الطرق التجاريه القديمه التى تحولت الآن الى كثبان من الرمال ولا نعرف ما اذا كانت شبه الجزيرة العربية قد مرت بعصر جليدى وفى الوقت الذى كانت المناطق العليا فى الجزء الشمالى من الكرة الأرضية تلتف تحت طبقات من الجليد كانت الجزيرة العربية تمر بمرحلة مطرية انتشرت حتى بحـــر الرمال . ومن تلك العوامل نشـــأت الكتل الرملية الضخمة فعملت على تجفيف الرمال الساحلية والى ظهور المتحجرات الكلسية التى انتشرت حتى بحر الرمال . ومن المحتمل أن يكون ذلك المناخ الجوى قد استمر حقبة طويلة من الزمن ولكن بشكل مخفف مما ساعد على ظهور مدنية مبكرة فى ذلك الجزء من العـــالم .

وثمه دليل آخر على وجود تلك المدينة الأثرية وذلك فيما كتبه علماء الحيوان حول تقسيم السلالات الحيوانية لجنوب شبه الجزيرة العربيه . فالحيوانات التى جمعتها فى جبال القرا كانت كما دل الفحص من أصـــل افريقى أو حبشى بوجه عام . وهى حيوانات تنتمى الى منطقة بذاتها بينما تلك التى جمعتها فى المنطقتين الشرقية والشمالية تعود فى أصلها الى العصر البلياركتى .. والتى تحتمل أن تكون بقايا حيوانات القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية عندما كان كل من الهند وافريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربية يعيش ضمن مناخ واحد وتسكنها حيوانات واحدة .

غير أن ظفار ــ وهى الجزء الوحيد فى شبه الجزيرة الذى يتميز بهطول الأمطار والنباتات الموسمية بفعل الرياح التى تهب عليه من الجنوب الغربى ــ أنفردت بحيواناتها بعد مرحلة الجفاف التى حلت بالمنطقة . أما الأجزاء الأخرى الجافة . فتسكنها أنواع أخرى من الحيوانات قدمت اليها من الشـــمال .

الفصل الثالث عشر

عبر طريق الكثبان الرملية - في منطقة عرق الدحية

كانت كثبان الرمال المعروفه باسم « تسعيث » . تتجه الى الناحيه الجنوبيه الغربيه . ومن هنا فقد كان اتجاهنا فى مواجهتها . وكان يبدو أننا كلما خرجنا من منخفض المرتفعات نجد أنفسنا مرة أخرى عليها . فتارة يحجبها عن أنظارنا بعض التلال وتارة أخرى نجد أنفسنا وقد ابتعدنا عنها بمسيرة نصف يوم الى الجنوب . كما كانت التلال الفاتحه اللون فى القسم الجنوبى من المنخفض تأخذ فى التحول الى اللون الأحمر ثم بلغنا سرنا نأخذ فى التدرج لتتكون مجموعه من التلال المفرطحه التى كانت ترتفع فى تسلسل صفوف كالجبـــال .

وكانت معالم الطريق أمامنا هى بعض المرتفعات . وكنا فى بعض الأحيان نتوقف عند بعض الأعشاب التى نمر عليها فى بعض المرتفعات فنتسلقها ونأخذ فوقها قسطا من الراحه ونرعى الجمال وفى تلك التلال لفت نظرى أحد الظواهر الغريبة ألا وهى وجود رقع من الأرض فضية اللون على بعض التلال وكانت تبدو من بعيد كأنها ألواح من الجليد أو بقع من الملح متخلفه عن بعض البحيرات المالحة الجافه . وقد تبين لى أن تلك البقع هى من الجبس . وقد مررنا عليها فى طريقنا عبر الكثبان الرملية وهم يسمونها ببيلة (الجبيلة) وبديلة (الجديلة) كما شاهدنا فيما بعد على الجبال الرملية التى تسمى (عرق الدحبة)[1] نفس تلك البقـــع الفضية .

---

(١) .. ينطق قبيلة الرواشد سكان منطقه الرمال الجنوبية والتى تختلف لهجتها عن لهجة قبائل مرة .. ينطق الحرف باء . ومن ثم فانه من المحتمل أن تكون يبيلة وبديلة هما جبيلة وجديلة .

لقد أمرت المسيرات الطويله عبر المناطق الجافه والتى كانت تستغرق من تسع الى عشر ساعات يوميا على الجمال . مما اضطرنا الى اعادة توزيع الحمولات . فقد تبين لنا أن أكياس التمر التى كان كل منها يزن أكثر من ٦٢ رطلا وكانت تعتبر من الحمولات العاديه . تبين لنا أنها حمولات ثقيلة على الجمال . وبذلك أعيد توزيعها ونقلها على الجمال التى كانت أشد قوة لمواجهه وعوره الطريق . ولكن أصحابها احتجوا على ذلك فاضطررت الى استئجار مجموعه أخرى من الجمال من بعض البدو الذين صادفناهم فى الطريق وبأجر أكبر . وأخيرا اتفقنا على أن تحمل الجمال التابعه لمجموعتى حمولات أخف وبتغيير كل يومين أو ثلاثة . ولكن ذلك الاتفاق لم يتم بسهوله ولكن بعد كثير من الجدل والوعود بتقديم مكافآت الى أصحابها . وقد مرت علىّ لحظات فى ذلك اليوم كنت أشعر فيها بضرورة وجود الشيخ صالح معى .

ومن يحدث أثناء الرحله أن تصاب بعض الجمال بالتعب من كثره سير فتتخلف عن خط القافله بحيث كانت تختفى عن أنظارنا فى بعض الأحيان ومن هذا وضعنا سيئا فى ظل احتمال تعرضنا لبعض الكمائن من البدو . وهكذا أخذ التعب ينال منا أكثر وأكثر . بينما يزداد سيرنا بطئا . بحيث أصبحنا فريسه سهله لأى غزو محتمل عند بعض عيون الماء والتى لم نكن نبعد أكثر من مسيرة يومين . وعندما كنا نقترب من أحد المرتفعات كان يتقدم أحد أفراد القافلة ويتسلق ذلك المرتفع لاستطلاع المنطقة ويبقى فى مكانه يترقب حتى نصل اليه ويتكرر ذلك العمل يوميا طوال مسيرتنا بالتناوب .

ومن ناحيه أخرى كنا نراقب المرتفعات البعيدة للبحث عن أى دليل أو نشاط مشبوه غير أن الطريقة البطيئة التى كنا نتحرك بها كانت تؤدى الى تأخيرنا . كما كانت تجعل عملية اختيار أفضل المناطق للتوقف أكثر صعوبه لأن التوقف دائما يرتبط بمساحة المرعى فى تلك المناطق القاحلة فضلا عن أنه لابد أن نضع فى الاعتبار . الجماعات الأخرى التى سبقتنا للتوقف فى ذلك

المكان . وكان ذلك يتطلب أن يقوم بعض رجالنا بعمليه استطلاع للمنطقه التى أمامنا والتى تستغرق ساعتين أو ثلاثه قبل غروب الشمس يوميا . ثم بعد ذلك تتحرك قافلتنا الى ذلك المكان . وكانت أسعد المناسبات التى مرت بنا عندما فاجأنا أحد الزملاء الذى كان يتولى نوبه المراقبه برفع كوفيته واخذ يصرخ بصوت مرتفع بعد أن اكتشف مرعى ممتازا وقد نسى وهو فى عمرة حماسته احتمال وجود بعض الأعداء فى احدى المنعطفات .

أخذت الجمال تتقافز فى سيرها نحو المرعى فى انتظار انزال الحمولات من على ظهورها ثم تسريحها فى أقرب بقعه لتأكل من العشب . وكان من عاده البدو حين نخيم فى أحد المناطق القاحله أن ينقبوا فى التلال القريبة عليهم يعثرون على شىء من العشب لاطعام الجمال . وبعد أن فرغ القوم من اطعام جمالهم استعدوا لأداء صلاة العصر . وقد جمعوا بعض أكوام من ورق الأشجار كدسوها بعضها فوق بعض لكى نقيهم برودة الجو فى المخيم .

وكانوا يجتمعون كل ليله فى شبه حلقة . وقد تعودت أن أنضم الى مجلسهم هذا لمشاركتهم أطراف الحديث والسمر وقد لفت نظرى وانتباهى فى تلك الليلة . عملية تحضير الخبز من عجينه غير مخمرة . وكان معيوف الطباخ الفخرى للقافلة يجلس بين نفر من زملائه الجياع الذين كانوا ينتظرون وجبة الطعام بفارغ الصبر ، فأحضر الدقيق ووضعه فى اناء ثم صب عليه المـاء وأخذ يضغط عليه بأصابعه ويعجنه ليتشكل منه أقراص الفطائر وكان يقسم العجينة الى دوائر متساوية وبين الحين والحين يحملق فى وجه زملائه ، ربما لكى يطمئن نفسه على أن الجميع راضون عن طريقة تقسيم العجين .

وأخيرا تناول عجينة ورش عليها ماء ثم فرطحها بيديه الى أن اتخذت الشكل المطلوب ثم وضعها على النار ، وعندما فاحت رائحة الخبز قلبها على الجانب الآخر وبعد ذلك أصبحت الفطائر معدة للأكل .

ولقد استساغ زملاؤه ذلك الخبز كثيرا . أما أنا فأخذت قليلا منه لأنه كان ثقيل الوزن حيث يعدل وزنه رغيفين أو ثلاثة من الخبز الانجليزى . وعلى الرغم من أن الفطائر قد تركت على النار طويلا حتى أنها أحترقت من الخارج الا أنها لم تكن ناضجه من الداخل بالقدر الكافى ، وربما كان ذلك مما يميز الرغيف العربى عن غيره . كما وأنه السبب الرئيسى فى اضطرابات المعدة والأمعاء التى يشكو منها البدو باستمرار . ولما كان البدو غير متعودين على الأطعمة الأخرى كالأرز والتمر وبعض الأرغفة على الطريقة الانجليزية التى كنت أوزعها عليهم بين حين وآخر كانت فى نظرهم من الأشياء الكمالية التى لا يرونها الا مرة فى العام أو ربما فى شهر رمضان .

وقد طهى لنا معيوف فى تلك الليلة وجبة جديدة ، فقد سلق الأرنب الذى اصطدناه فى طريقنا . ولكن ذلك الطباخ الهاوى لم يكن يعرف شيئا اسمه الزبد لسبب بسيط وهو أن لبن الناقة لم يكن يحوى دسما كثيرا ولهذا لا يمكن استخراج الجبن أو الزبد منه ، ذلك على الرغم من أن بعض الجمال الصغيرة تحوى أسنامها كثيرا من الشحم . ولهذا السبب فاننى لم أشترك معهم فى تناول شىء من ذلك الأرنب المسلوق فى ماء مالح .

وقد سئلت عما اذا كنت أتناول لحم الظبى ولكن هذا السؤال جرنا الى قصة الظبى والأرنب التى يتناقلونها فيما بينهم . ولكن كان من الأفضل لو استمع الانسان الى تلك القصة بالطريقة الشيقة التى يروونها بها . وتقول القصة .. ان ظبيا جاء ليأكل من أحد الأشجار ولم يلحظ أن تحت تلك الشجرة أرنبا نائما ، وعندما شاهد الأرنب الظبىَ قفز وأخذ يجرى ، ولكن الظبى أيضا أصيب بالذعر وأخذ يجرى ولكنه نسى الأرنب ، وعندما تذكر الأرنب امتعض وأخذ ينشد هذه الأبيات متهكما على الأرنب :

يا من لحمه قليل القيمة
وجلده لا يضفى أى متعة
يا من تعطى مجرد البهجة للأطفال
أيها المزعج لجيرانك
ذلك ما أعنيه .. يا من لحمه لا يكفى بالحاجة

ولكن الأرنب أيضا استدار وقعد على رجليه الخلفيتين وأخذ ينشد هذه الأبيات رداً على الظبى :

الظبى يا أبا النسيان
يا حاد القرن
اذا هبطت الى الوادى الأخضر
أصبحت شريكا للديدان
ذلك ما أعنيه .. يا من لحمه لا يفى بالحاجة

وهكذا تفرقنا . ولو توفر لنا الحطب لكنا استعملنا النار مرة أخرى . فقد تجمدت أطراف البدو من شدة البرد وكانت ليلة من الليالى القاسية .

كان البدو مستلقين على الأرض والى جانبهم بنادقهم . بينما كانت النار تشتعل فى مواقدها بالقرب منهم ، فيما عدا الشخص المكلف بالحراسة والمراقبة ، وفى تلك اللحظة تسللت الى خيمتى لأقوم كعادتى برصد حركة الكواكب .

كان يوم ٢٢ ديسمبر طويلا ومملا ، ولم يشهد أى أحداث . وكنا نسير عبر طرق رمال **جبلية** وكنا كلما حاولنا أن نتجه جنوبا لنتفادى الكثبان كانت الشمس تسطع بشدة فى وجوهنا ، وهكذا أخذنا نتخبط عبر الكثبان

الكثيفه . حتى سمعنا أصواتا تشبه الألحان الموسيقيه . تقطع علينا ذلك الصمت وقد أذهلتنى تلك الأصوات وبقيت لحظات مستغرقا فى التفكير محاولا أن أعرف مصدر تلك الأصوات .

واذا بأحد أفراد البدو ينادى علىّ قائلا حنينه[1] .. حنينه .. أيها الصاحب استمع الى الجرف وهو يعوى . فى الوقت الذى أشار أحد المرافقين بصبعه الى أحد الجروف الرملية وكان على بعد مائة قدم منا . فانصتُّ الى ذلك الصوت من غير أن أرد بكلمة على البدو وكانت الساعه الرابعة والربع بعد الظهر ، وكانت الرياح الشماليه الخفيفة تهب علينا من جهة قريبة من الجرف .

كنا قد مررنا على مثل تلك الجروف الرمليه قبل ذلك الوقت غير أنها لم تكن تحدث أصواتا فيما عدا الغبار الذى كانت تثيره الرياح . أما هذا الجرف فقد كان مائلا ، وعندما حاولت أن أبحث عن وجود مضيق بين الكثبان يسبّب مرور الريح منه مثل تلك الأصوات لم أجد شيئا ، كما أن القول بوجود رمال تصدر مثل تلك الألحان هو فى نظرى من قبيل التمييز بين صوت كذلك الصوت وصوت صفارة الباخرة[2] ، ولقد استمر ذلك الصوت ما يقرب من دقيقتين وبنفس الطريقة التى تتوقف فيها صفارة الانذار فى البواخر ، توقف ذلك الصوت فجأة .

غير أن ما سمعته لتفسير تلك الظاهرة وهو أن ذلك يحدث نتيجة تعرض

---

(١) .. حنينه تعنى « عواء » وان القبيلتين اللتين تستوطنان منطقة الرمال يطلق كل منهما اسما مختلفا عن الاسم الذى تطلقه الأخرى لتلك الظاهرة ، فعلى حين تسميها قبيلة الرواشد « الدمام » .. تسميها قبيلة مرة « الهيال » .

(٢) .. وبالمثل ليس من الانصاف أن نستعمل هذه الكلمات فى العصر الحديث للدلالة على تلك الأصوات الساحرة التى وردت فى قصة الاليسذة والأوديسة للشاعر اليونانى القديم « هوميروس » .

الرمال لحرارة الشمس طوال النهار ثم هبوط الحرارة بعد الظهر . فقد جاء هذا التفسير فى آخر لحظة بحيث لم يترك لى الفرصه للتأكد من صحته . ثم كان حجم الصوت وطبيعته لا يؤيدان ذلك التفسير . كما أنه لم يخطر على بالى أن أسأل أحد رجال القافله عن الأوقات التى نصدر فيها تلك الأصوات خلال النهار ، وان كنت قد فهمت بأنه لو أن تلك الأصوات حدثت بالليل فانها لا تثير أحدا منهم على الاطلاق .

وهناك صور أخرى لأزيز الرمال . فرمال أم الضرطه التى تقع الى الشمال تصدر نفس الأصوات . كما أخبرنى المرافقون . وقد باشرت تلك التجربة بعد شهر من ذلك التاريخ فقد كان ذلك فى منطقة « صويحب » فبينما كنت أسير فوق جملى سمعت فجأة صوتا عنيفا تحت أقدام الجمل انطلق ثم خفت فجأة . واعتقد المرء الذى كان يصحبنى فى ذلك الوقت أن الصوت هو صوت قادم من جهنم . غير أن هذا الصوت كان يختلف عن الأصوات التى كانت تسمع فى كثبان الرمال . كما قال لى بعض المرافقين .

بعد سير بطىء لمدة يومين فى منطقة « شعيت » ، ودعنا مخيماتنا الجميلة بين المرتفعات وكثبان الرمال . وفى يوم ٢٤ ديسمبر انحرفنا الى الشمال الغربى وتغلغلنا داخل الكثبان الكبرى والتى كانت تمتد الى مسافات بعيدة الى جنوب الغرب الجنوبى . وكنا نرى أمامنا تلالا رملية حمراء وقد أصبح السير أكثر صعوبة ، وذكرنى مما عانيته قبل عام مضى من متاعب خلال رحلتى الى مقشن على بعد مائتى ميل الى شرق الشمال الشرقى عندما قمت بمحاولة لعبور تلك المرتفعات على جمال جبلية . ولكنى اضطررت الى العـــودة .

إن منظر الكثبان يبدو مثيرا عند الوهلة الأولى ، فمنظرها يبدو كمحيط من الكتل الرملية الهائلة ، يرتفع بعضها ارتفاعا مخيفا ثم تنحدر فى اتجاه بعض الوديان الخضراء التى تجد الجمال فيها كفايتها من العشب . وذلك

(سلسلة كتابن ريلية)

على الرغم من عدم وجود مراعى خاصة فى تلك المنطقة . وتتخذ الارتفاعات الهائلة للكثبان أشكالا مختلفة وبعضها له شكل مستدير .

وكانت تلك المنطقة تنعكس عليها ألوان الطيف الناتجة من الأشعه العمودية للشمس . وكان المشهد عبارة عن مجموعة من السهول المنبسطه والألوان الزاهية الصافية . كما تبدو الرمال من بعيد ناعمة بدرجة تبدو وكأنها تطلق ومضات خافتة . ويمكن تشبيهها بالموجات الصغيرة وهى تتكسر فى رفق على الشاطىء ، فما يبدو للرائى من بعد وكأنه طبقة من اللون الأحمر القانى يتحول عند الاقتراب منه الى مزيج من اللونين الذهبى والأخضر . كما أن الرياح التى تهب من الشمال على المرتفعات تغمرها بسيول من الرمال تتراكم على أطرافها ، وعن طريق ذلك تتكون منطقة منبسطة على امتداد الأطراف المرتفعة للمنطقة ، ومنظرها عن قرب يشبه منظر الخوذات الاغريقية لأبطال فلاكسمان . أما اذا نظرنا اليها من مكان بعيد فسوف نجد أن تعرجات الكثبان تبدو كحوائط مدينة أقيمت على أحد التلال .

كانت عشية عيد الميلاد ليلة حافلة بالمتعة ، ولقد وصلنا المخيم متأخرين ، وما أن وصلنا حتى عقلت الجمال وساقها أصحابها الى مناطق العشب ، وكانت أصوات المرافقين وهم جالسون الى مواقد النار تصل الينا . وفجأة سمعنا صراخا كأنه نعيق البوم أو عواء أحد السباع[1] وقد أثار ذلك الصوت صفوف القوم وامتلأ المخيم بالصخب . واذا بأحدهم يصرخ (القوم .. القوم) أى الغزو وسرعان ما تقلدوا بنادقهم كما جاءنى خادمى ببندقيتى ومعها حزام الذخيرة . وقد خرج العوامر والقرا وهم يصرخون (مستعدون .. مستعدون) اننى فلان[2] ابن فلان ومن القبيلة الفلانية .

---

(١) .. السباع مفردها « سبع » وهو كل حيوان مفترس غير مستأنس للانسان .

(٢) .. فى شبه الجزيرة العربية ينادون الرجل باسم ابنه وهو تعبير

وهؤلاء جماعتى أن المسئول عن حمايتهم . وكان أشد من اعلان اللقب هو تعريف الجماعة التى هى من نفس القبيلة على الطرف الاخر . لأن مجرد ذكر اللقب كما يقال يكفى لتحقيق الأمان لصاحبه .

أخذ أفراد مجموعتنا يجرون تمالا وبميلا على الرغم من أنهم لم يكونوا متواجدين فى الليل مع بعضهم البعض . وخشيت أن يختلط الحبل بالذيل فيظنون أن الصديق هو العدو والعكس بالعكس . وبعد نحو ساعة من الوقت على ذلك الصوت لم يحدث شىء . بل لم يتكرر الصوت على الاطلاق . ومع ذلك فان رجال القافله لم يطمئنوا تماما . ولهذا ظل رؤسائهم متيقظين طوال الليل وفى أقصى درجات التأهب والاستعداد . والواقع أننى كنت متعبا جدا . وكنت أود أن يتمخض ذلك الصوت عن أى حادث مزعج . أو أن يكون مجرد صوت بعض الحيوانات المفترسه وليس صوتا من بعض الأعداء . ولهذه الأسباب فاننى لم اشترك فى حاله التأهب التى كانت تسود المخيم .

وقد ظهر أن افتراضى كان صحيحا . وفى اليوم التالى صباحا . اكتشفنا آثار أقدام بعض الذئاب بالقرب من المخيم . ولكن عواء الذئاب يشبه عادة الأصوات التى ترددها فرق الغزو عند قيامها بهجوم .

ونتيجة للانطباعات التى استفدت منها فى هذه الرحلة فقد عرفت أن تخطيط الغارات التى يشنها البدو . تتطلب من المسافرين الى الصحراء أن يدرسوها دراسة واعية . وقد يكون فريق الغزو القادم من الأصدقاء ولكن لابد من الافتراض بأنه قد يكون من الأعداء . ولو أن عواء الذئب الذى سمعناه فى تلك الليلة كان صوت أحد القوافل المغيرة . وكان الرد من جانبنا

ـ بعير من الاعزاز الذى يطلق على ابوة الأولاد الذكور . وكان السيد تيمور بن فيصل سلطان عمان يوقع رسائله الخاصة باسم أبو سعيد .. وسعيد هو نجله وولى العهد .

هو اطلاق الرصاص على الجهة التى صدر منها الصوت، لكان مثل ذلك الاجراء كفيلا بأن يردع أى جماعه مغيره مهما كان عددها . ولكان فى وسع الأفراد المتمتعين بمبدأ الأمان والموجودين معنا أن يعلنوا عن أسمائهم وأسماء قبائلهم كما فعل من قبل بعض أفراد قبيلة الكرب . وكان لابد لأولئك أن يحصلوا على الأمان من القبائل . لأن القبائل تعرف بعضها البعض من لهجاتها الخاصة وفى تلك الحالة فسوف يتعين على أفراد الطرف الآخر أن يعلنوا عن أسمائهم أيضا . وعندما يتم تبادل الأمان بين الفريقين . ويتقدم الفريق الأول الى الفريق الثانى يتم اللقاء بينهما دون سفك الدماء .

كما أنه اذا التقى فريقان من القبائل أثناء النهار فان العناصر التى تتمتع بالأمان من الطرفين سوف تتقدم نحو مائة ياردة من بعضها البعض وتعلن عن نفسها ثم تتلقى الرد من الطرف الآخر بالمثل . بينما بقية المجموعات تبقى فى أماكنها فى انتظـار النتيجة .

أما فى حالة اكتشاف فريق من الجانب المعادى فان العناصر التى تتمتع بالحماية من أحد الأطراف ، سوف تنتقل الى زملائهم . وفى تلك الحالة سوف يطلقون بعض الطلقات من مسافة بعيدة . أو فى حالة اللقاء المفاجىء بين خصمين من القبائل فستقوم القبيلة التى التقت بالفريق المعادى بعمل جمانها . والاتجاه الى الفريق القادم واطلاق النار عليهم . والغرض من اطلاق النار فى كلتا الحالتين هو فقط لارهاب الطرف الآخر .

أما اذا كان أحد الطرفين أكثر عددا وأقوى تسليحا فان الغلبة سوف تكون له وفى تلك الحالة سيستحيل على الطرف الآخر (الأضعف) أن يتفهقر أو يلوذ بالفرار وما عليه الا أن يستسلم ، ولكن اذا كان الفريق المغير على درجة أضعف من القوة فان قتالا طويلا سوف ينشب بين الطرفين الى أن تنفذ ذخيرة أحدهما . اذ أنه طبقا للقوانين المعمول بها بين القبائل فانه لا يجوز لفريق أن يستسلم لفريق آخر قبل أن يطلق آخر رصاصة يملكها .

أما اذا كان الفريق المهاجم يتمتع بقوة ساحقه فان المعركه تنتهى بابادة الفريق الأضعف .

ان على الجانب الأضعف أن يستسلم للمهاجم فقى ذلك الأمل الوحيد لبقائه . ولفظة « سلمنى » هى التعبير المتداول هناك عن رغبه أحد الطرفين فى الاستسلام بشرط أن يرفع بندقيته على رأسه أو يلقى بها فى الأرض . وعلى الطرف الآخر المنتصر اذا شاء أن يبقيه على قيد الحياة بأن يخاطبه بعبارة « فى وجهى » أى أن يمنحه الأمان على حياته .

أما اذا توقع شخص من الشخص الأقوى قدرا أكبر من الرأفة فإنه يتقدم اليه ويقول « سلمنى مع بندقيتى[1] وخنجرى وجملى » ولكن مثل هذه المحاولة تنطوى على الخطر . فقد لا يقبل خصمه أن يمنحه كل ذلك الأمان . وان أقصى ما يمكن أن يحصل عليه من خصمه هو أن يبقيه على قيد الحياة ، حتى يستطيع العودة الى أهله ، أما اذا لقى أحد المهاجمين مصرعه فسوف يتم تطبيق شريعة الثأر ، وتذهب حياته هدرا ، وكذلك فى حالة عدم اجابة خصمه لطلبه ، فإن الرأفة تصبح فى حكم المستحيل وسوف يترتب على ذلك أن يكون الفريق المغير من أحد فئتين : الفئة الأولى هى التى لا توجد بينها وبين القبيلة الأخرى ثأر أو دم .. والفئة الثانية هى التى يوجد بينها وبين القبيلة الأخرى ثأر . ولكن كلا الفئتين سوف يطالب بحياة الشخص وبأسلحته وجماله .. ونحن نغادر المخيم قل خويتم : الله أعلم ما اذا كانت هناك قبيلة واحدة تبادلها الأمان . وقد تكون تلك القبيلة هى قبيلة الصيعر .

غادرنا المخيم المهدد (الذى قيل أنه يقع شمال وادى عربوت) متوجهين

---

(١) .. اكتشفت ان كلمة بندقية (جمعها بنادق) شائعة الاستعمال فى منطقة الرمال . الأمر الذى يؤيد ما جاء فى ملاحظات « بول » من ان اللغة الهندية تستمد بعض عباراتها من اللغة العربية .

الى الكثبان التى تعتبر أعلى وأكبر كثبان الرمال التى رأيناها على الاطلاق وهى رمال عرق الدحية .

وخلال الساعات الأربع الأولى كنا نمر على سلسله من المرتفعات والممرات الرملية وقد اضطرت الجمال لسوء حظها أن تتسلق تلك القمم الشديدة الانحدار ، وكانت أخفافها تنزلق بين حين وآخر ووسط الخوف والقلق أخذنا نبحث عن ممرات أفضل من تلك . فنزلنا من على ظهور الجمال . واخذنا نبحث فى تلك المرتفعات الناعمة عن موطىء يصلح لأقدام الجمال ، كى تستطيع الصعود هى الأخرى . وكنا أثناء تحركنا تلمس الرمال كواحل أقدامنا فى كل خطوة نخطوها ولم تعد الأحذية تفيد ، كما كان الركوب غير ممكن . لأننا كنا نضطر الى الانحناء عندما نمر على مواقع حادة الأطراف . كما أننا لم نكن نستطيع ان ننظر الى تحت لأننا كنا على ارتفاع يصل أحيانا الى ١٠٠ قدم أو يزيد على ذلك فقد كانت الجمال تواصل السير فى وجه كل الصعوبات بينما كانت أخفافها تغوص فى الرمال فتثير سحبا من الرمال حين ترفعها .

ولا يمكن للخيول أن تمشى فى تلك الرمال ، وان كانت تستطيع السير عبر الرمال الصحراوية الحمراء ، أما السيارات فيستحيل عليها السير فى تلك المنـــاطق .

وفجـأة وصلنا الى احدى المناطق بعد أن انتهت كل المتاعب التى عانينا منها أثناء سيرنا فى تلك المنطقة . وكانت المنطقة الجديدة التى وصلنا اليها آية فى الجمال وابداع الطبيعة ، لقد كانت صورة تمثل الألوان الصفراء وجمالها فى ذلك الأفق الذى كانت أضواؤه المشرقة تختلط بصفاء تلك الألوان . لقد كان منظرا من أروع المناظر التى رأيتها وربما لا يضاهيه فى سحره وجماله غير منظر الشتاء على جبال سويسرا .. إنها السعادة التى تمنحها الأرض للانسان فتضفى على نفسه قدرا كبيرا من البهجة والاستمتاع .

وأخيرا وبعد أن علمنا أحد الشبان ويسمونه ثرب بن يمنى وادى قيل أنه يقع فى منتصف المسافه بين حور الدحيه وعين بن حموده .. الملحه التى تقع على الشمال الشرقى وهناك نحسب الطريق يعبر خط سير منحرفين الى الشمال من الوديان الرمليه التى تؤلف فى تلك البقعه محورا شماليا شرقيا بين الكثبان .

قبل الغروب حسب العوم التوقف حيث وصلت القافله الى حور الدحيه وبعد نزولهم عنوا الجمال . أما أنا فقد ذهبت الى التل القريب منى وأخفيت نفسى عن الجماعه لكى أتمكن من القاء نظره على ذلك الوادى الهائل الذى قيل يمتد الى ماوراء الشمال الشرقى والجنوب الغربى وكان يبلغ عرضه فى تلك البقعه نحو ميل واحد . وعلى ضفته التى كانت تحتنا على انخفاض ٣٠٠ قدم شاهدت رقعة خضراء وهى عين الماء المشهورة التى سألتقى فيها بالشيخ صالح كسابق اتفاقنا ومعه مجموعة جديدة من الرجال والإبل فى اليوم الرابع من الشهر القمرى . ولكن هذا كان اليوم الخمس ومعنى ذلك أننى تأخرت يوما واحدا عن الموعد المتفق عليه . فلم أجد أثرا لصالح أو لأحد من رجاله .

من هناك انحدرت الرهيب يخيم على السهول الجرداء . ولقد رأيت من المناسب أن نتوقف بسرعة عند مرعى صغير . وقد خرج اثنان من رجال القافله لملء قربهما بالماء ولاستطلاع أخبار المنطقه . وقد تناولت منظارى وأخذت أراقبهما وهما يبتعدان عن المخيم . ولقد تملكنى الخوف من أن يكون هناك أشخاص يتصيدون لنا فى احدى المنطق القريبه . وقد عاد البدويان من جولتهما بعد غروب الشمس وقد مكثا هناك فتره لتفتيش المنطقه القريبه والتأكد من أنها خاليه من الأعداء وقد أبلغانا بأنهما لم يريا آثارا لأى جماعه هناك وبأن المنطقة لم يدخلها أى انسان منذ زاراها قبل شهرين من ذلك الوقت . وغالا أيضا أنه من المحتمل أن يكون أحد زملاء الشيخ صالح قد مر بالمكان وأبديا استعدادهما أن يدلانى على آثار أقدامه تأكيدا لما قالاه .

(مواقع من الحبس بين رمال الحنوب)

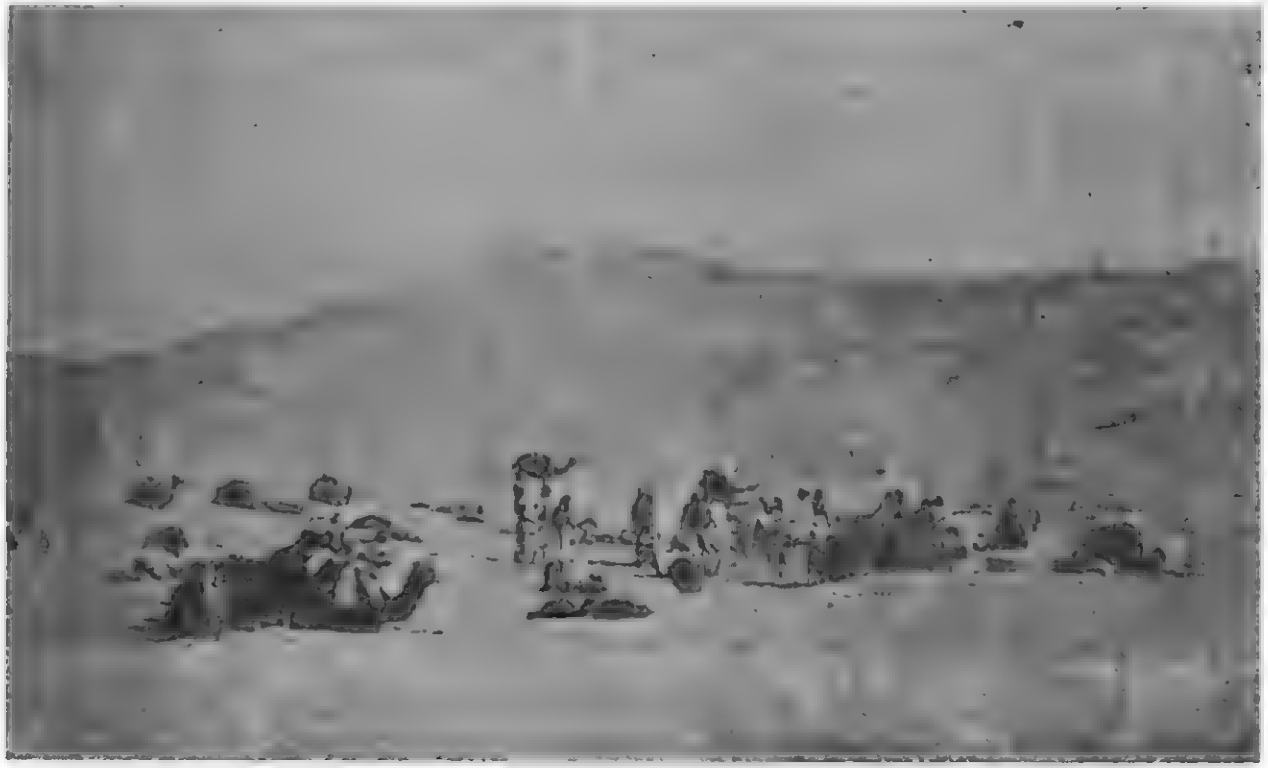

(بئر عند خور زاهية)

كان العشاء هو عيد الميلاد يتكون من حساء أعد من الماء المسخن الذى زودنا به من حوض تدفئة وبعض من هناك حجه الى اضافه ملح عليه . وشطيرة مصنوعه من النوع الذى كنت أحتفظ به لمثل تلك المناسبات . ولم أكن أتناول وجبه الغداء لأننى اعتبرتها فى تلك الظروف نوع من الترف لاداعى له . كما كان موضوع التوقف فى أوقات الظهر لتناول طعام الغداء أمرا غير وارد فى تلك المرحله ووسط منطقه صحراوية جافه تتطلب تحركنا متواصلا من مرعى الى آخر . وكنت أستعيض عن وجبه الغداء بلبن الناقة الذى كنت أحتفظ به فى ترمس مع بعض أقراص اللبن الجافه وكنا نتوقف لبعض الوقت لفترات قصيره لرعى الجمال ولكى يؤدى البدو صلاتهم . وكنت أنتهز تلك الفترات حتى أشرب اللبن .

تعتبر فترات التوقف فى رحلات الصحراء مسأله هامه بالنسبة الى الجمال . فهذا الحيوان البائس الذى قد لا يعرف الانسان قدره فى بدايه الأمر . لكن سرعان ما يعجب به عندما يكتشف أنه الوسيله الوحيدة لتحقيق أهدافه . او للفرار به للنجاة اذا داهمه خطر . وفى بعض مناطق الصحراء قد يصاحب الجمل يموت اذا مات جمله . كما أن الرعايه والاهتمام اللذين كان المرافقون يحيطون بهما جمالهم كانت تثير الاعجاب . وكثيرا ما كان أولئك يبرلون من على جمالهم ليسيروا على أقدامهم عده ساعات لتوفير بعض الراحة للجمل . بينما يستثنونني من ذلك كضيف عندهم . كما كانوا يقدمون للجمال بعض الأوراق والأعشاب فى اثناء الرحله . وأخيرا ظهر التعب على جمال القافلة . فعند خروجنا كانت أسنمه الجمال منتفخة وكبيره لأن حجم السنام هو أداة القياس لحالة الجمل . ولتلك الأسباب تضاءلت أسنمة الجمال وصغرت من طول المسير . وكان ذلك أمرا مفروغا منه بعد رحلة استمرت ثمانية أيام . زد على ذلك الحمولات الثقيلة التى كانت تحملها الجمال عبر تلك المناطق القاحلة .

صبيحة اليوم التالى دب النشاط مبكرا فى مخيمنا وقام البدو باقتياد الجمال الى عيون الماء . وقد بدا على الجمال أنها قد أحست بذلك . وأخذت

أنا أيضا طريقى الى العين متجنبا منظر البدو وهم يسوقون الجمال بطريقتهم البهلوانية . وعند الوصول الى بطن الوادى وجدت الجمال تشرب وسط صيحات الابتهاج التى لا تسمع الا فى مثل تلك المناسبات ، وكان قطر فتحه العين لا يزيد على ياردة واحدة وتحيط بفتحتها أكوام من الطين[1] غير أن بعض البدو تولوا تنظيفها من الأتربة المحيطة بها . وعندما كنت أنظر الى العين رأيت أحد البدو يملأ قربته بالماء كما رأيت أحد أفراد قبيلة الكرب يسقى جمله من دلو يملؤها أكثر من مرة الى أن روى البعير من الماء ورفع رأسه اشارة الى ذلك . ثم قام البدوى برش باقى الماء على عنق الناقة .

وقد سألت عن الشيخ صالح ومجموعه الجمال التى اتفقت معه على تجهيزها وقد مضى اليوم كله وأنا أفكر فى الشيخ صالح ولو أن نجله « كلفوت » كان مستعدا للاجابة على سؤالى عن مكان أبيه . وكان رأيه أن خور الدحية منطقة معروفة بأنها غير آمنة لأنها منطقة ترتادها قبائل الغزو وهى فى طريقها من حضرموت واليها كما أنها تتخذ منها قاعدة لنشاطها وكما شاهدت بنفسى ، فانها من المناطق التى لا توجد بها مراع .

غادرنا مورد الماء عند الغروب فدخلنا منطقه رمليه مرتفعة ومنبسطه وكانت بها مراع كثيفة ، وان كان قد قيل لنا بأنه يوجد أحسن من تلك المراعى . فقلت ربما يكون الشيخ صالح فى انتظارنا فى تلك المناطق ولذلك أسرعنا فى السير . فقام بعض البدو بمحاولة استطلاع وبحث فى المنطقه الواقعة مباشرة أمامنا بحثا عن الشيخ صالح . وقد عادوا وعليهم علامات الارتياح لأنهم شاهدوا آثار أقدام (محمد بن هادى) أحد أفراد قبيله مره الذى كان قد رشحه الشيخ صالح ليعمل دليلا عندى ويتكفل بحمايتى . كما شاهدوا آثارا أخرى لعدد من الجمال قدروها بنحو عشرين . وقد بعث ذلك الابتهاج فى نفوسنا لأن الجمال كانت فى غاية الإرهاق والتعب ولم يعد فى امكانها مواصلة السير بحمولاتها لثلاثة أيام أخرى قبل أن تستريح .

---

(١) .. لقد سمعت بأن الاهالى يستعملون ذلك الطين لانشاء قناة حول تلك العيون وذلك فى فصل الصيف .

وهنا أخذ المرافقون يقولون انظر أيها الصاحب : تلك هى قدم فلان وهذه قدم فلان .. وكانوا يشيرون بأيديهم الى آثار بعض الأقدام التى نم أرها تختلف عن غيرها من الأقدام فى شىء .. ثم قال أحدهم : ان هذه الأقدام هى أقدام ناقة وكان صاحبها يقودها وكان يرافقها وليدها . انظر الى آثارها الغائصة فى الرمال ولقد استغربت من دقة أوصافهم لآثار أقدام البدو الذين مروا من تلك الطريق ومن الطريقة المدهشة التى كانوا يحددون بها تلك الآثار ، وعندما نقارن طريقة البدو فى اقتفاء الأثر بالطريقة فى الغرب والمبنية على فحص البصمات فان الطريقة الغربية تبدو أكثر بطئا كما تحتاج الى جهد أكبر .

إن الرمال بالنسبة للبدو هى أشبه فى نظرى بجهاز التقاط الاشارات ؛ فالبدوى أيا كان سنه هو الشخص الوحيد الذى يمكنه حل ألغاز الصحراء ؛ وبما أنه لم يتعود على انتعال الحذاء ففى امكانه من النظرة الأولى أن يعرف أى جمل أو ناقة من النظرة الأولى من آثار أقدامها بل وفى امكانه أن يعرف القبائل الأخرى صديقة كانت أم معادية من آثارها ؛ فلا يطير طير أو يتحرك وحش أو حيوان أو تدب حشرة على الأرض .. الا ويعرفها . وعلى أية حال فان آثار مثل تلك الحيوانات والهوام قد تختفى من الرمال بمجرد أن تهب عاصفة أو زوبعة على المنطقة ولكن سبب هلاك الحيوانات أرنبا كان أو ثعلبا أنما يكمن فى تلك الآثار ، حتى ولو تمكنت الحيوانات من الفرار أو الاختباء فى أوكارها وجحورها .

وهكذا غدت الصحراء بما كان على أديمها من آثار باهتة لبعض القبائل الصديقة هى دليلنا فى تلك الرحلة فى اتجاهاتها الصحيحة والعودة ثانية الى حيث خرجنا من الشمال الشرقى مارين بالكثبان الوعرة ، وقد أخذ ميزان المرتفعات الذى كان معى يشير الى الانخفاض . وقد تسلقنا قمة بعض الكثبان لأستطلع المنطقة بحذر شديد بحثا عن مخيم الشيخ صالح وفجأة

سادت جمعنا روح المرح عندما اكتسفنا بعض البقع السوداء قيل لنا بأنها العلامات التى تؤكد اتجاهنا الصحيح .

ولقد ضاعف ذلك الأثر من سرورنا وتفاؤلنا بالمرحلة التالية لأنه سوف يصبح فى استطاعتنا أن نتحرر من ضغط المسيرات الطويلة المرهقة مستبشرين بأنه تهيأت لنا الوسائل الكفيلة بانجاح هدفنا وهو الوصول الى بحر الرمال .

(عين ماء فى خور زاهية

الفصل الرابع عشر

ملاحظات جغرافية على الربع الخالى

والآن أود أن أقطع الحديث عن الرحلة لأناقش فى هذا الفصل ولو باختصار موضوع الربع الخالى من حيث طبيعته وتكوينه الجغرافى .. وبهذه المناسبة فانى ألفت نظر القارىء الى الخريطة التى أعددتها عن المنطقة والمرفقة بهذا الكتاب .

ان المنطقتين الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة العربية والمحصورتين بين خط الطول ٤٨° شرقا وخط العرض ٢٠° شمالا وبخط الطول ٤٦° جنوبا . هما باستثناء الحزام الساحلى الضيق ما أرمز اليهما فى خريطتى بالربع الخالى .. والترجمة الانجليزية لتلك اللفظة ترجمة حرفية من حيث التطبيق ولكنه الاسم المفهوم لدى المثقفين العرب الذين كونوا معلوماتهم الجغرافية من كتب المناهج الدراسية فى الجامعات .. أما قبائل الربع الخالى وحدها فانها لا تعرف شيئا عن هذا الاصطلاح ولا تفهمه بمعناه الجغرافى المعروف به لدى المثقفين .

ويتألف الربع الخالى من الصحراء بشقيها الشرقى والجنوبى . والسهول فى الربع الخالى تشكل ثلث المساحة . أما المنطقة الباقية فهى محيط من الرمال يمتد الى أقصى الشمال والغرب ، أما السهل الجنوبى منه فيسمى « النجد » ويسمى سهله الشرقى « السبخة » بينما تقع على جنوبه حدة الحراسيس .

أما الأجزاء الرملية منه فتعرف باسم الرملة أو الرمال . وتعتبر القبائل فى الربع الخالى جماعات مستوطنة ، وجميع مناطق الربع الخالى من السهول والرمال تسمى بأسماء خاصة بها وقد يحدث أن تسمى منطقة ما باسم القبيلة التى تستوطنها . ولكنها فى أغلب الأحوال تسمى باسم

الأوديه[1] التى تجرى فيها . أما الطرف الجنوبى للربع الذى قطعته فى رحلتى الاولى والثانيه على امتداد مسافه ٢٠٠ ميل تقريبا . فقد أشرت اليه فى الخريطه بأنه يمتد موازيا للشاطىء الجنوبى من شبه الجزيرة العربيه من منطقه « مقشن » الى الشمال نحو « حضرموت » . ثم يأخذ فى الانخفاض من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى الشرق ؛ أما طرفه الشمالى فانه يمتد من شمال الشمال الشرقى لمقشن على امتداد مسيرة أربعة أيام حتى قرن السحامة .. ثم ينحرف منها نحو الشمال على امتداد خط طول ٤٠ر٥٥° درجة الى مسيرة يوم حتى غرب عبرى . ومنه يخترق جانب الغربى من جبل « حفيت » ومنه يواصل امتداده حتى صحراء عمان .. أما فى نطاق حدوده الرملية عند سلسلة جبال عرق الدحية . فإن الربع الخالى يشكل سلسلة شبيهة بحدوة حصان هائلة تتركز قاعدتها على الحدود الجنوبية الوسطى فى المناطق التى تسمى أم غارب . خرخير . عرق الدحية والرجحيت . بينما تمتد ذراعه الغربيه الى خط الطول ٤٩° شرقا حتى خط العرض ٢٠° شمالا على وجه التقريب بحيث يطوق مناطق المجمدات ؛ لحويه ؛ الشويكلة . بينما يمتد ذراعه الشرقى على خط الطول [illegible] والطميشة والشعيبة والمريخة .

وضمن حدوة الحصان التى أشرنا اليها تعيش القبائل التى تقيم بصفه [illegible]

---

(١) .. ان لفظة (وادى) والذى يعنى هنا مجرى ماء تعنى عند البدو منطقة للرعى او مرعى — اكثر مما يعنيه المكان . والوادى الكبير (وهو لفظ له صلة مغربية فى التعبير الأسبانى) تعنى باللهجة الدارجة « المرعى الجيد » . وليس بالضرورة واديا او مجرى مائيا كبيرا .

أما خارج هذا المثلث أو الحدوه وفيما بين أطرافه وعلى السهل فتوجد مناطق الحدود الرمليه التى تستوطنها حسب فصول السنة قبائل معينه من سكان السهل . أما فى الشرق فتقيم قبائل (آل بوشامس ، والدروع ، والحراسيس ، وعفار) وفى الجنوب تقيم قبيلة بيت كثير والمناهيل والعوامر والفضائل ، والصيعر والكرب ، ولكنها تقيم فى مناطق مأمونة عند عيون الماء التابعة لها[1] ان القراءات التى سجلتها عن ارتفاعات الربع الخالى خلال رحلتى التى امتدت نحو ألفى ميل وشملت المناطق الشمالية والجنوبية الشرقية والجنوبيه الوسطى . وكذلك قراءاتى عن مواقع ضفاف الأوردية — (إما عن طريق ملاحظاتى الشخصية ، أو عن طريق المصادر المحلية) جميع تلك القراءات أسهمت فى تحديد منخفض ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربيـــة .

ان التركيب الجغرافى لجزيرة العرب ، والذى يتصاعد فجأة على الجانب الغربى من البحر الأحمر والشقوق الجلافية للبحر الميت يأخذ فى الانخفاض التدريجى فى اتجاه الشرق نحو سهول العراق ومياه الخليج ، ولكنه لا يصل فى امتداده الى الربع الخالى . فمن ذلك الموقع تبدأ الأرض فى الارتفاع فى اتجاهات ثلاثة : من الشمال الشرقى (وهى سلسلة جبال الحجر فى عمان) ومن الجنوب الأوسط (ظفار — المنطقة الجنوبية) ومن الجنوب الغربى جبال حضرموت ونجران . أما منخفضات الربع الخالى . فهى سواحل الخليج والبحر العربى على الجنوب الشرقى للصحراء . وواضح من هذا التحديد أن الرمال تأخذ فى الانخفاض نحو الخليج من زوايا ثلاث . مما يترتب عليه وجود منخفض فى الجنوب الشرقى الأوسط من المنطقة .

إن ارتفاعات الطرف الشرقى للرمال التى تم تحديدها بالفعل هى على وجه التقريب على النحو التالى : فعلى البروز الشمالى الذى قطعته فى

---

(١) .. توجد جزيرة رملية على الجانب الشرقى من مثلث جعلان تستوطنها قبائل آل وهيبة .

عام ١٩٢٦ كان الارتفاع ١٢٠٠ قدم وعلى الجانب الغربى من جبل حفيت كان الارتفاع نحو ١٠٠٠ قدم بينما كان تحديد السير برس كوس للارتفاع المذكور فى منطقة عبرى هو ١٦٠٠ قدم وبالتالى فان أطراف الرمال الشرقيه عند ذلك الارتفاع مع انخفاضها على الجنوب الغربى عند وادى العين تكون أكثر انخفاضا ويصل الارتفاع فى منطقة رمال مقشن الى ٤٠٠ قدم .

ومن ذلك يمكننا الاستنتاج أن الطرف الشرقى من الرمال منخفض بين الشمال والجنوب والى الشرق من الحافه الشرقية للرمال يقع سهل يرتفع تدريجيا الى الجهة الشمالية الشرقية لسلسلة جبال الحجر التى كانت هى العمود الفقرى لجغرافية عمان حيث تتحد أوديتها الأربعة وهى : العين . والأسود . والعميرى . ومسلم .. مسارا موازيا تقريبا للخط الجنوبى الغربى حتى مصبها داخل حدود الرمال الشرقية ، والى الجنوب الشرقى من مقشن توجد مرتفعات أخرى لم يتضح سهلها . وان كان من المعتقد بأن سلسلة جبال الحفوف تحده من الشمال الشرقى مجموعة من الأودية هى على التوالى : غيدون ، أدونب ، هيتم ، (وكنت فى عام ١٩٢٨ قد عبرت مصب تلك الأودية على مستوى البحر) .. التى تتدرج فى الانخفاض حتى مداخل الجنوب الشرقى فى خليج صوقره .

ومن الناحية الجنوبية الغربية تستقبل جدة الحراسيس مياه وادى « أرو » وهى مياه السيول التى تتدفق على امتداد الجانب الشمالى لجبل سمحان . وعندما قطعت ذلك الوادى فى رحلتى الأولى لاحظت أنه يجرى فى اتجاه الشمال الشرقى . وفى ذلك الوقت سجل جهاز القياس ارتفاعا يتراوح ما بين ١١٠٠ قدم الى ١٤٠٠ قدم على المنطقة الغربية للمنطقة . أما فى المنطقة الشرقية لجبال الحفوف فإن أهم الأودية الموجودة فى تلك المنطقة هى : وادى حلفين ووادى عندام وغيدون من سلسله الحجر الشرقى فى عمان حيث يحسب جزء منها فى خليج مصيرة على الجنوب .

وعلى هذا الأساس فان ثمة منخفضا على أقصى الطرف الجنوبى

الشرقى للرمل يكون مضيقا يمتد من الجنوب الشرقى ومن ساحل خليج سوقرة عبر جدة الحراسيس ومنها الى داخل الرمال على خط طول ٥٤° شرقا الى ٥٥° شرقا وخط عرض ٢٠° شمالا الى ٢٢° شمالا . وفى نطاق ذلك المضيق يرتفع منسوب المياه الى سطح الأرض فى منطقتى مقشن وغيداى والى الشمال من المضيق أيضا يأخذ السهل فى الارتفاع التدريجى نحو الشمال والشرق . أما من الجنوب فان أقصى الارتفاعات هى التى تقع على الناحيتين الجنوبية والغربية .

ومن الأمور ذات الأهمية الجغرافية . وجود الرمال المتحركه فى الجهه الشمالية للمضيق حيث تلتقى ببحر الرمال . أما « أم السميم » وهو الاسم الذى يطلق على الرمل المتحركة فانها تمتد الى مسيرة يومين فى كل الاتجاهات وتبدو تلك المنطقة للناظر اليها كأنها مستنقعات ملحية . فهى تخدع المسافر الذى يجهل طبيعتها الخادعة . وقد لقى كثير من الناس حتفهم فى تلك المستنقعات والقبيلة التى ترتاد منطقة المستنقعات هى قبيلة الدروع للبحث عن الملح . وهى القبيلة الوحيدة التى تعرف المناطق المجهولة لتلك المستنقعات . أما القبائل الأخرى أو القبائل المغيرة فهى تفضل الابتعاد عن تلك المنطقة .

وفى عام ١٨٤٣ نجح المغامر البافارى « فون ريد » من دخول تلك المنطقه متنكرا فى زى اسلامى . وقد لاحظ نفس الظاهرة فاشار الى أن تلك المنطقه تسمى بحر السافى . وقد اقترب من أحد المستنقعات ليسبر عمق ذلك المستنقع مستخدما حبلا طوله ست قامات . وقد كتب يقول . اقتربت من المكان بحذر شديد محاولا فحص الرمال . ووجدت أنها تتكون من تربة لا أعرف كيف أصفها وقد أدليت الحبل الى أقصى عمق ممكن فغاص على الفور وخلال خمس دقائق فقط اختفى طرف الحبل اذ التهمته الرمال .

ولا أريد أن أشكك فى صحة أقوال فون ريد . وان كنت أريد أن أسجل هنا بأن أغلبية المرافقين لى فى الرحلة سبق أن قاموا بغارات على منطقة

الرمال الواقعة شمال حضرموت كما أن قبيلة الكرب هى أصلا من نفس المنطقة التى نتحدث عنها . ولكن لم يكن بينهم واحد يعرف منطقة باسم « بحر السافى » ولكنهم أكدوا جميعا بأن الرمال المتحركة تقع فى منطقة أم السميم بين السهل الواقع بين الشمال والشرق من مقشن وجنوب عرب عبرى . وقد أدلى الىَّ عدد كبير من البدو فى عمان وغيرها بمعلومات عن تلك الرمال المتحركة .

الفصل الخامس عشر

عبر رمال الدكاكة - المجموعة الثانية من الجمال

حيا بوصولكم صاحب .. حيا بوصولكم صاحب .. مرحبا وحيا بكم ..

- بهذه التحية استقبلنى الشيخ صالح عندما كنت أسير فى الطريق الى المخيم وقد مددت اليه يدى مصافحا وأنا أنزل من على ظهر الناقة وكان مع الشيخ صالح شخص أعرفه وهو محمد السمين المرافق القديم الذى صحبنى فى رحلة العام الماضى . أما بقية الذين كانوا مع الشيخ صالح فلم يكترثوا بوصولنا . بل أخذوا ينظرون الينا بفتور ، الأمر الذى جعلنى أشعر بالخوف على مصير الرحلة . وأخذت أتساءل عما اذا كان هذا المكان هو النهاية لرحلتى وعما اذا كنت سأستطيع مواصلتها ..

ولكن ما ان تعايشنا مع هؤلاء القوم حتى بدأوا يعطون انطباعات أكثر ودا وأخذوا يحيون بعضهم البعض بالطريقة البدوية التقليدية وهى التقبيل على الأنف[1] وهى طريقة اثنين يتحابان ولكن بشكل أقل حرارة ، أما ثلاثة آخرون من المرافقين فقد أخذوا يحيون بعضهم البعض بتلك الطريقة ، وهى مس أنفه فى وجه صاحبه من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى اليسار ثم على الجبهة بينما يضع كل منهم يده على الكتف الأيسر لصديقه .

وعلى الفور عقد اجتماع على الأرض بين البدو المرافقين وطلبت من المسئول على الفور احضار التمر والقهوة ، وقد رمقنى أحد البدو بنظرة

---

(١) ان التقبيل على الانف بين سكان الصحراء يحل محل المصافحة باليد وهو تقليد متبع بين قبائل بيت كثير ، حتى ولو غاب بعضهم عن بعض لفترة لا تزيد عن خمسة او ستة أيام ، بينما البدو فى منطقة الرمال يحيون بعضهم البعض بتلك الطريقة ، حتى ولو التقوا بعد غياب يوم واحد ، اما قبائل المهرة سكان السهول فعلى الرغم من انهم يعدون من البدو الا انهم لا يتبادلون تقبيل الأنف وانما يتبادلون تقبيل الخد ثلاث مرات فى كل لقاء .

حاشته نفسى أسعر بنى ست فى تلك اللحظة موضع اختبار الحاضرين وقد أخذوا يتحدثون فى همس مع زملائهم القدامى وقد ظهر البدو الجدد بعيدا عن الشر لموضوع بندهم الشهود والنمر عندما أدير عليهم وهو بنى، غير مألوف عند أولئك القوم الذين من عاداتهم أن يظهروا إصرارا عجيب على تناول المشروبات خلال رحلتى الأولى ومن الأسباب التى لاحظتها هى تدبيق سيدا الدست أولا .. وعلى أنه حال فإن الشهود لبست القدر المعد فى ست المناسبة الرسمية ، ويقى شىء منها لكى يتناوله زملائى .

مرحب .. وبه حياتكم .. هكذا بدأ سيف القديم والزعيم الشرعى لقبيلته[1] حديثه على الرغم من أن قبيلته تعتبر من مستوى أدنى (ولقد اختير لزعامتها فيما بعد رجل من قبيلة ، ثقوث ، ولم تكن مسيحته من ممتلكة الرأى ولكنه انتخب لتفوقه وشجاعته وحزمه) وقد أدار دهشتى عندما انتزع حزام خرطوسه أمام الحاضرين . وقد كانت تلك دعوة لزملائى الذين كانت زيارتهم للسواحل وسباستهم خلال رحلات العديد قد جلبت لهم بعض الطلقات لكى يتنازلوا عنها لزعيمهم المسن . وقد أخذوا الواحد تلو الآخر يلقون طلقاتهم على الأرض . وعندما فرغ الجميع من ذلك كان لدى الشيخ سيف عشر طلقات .

إن الشيخ صالح لم يخيب ظنى فقد جاء ليعرض بحدى المخدات البارزة وكانا سيران وقد أخذهما فى يد الآخر . وقال الشيخ صالح . هذا أحد الشيوخ أيها الصاحب . وهو شيخ مرد . وقد جئت به لدعم مركزك وأنت فى الصحراء . ولا يوجد دليل أفضل من حمد بن هدى فى كل منطقة الرمال كما أنه لا يوجد مضلل أحسن أو حسود أمير أو مرافق وفى منه . وانى لأشهد على ذلك والا لما زوجت أخى من ابنته . كما لا يوجد شخص أعلم بالمراعى وعيون الماء من حمد . فهو يعرف الطرق عبر الرمال وقد وافق أن يكون كفيلنا فى الرحلة .

---

(١) .. اذا اعتبرنا مسلة ست بمانى غير مدرجة فى مجموعة قبائل الرواشد وقد اصبحت الفضيلى مستقلين ، فسعير هذه القبيلة من مجلس المعرفة والسعدنة » والتى يرأس الشيخ سيف الأخيرة منهما .

كان حمد معتدل القامة أسمر له عينان براقتان ووجه أشبه بوجه الصقر . وله لحية كثيفة . وكان لصوته رنين غريب يدل على شخصية أقوى من شخصية الشيخ صالح الا أنه لا يمكن من النظرة الأولى أن يطمئن اليه المرء أو يوليه ثقته . فسكان الصحراء مثل الأطفال من ناحية انه لا يمكن الحصول على ثقتهم قبل التودد منهم أولا . كما لابد أن أكون حذرا . ان حمد الذى لم يسبق له أن شاهد شخصا لونه كلونى أو استمع الى لهجة غريبة . لا يبدو أننى لن أثير شبهاته . ولهذا قررت أن أرفع الكلفة بينى وبينه طمعا فى اكتساب ثقته . ومن هنا كانت مقابلتى الأولى له لا تتعدى تناول القهوة وتبادل الأحاديث العادية . تركزت معظمها حول شئون الصيد . وعلى نفس المنوال كان اجتماعى الثانى به والذى أنهيته بتقديم « هدية » لنجله .

فى اليوم التالى سألنى الشيخ صالح : ما هو تقييمك لحمد ؟ فأجبت بأنه الرجل المنشود . فقال : ألم أقل لك ؟ ولكنه يطلب أتعابا كبيرة أيها الصاحب ؟ .

ان البدوى يضرب به المثل فى الجشع . وكنت قد اتفقت مع الشيخ صالح قبل مغادرتنا المنطقة الساحلية على تقدير أتعاب المرافقين . وها هو يسعى الى تطبيق بنود الاتفاق تطبيقا حرفيا . وذلك بمحاولة اقناع حمد بقبول الشروط التى نرى أنها شروط عادية وعادلة .

ان المرافقين بعد أن انخفض عددهم أصبحوا أكثر ودا نحوى . كما أن السلبية التى بدت من سلوكهم فى بداية الرحلة لم تكن أكثر من تطبيق للعناد البدوى .

والواقع أنهم تقبلوا المشقات بصحبة الشيخ صالح بناء على رغبتى . وكانت الخطة التى اتفقنا عليها هى أن يصحبونى فى المسيرة الى عين السنة على الجهة الغربية فى منطقة الدكاكة ومن هناك أعْقِد اتفاقا مع مجموعة أخرى بعدد أقل من الرجال والجمال لمواصلة الرحلة باشراف الشيخ صالح

لدى تقرر أن يسبقنى لاختيار تلك المجموعه وانصارى فى المكان نفسه بعد عشرة أيام من ذلك التاريخ اذا قدر الله ولم نصادف محن أو يصادف هو أحداً من الأعداء •

ولقد كانت المنطقة الجنوبيه الوسطى من رمال الدكاكه هى مفتاح الرحله خصوصا وأن تلك المنطقة قد شهدت نزول المطر فيها خلال العام الماضى . وبالتالى فلابد أن تكون قد امتلأت بالمراعى الكثيفه التى تجعلها ملتقى للقطعان والرجال ، كما ان ذلك سوف يشجع العديد من السكان البدو على التوجه الى تلك المنطقة رغبة فى الحصول على اللبن . كما سيتيح لى العثور على مجموعة جديدة من المرافقين . ثم العثور على مجموعة ثانيه فى منتصف متقدمه لترافقنى الى الرمال الداخليه ومنها الى المجهول •

ان منطقة الدكاكة كانت جافة ، وان الأمطار التى هطلت فى العام الماضى لو كانت هطلت على منطقة أخرى غيرها لتعذر القيام بعمليه تعبير مجموعات الرحلة . الأمر الذى لن يتأتى لى بدونه أن أقطع الربع الخالى على مراحل متقاربه زمنيا وبمعدات وأجهزة كالتى كنت أحملها •

ان يوم صرف المرتبات والمكافآت لرفاق الرحلة يكون عادة يوما مثيرا • ذلك أن انهاء عمل البدوى بطريقة ودية وبأسلوب يرضيه يعد من أسوق الأمور • كان المرتب المقرر لكل فرد خمسين ريالا بما فى ذلك أجر البعير . وأربعين ريالا كأجر لكل حمولة • وكان البدو قد قبضوا نصف مرتباتهم مقدما عند بدء الرحلة فى ظفار • أما النصف الباقى فهو الذى سيسلم لهم فى ذلك اليوم •

وبتلك المناسبة أخذت العملة الفضية من الريالات التى كانت مكدسه فوق مكتبى تلمع • وهى عملة نمسوية الأصل تحمل صورة الملكة ماريا تريزا النمسوية باعتبارها العملة المتداولة فى تلك المنطقة والتى لا تراها الا نادرا •

وبسبب الرنين الذى كانت تحدثه تلك العملة ، فقد تقرر ترتيب

لريالات فى أكداس مصفوفه من عشرين أو خمسه وعشرين ريالا لكل صف . وذلك تسهيلا للصرف . بحيث يتسلم كل فرد الريالات المستحقه له • وقد افتتحت عملية العدّ علىّ . ثم بدأ الجميع يعدون حصصهم من النقود . ويعود كل منهم ليقول أن نقودهم تنقص ريالا أو ريالين عن المبلغ المستحق له . وعندئذ يقوم شخص آخر من المرافقين بإعادة عد النقود الى أن يقتنع كل فرد بأنه قد تسلم مرتبه كاملا . ويبدو أن هذه الطريقة التى اتبعتها فى عدّ المبالغ هى التى سببت ذلك الارتباك •• بعد مضى ساعة تقريبا على تلك العملية كنت قد فرغت من توزيع النقود • وقد استلم جميع الأشخاص المدونة أسمائهم فى كشف الرواتب ما يستحقونه من رواتب ومكافآت •

وقد شعرت بالارتياح بعد أن انتهيت من ذلك . وحمدت الله على أن تلك العملية مرّت بسلام ، وفجأة سمعت ضجة وشجارا خطيرا مما جعلنى أتصور بأن العناصر التى كانت على علاقة أحسن بى هى التى كانت تسعى الى تعكير الموقف بافتعال مشاجرة بعد أن أدركت بأن عملها قد انتهى . ويبدو أن بعضها قد استدان شيئا من النقود من زملاء لهم • وبالتالى فان عملية تسديد تلك الديون كانت سببا فى كل تلك الضجه . وقد تطور الأمر الى تبادل الشتائم ثم الاحتكام الى السلاح . ولم يحسم الموقف الا بعد أن تدخل الشيخ صالح الذى جمع النقود كلها ووضعها فى كوفيته على الأرض . وأعاد توزيعها على المجموعة ، وهكذا عرفت كيف أن جهد يوم بأكمله قد ضاع سدى •

وأخيرا هدأ الموقف وان لم يتحقق الانسجام . لأن البدو عادوا يطلبون رويدهم ببعض المؤن بمناسبة رحيلهم للعودة ، واحتجوا بأن السوق لا لبن فيها . وان ذلك قد يعطلهم عن السفر ، وقد يموتون جوعا فى الطريق ان لم يتزودوا بشىء من الطعام . ولكنهم طلبوا أطعمة قدرتها بثلاثة أضعاف ما يعوزهم بالفعل . كما كان قرب حلول شهر رمضان من الأسباب التى دفعتهم الى طلب بعض المؤونة ، لأنهم يعوضون جوعهم طوال النهار بالتهام كميات أكبر من الطعام بعد الافطار . وقد تجمع عدد آخر من البدو .

ليسوا من رجال صفتى . وهم يتوقعون منى أشياء كثيرة . ولما كنت استعد الى مرحله أخرى من الرحله . قد تستغرق ستة أيام . فقد كان المخزون من الأغذية لا يكاد يكفينا لتلك المدة .

وهكذا أصبح الطعام بالنسبه لى أغلى من الذهب وتبديده بالصوره التى أرادوها كان يعنى فشلا ذريعا لمهمتى . وقد تطلبنى الاحتفاظ به جهدا كبيرا وكان هو الضمان الوحيد لى أمام أى مسئله تصادفنى . فكان لابد من حسن التصرف لان نفاد الطعام سوف يعنى نهايه رحلتى . من المألوف ألا يسمح للبدو الحلوب ان تمشى بسرعه لان ذلك قد يؤدى الى نضوب اللبن فى ضرعها . ومن وجود نوق غير حلوبه فى تلك الصحراء الشاسعة يعنى فى تحليلى النهائى أن نضطر الى ذبحها وأكل لحمها . واللجوء الى ذلك الحل يعنى سحب أكبر مورد للحياة الذى يمد الانسان بالقوة والحيوية والشباب .

كان لابد من نقل المخيم فورا لأنى تأكدت من أننى كلما أطلت بقائى . سوف حول أفراد عشائر من البدو أو غيرهم من الجياع الذين تلفظهم الصحراء من وقت لآخر أن يتخموا على حساب مخزونى من الطعام . ولهذا رأيت بأنه سيكون من الأفضل لو دفعت لكل منهم ريالين أو ثلاثة ليغادروا المكان . وقد لجأت الى نفس الإجراء بالنسبه الى صاحب الناقه التى كانت اركبها تلك الناقه الصبوره التى حملتنى من جبال الثرا . ونقرر الآن أن تعود الى مواطنها فى السهول الجنوبيه . وكانت السيده صاحبه الناقه من النساء اللواتى اشتهرن بالجمال والجاذبية فى المنطقة فقد وقع كثير من شباب البدو المرافقين لى فى غرامها .

والحقيقه أنه كانت هناك قصة حب تحكى عن تلك الفتاة ولسوف نعرف شيئا عنها عندما يتم الفصل فى مستقبلها فقد كانت لاتزال عذراء فى التاسعه والعشرين من عمرها وذلك شىء غير مألوف فى شبه الجزيرة العربية التى تأخذ بنظام تعدد الزوجات . والسبب ان أباها ابن عشيت كان مشهورا بين

عشيرته بالأنانيه والجشع • وقد سأله واحد من المرافقين لماذا لا تزوجها للصاحب وأخذ يمتدحنى قائلا : أنه شاب وقوى البنية ثم ألا ترى ما يمتلكه من أموال يمكنك أن تشترى بها كل جمال الربع الخالى •

ولكنهم فى غيابه يتهمونه بالبخل وكانوا يعدونه من أغنياء المنطقة لأنه كان يملك خمسه عشر بعيرا . ولما لم يكن له أقارب من الذكور فان وحيدته هى وحدها التى ترثه . مما يطمع الناس فى الاقتران بها •

وفى أحد الأيام سألته بطريقه هادئه ومتزنة عن المهر الذى يطلبه لابنته : فقال : فلانة جمال[1] ثم اردف يقول : لماذا لا يطلب ذلك للمهر • وابنة (على) قد جلبت لوالدها نفس المهر رغم أنها أقل جمالا وحسنا من ابنته . وأنا أجمع على أن ابنته تستحق ذلك المهر ولكن حتى ذلك الوقت لم يعرض فيها أحد أكثر من جملين . ولذلك فانى أرفض تزويجها وهى راضية بوجودها معى . كان ذلك منذ سهر تقريبا ، ثم حدث أن شاهدت ابن عشكيت ومعيوف يجلسان أمام نار المخيم أكثر من مرة يتهامسان ، وأصبح حديث رجال القافلة بعد رحيل ناقتى بأن معيوف هو الذى سيفوز بالفتاة •

وعندما يريد أحد البدو أن يتحدث فى شئون خاصة مع زميل له . فإنهما ينتحيان جانبا بعيد عن المجتمعين ، ورغم ذلك فان حديثهما لا يسلم

---

(١) .. قيمه هذا المهر تذهب كلها الى والد الفتاة . ويتراوح مهر العروس البكر بين عشرين ريال و ٣٠٠ ريال عند بيت كثير سكان الجبل . وذلك حسب مستوى اسرة الفتاة وجمالها وثروتها غير ان نصيب والدها من المهر لا يزيد على النصف ويوزع الباقى على اقرب الأنساب . وقد سمعت ان احد العرسان دفع مهرا قيمته مائتا ريال وهو مبلغ يضع صاحبته فى اعلى السلم الاجتماعى . وتتم توزيع المهر كالآتى : الأب يحصل على نصف المهر اى مائة ريال والأخ ثلاثين ريالا • والأم عشرين ريالا ، والأخت لاشىء ، والعم عشرين ريالا ، والخال عشرة ريالات • والعمة خمسة ريالات ، والخالة اربعة ريالات .. واذا تزوجت الأرملة أو المطلقة فان قيمة المهر كلها تكون من نصيبها .. أما فى عمان فالعريس هو الذى يدفع نصف المهر مقدما الى والد العروس والنصف الآخر يدفعه على اقساط بعد اتمام الزواج والواقع ان قيمة المهر كلها تذهب الى العروس لشراء الحلى والمجوهرات والأثاث اللازم لعش الزوجية .

من المتطفلين والفضوليين من رفاقهم وكان من الأشياء الطريفة أن نرى بدوي يدخل الى المخيم . وبدلا من أن يأخذ مكانه فى القاعه تراه يتجه الى الشخصين اللذين يتهامسان . ويقتحم عليهما خلوتهما . ومثل هذا التصرف تطفل لا مبرر له . وان كان الشخص الذى يتطفل يدفعه الى ذلك الاعتقاد بأن الحديث قد يكون على جانب من الأهمية .

وعلى أية حال فان روح الجماعه هى الروح التى تسود مجتمعات البدو . ولكونهم يعيشون فى مناطق مكشوفه . فهم متحدون دائما فى مواجهه الأخطار . التى تتهددهم .. كما أن روح التضامن فيما بينهم وتحررهم من العقد يكاد يكون شعورا تلقائيا فيهم . وعلى الأوربى ان يكيف نفسه مع تلك المقتضيات اذا أراد أن يعيش بينهم . وذات مره كان فى يدى وعاء به بعض اللبن واذا بأحد الكثيريين يقترب منى ويمسك بالوعاء ويشرب منه .. وعلى أية حال لم يكن بالوعاء الا القليل غير أن تصرف كهذا لا ينبغى أن يصدر عن الأوروبيين . وحتى العلاقه بينى وبين الشيخ صالح لم تكن تسلم من تطفل أولئك البدو . فلو حدث ورآنا أحدهم استأذن ليقترب منا وكل همه أن يعرف ما كنا نتحدث فيه .

غادرنا المخيم بمجموعه جديده أصغر من المرافقين يقل عددها عن العشرين فردا وكان طريق سيرنا فى الاتجاه العربى . ولم نمر فى طريقنا على أى مخيمات .

وقد خشيت أن تكون غالبية قبائل الرواشد ترعى الجمال فى المنطقة الشمالية فى ذلك الوقت . ولهذا كان من الضرورى أن نبتعد عن هذه المنطقة حتى لا يزعجونى بطلباتهم من المواد الغذائية . كما كان هناك سبب آخر وهو الخوف من أن يثير وجود شخص غير مسلم فى أرضهم ردود فعل غير مستحبة .

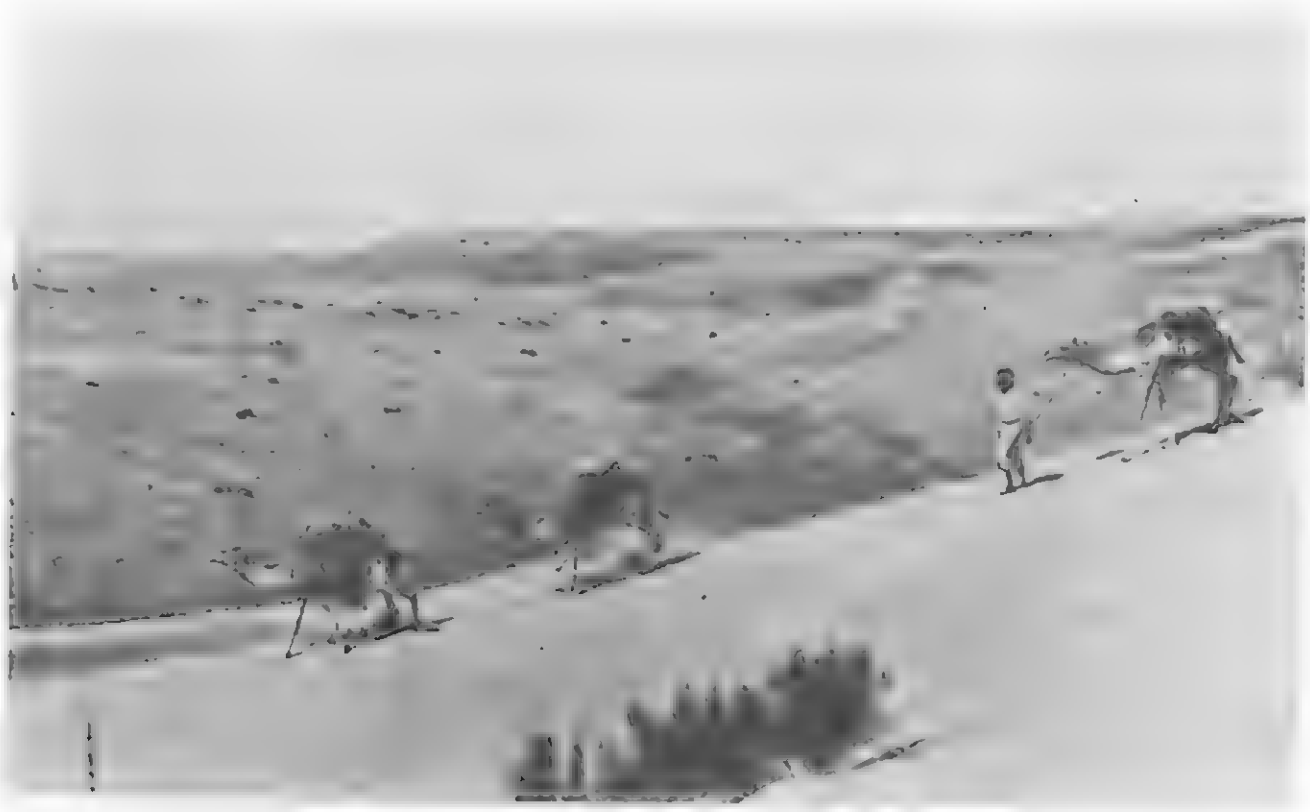

(مسـيرة فى الدكاكة)

بعده انقضى اليوم الأول فى مسيرة مضيرة . وأخذت مجموعة الجمال الجديده التى لم نختبر قدرتها بعد تصدر رغاء تعبر به عن استيائها من الحمولات الثقيله التى تحملها . كما أن أصحابها استنكروا عدم المساواة بالنسبه لتوزيع الحمولات . كما كان النهوض الكبير الذى استعملته موضع شكوى أصحاب تلك الجمال لثقله . الأمر الذى استوجب أن أغير البعير من يوم الى آخـــر .

فى ذلك الجزء من الدكاكه كانت الرمال أكثر نعومه من رمال الوديان والجبل بمنطقه عرق الدحيه حيث كانت الممرات ضخمة جدا . وكان التركيب الأساسى للمنطقة عبارة عن تربة رمليه صلبة حمراء فيها كثير من التعرجات ، يبدو بحر متلاطم وان كانت أكبر منه حجم كما كنا نمر من وقت لآخر على تلال من الرمال بعضها فوق بعض باهته اللون والتى أخذت تتقلص كلما توغلنا فى المنطقة وكانت صلبة فى بعض المناطق . وكان شكلها يبدو كحدوة الحصان فى بعض الأحيان . وعلى العموم فقد كانت غريبة الشكل ويسمونها « الدهناء » .. ويبدو ان تلك الكتل الرملية قد تكونت بفعـــل الزوابع الهوائيه التى كانت تهب على المنطقه من تلك الاتجاهات العكسية لها . وكانت تنثر له من المناطق المنخفضه من التلال بقع كلسية بيضاء من الأرض وبعض عيون المـــاء .

ولم نشك فى تلك المنطقة من نقص فى المياه الحلوة . وأقول حلوة بالقياس الى غيرها من المياه التى صادفناها فى منطقة الرمال . وأخذنا نتعمد السير ببطء فى المناطق التى توجد فيها مراعى حيث كنت أنتهز الفرص لجمع العينات والتقاط بعض الصور وذلك على عكس المسيرات الطويلة المرهقة التى لم تكن تسمح بذلك . وكنا نقضى الوقت فى التجول فى أرجاء المنطقة بينما قمت ومعى كل من ابن كلوت وابن حمد لاستطلاع الأمور فى تلك المنطقة بالنسبة لرحلتى .

كان وجود ابن هادى من العوامل المشجعه فقد أخذ يكتسب احترامى

وثقتي وكذلك زملاؤه فقد كانوا يحترمونه أيضا باعتبار أنه كان جديرا بمركز والده الذي كان من قبيلة مرة وكان معروفا في تلك المنطقة وقيل لي بأن والده قد ذبح ما لا يقل عن ثمانية من قبيلة المناصير في حياته . ومات شيخا مسنا في منطقة قريبة من بئر بن هادي .. التي عاد بحفرها في المنطقة والتي سميت كذلك باسمه تيمنا به . وكانت من الآثار العديدة التي عاد بحفرها . وكان مع حمد ابن أخيه مرزوق منادي القبيله وابن عم آخر يدعى محمد . وكان ذا مزاج متقلب . وكان يلبس في اذنيه سلكين متدليين (يشبهان سماعة الطبيب) ان حشو الأنف بالقطن عادة منتشرة في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية والخليج . والغرض منها هو حماية الأنف من الروائح الكريهه التي يعتقدون أنها تسبب لهم الأمراض .

وكان واضحا أن حمد مصاب بالرمد الحبيبي . والذي كان يرجع أسبابه الى الزار .. وكنت قد حضرت احدى حفلات الزار تلك في احدى الأمسيات . وكانوا يقيمون تلك الحفلات اذا ما قورنت بالطريقة المعقدة التي كانت تقام بها في عمان . وان كانت في الحقيقة تقام بنفس الطريقه ولا تختلف عنها الا في أنها يتخللها تهيج أكثر يسيطر على الشخص المصاب بالزار والفرق الوحيد بين طريقة اقامة حفلات الزار في عمان واقامتها في تلك المنطقة ، هي أنها تقتصر على الرجال فقط ولا يشترك فيها النساء . والمفروض على جميع المشتركين أن يشاركوا المصاب بالزار التهيج الذي يتخلل الحفل . كما أن حفلات الزار يشرف عليها الرجال دون النساء . ويستعملون النار في اقامتها بدلا من استعمال الدم .

وقد جلس حمد أمام النار ضمن حلقة من زملاءه . وكان منظم الحفل محمد بن شغيلة يجلس بعده مباشرة ، وقد وضعوا أمامهم مبخرة . كما أحضر بعضهم أواني للطبخ ، وبهذه الاستعدادات أصبح المسرح مهيأ للعملية .

وبعد أن رفع حمد شاله . لفه بشتل مثل ثم صنع منه لثام وشالا

(رمال الدكاكة الحقيقية)

و مسح بدرقيه وأخذ يهز جسمه ويترنح • بينما أخذ رملاؤه يسدون راحتى ويهتفون له مما كانوا يشرعون بينهم حتى انتهى مسحوبه . وبعد ذلك حسب برداد نتيجة فى حرمته . واخذ يتمنى تمام الشر الذى عدا أن يصيبه بهذا المرض مره . لولا أن زميلا له من يحجزه بعضده من الهجوم . ثم أن من حين لآخر يمسك بالبندقية ويشهر أمام وجهه ثم يصوبها ويحدثه بتهور بعد بينما أخذ نتيجه برداد سده وهكذا استمر فى حرمته تلك التى أن تعتقد ما سببه (مهيمزيا) وأصابه الإعياء . وقد مضى معه بقوله على هذه الحال •

صدر الحيم الذى يقع على استواء من عين ده بلعسوس ثم بعد مسيره ساعتين غربا وصلت الى مل سبير يسمه حدود الحسان يسمى الجليل . وقد تحولت أموال الرمل الحمراء الى أموال خضراء سديده الخضرة بسبب الأعشاب التى كانت تغطيها •

كان ذلك اليوم هو اليوم الأول من عيد الميلاد . ولكن البدو لا يحتفلون بتلك المناسبه بل ولا يعرفون عنها شيئا • والواقع أن اثنين من المرافقين من قبيله الرواشد كانا يعرفان أيام الأسبوع . ولقد حير المكان اعجاب ورضى كل من كان فى القافله بسبب وجود الراعى • لذا قررنا قضاء يوم فى ذلك المكان نخرج فيه للصيد •

وعند نزولى من فوق البعير جاءنى حمد صاحب حمل ازار ولم ألاحظ على عينيه أى تحسن وان كان قد حاول أن يقنعنى بأنه كان يشعر بتحسن فى عينيه وكدليل على ذلك اتسر إلى خضوة القطن التى سحبها من أنفه وعلقها فى عنقه كإجراء احتياطى • ولعل حمد كان من جيل جديد لا يؤمن بالعلاج الروحى لأن قبيله مرة كما يقال لا تمارس السحر . فيما عدا سكان المنطقة الجنوبية المعروفين التى انتقلت اليها عقيده السحر من قبيله الرواشد التى كانت تزاول تلك المهنة هى والعبدلى التى تسكن السهل الجنوبى •

أمضيت بقيه اليوم والبندقيه فى يدى أتجسول بالقرب من المخيم • ولدهشتى فإننى لم ألاحظ أثرا لأى حيوان سوى الأرنب • وذلك على عكس منطقه السهل الجنوبى التى سبق أن مررنا بها . وكنا نشاهد آثار أقدام التعالب وبقر الوحش . بالرغم من أنها كانت من المناطق الجافه . لقد أصبحت خبيرا فى اقتفاء آثار الحيوانات . حتى أننى كنت أعرف أنواع الحيوانات الرملية من غيرها •

ومن الأمور التى اكتشفناها أن منطقه الدكاكه قد اجتاحتها أسراب من الأرانب الوحشيه . لأن معظم الأكمات التى مررنا بها كان بها سراديب حديثة العهد . وكان من عادة البدو أن يدخلوا أيديهم فى تلك السراديب لاستخراج حيواناتها . كما كنا نشاهد من وقت لآخر أرنبا نائما تحت ظل إحدى الأشجار وكنا نقترب منه ببطء حتى لا يشعر بنا . وحينما حان موعد العشاء جىء بالأرنب المسلوق فى وعاء •

خرجنا مبكرين فى اليوم التالى وبعد قليل مررنا على مجموعه من التلال الضخمة تشبه حدوة الحصان وكان فى تلك المنطقة بعض عيون كعين المرومه والخبربى • وكنا أنا وحمد فى المقدمة ونزلنا من فوق الجمل . بينما هو أخذ يتقدم ببطء نحو أحد التلال التى لفتت انتباهه وهمس فى أذنى بأن أظل فى مكانى بينما يستمر هو فى زحفه نحو التل محتميا وراء كثبان الرمل . ولكنه عاد بعد برهه ليقول بأن الشىء الذى اشتبه فيه ليس فى الواقع الا أحد التلال الصغيرة وليس عدوا •

ويبدو أن حمد كان يجيد الرماية . وكان مشهورا بشن الغارات فى البوادى وسبق أن أغار بمفرده على مناطق قبيلة الحسيمر وقتل عددا كبيرا من أفرادها وهو لم يكن يتوقع أن يعيش حتى ذلك الوقت بسبب اعمال القتل التى ارتكبها وإذا قدر له أن اعترض طريقه بعض قبائل الغزو الكبيرة فإن وضعه هذا مضافاً لذلك ما عليه من ثار لقبيلة المناصير كان يسبب له قلقا مستديما وخوفا من المجهول • وعندما كنا نسير كان

يستوقف موكبنا من وقت لآخر ليستطلع المنطقة . وعندما كنا نخيم للمبيت فى احدى المناطق كان هو يتسلل من بيننا خفيه ليستطلع المنطقة خوفاً من من أن يكون هناك عدو متربص ويعود إلينا فى آخر الليل بعد أن يكون قد اطمأن إلى خلو المنطقة من أى عدو . وأننا يمكن أن نشعل النار — ونحن مطمئنون .

إلى الشمال من مخيمنا كانت تقع عين الورقاء وهى نفس العين التى مر بها المبعوثان اللذان أوفدتهما من ظفار للبحث عن قبيلتهما [1] . للترتيب للرحلة . كما أنه المكان نفسه الذى أصبح الآن مراعى للقطعان الكبيرة .

تعتبر تربية الإبل فى تلك البيئة الصحراوية قَدَر كل إنسان يولد فيها . فكل انسان يعتمد عليها فى معيشته ، فمن لبنها شرابه وطعامه ومن وبرها ملبسه ومأواه . فالحياة فى تلك البيئة القاسية بحث دائم عن بقعة خضراء أو مرعى . والمطر نعمة الله الكبرى . أما البوق فهو وقود تلك البيئة ومصباحها . وما يجرى فى العالم الخارجى من أحداث وتطورات فلا أحد فى تلك البيئة يعرف شيئا عنه ... كما أن قيام الدول أو سقوطها لا يعنى شيئا بالنسبة لسكانها .

وكذلك فإن القوى الروحية — كنقيض للمفاهيم العلمية — التى تسعى لإسعاد البشرية وكذلك قوى الشر التى تسعى إلى خراب العالم .

---

(١) .. يعتبر الطريق الذى سلكه الوفد ذا اهمية بالنسبة لتحديد خطوط الرجعة لقبيلة الرواشد خلال تقهقرها أمام هجوم الصبعر . فمن الشحر اتجه الرسل نحو الشمال الشرقى على امتداد منطقة أم الحياة ، ومنها سلكوا طريقهم عبر رمال أم الخرملة نحو منطقة غائم حيث وردوا — الماء فى منطقتى « حسفوت » و « البطين » ، ثم منها الى الشمال الغربى عبر مستنقعات وتلال الملح فى منطقة الماجورة ثم الى رمال « حبق » حيث وردوا الماء للمرة الثانية فى « الضمين » ثم منها عبر الجنوب الغربى الى « عين الندى » المحاذية ثم عبر رمال الدكاكة الى « تبع الوريقة » .

بعده . فهو يمقت حياة المدن الهادئة . والقانون الوحيد الذى يحكم
تجاه أصدقائه .

إن المراعى [١] هى العناصر الأساسية للحياة فى الربع الخالى .
فالمراعى فى فصول الشتاء تحتاج إلى رى متواصل كل خمسة عشر
أو عشرين يوما على الأقل ولكن اذا ازدهرت المراعى نتيجة نزول الأمطا
يحتمل أن — تمتد شهرين لا يذوق البدو خلالها طعم الماء .
فى تلك الحالة لا تشرب كل يوم بل يوما بعد آخر [٢] .

---

(١) .. المرعى او الطعام ويسمى بلهجة قبيلة الرواشد عموما « المعاش » .
ويعتبر البدوى اشجار السمر من افضل انواع العلف . وينمو هذا النوع
من السمر بكثرة على المرتفعات التى يصل ارتفاعها الى ١٢٠٠ قدم ...
النوع الثانى من العلف هو « الابالة » او الزهرة .. وهو فرع من العشب
الذى ينمو فى التربة الرملية بعد نزول الأمطار او الندى — كما يوجد علف
آخر يسمى « الصفوت » ينمو فى المرتفعات الجبلية مثل « المرخ » الذى
ينمو فى كل من المناطق الرملية والمرتفعات — بعد ذلك يأتى الغاف والسلم ..
(والمعروف محليا باسم الحرض) ثم توجد الى جانب ذلك انواع اخرى من
العلف .. ولكن الأنواع الأولى هى الأساسية فى الصحارى الجنوبية فى
الربع الخالى .

(٢) .. معروف ان بعض قبائل مرة تزور تلك المنطقة من وقت الى آخر
لتمنسة السيف فى الدكاكة نظرا لعذوبة الماء فى تلك المنطقة .

وفى المناطق الأكثر ارتفاعا عن سطح البحر كالسهول الجنوبيه [illegible] منها الرعى إلا بعد انخفاض درجة الحرارة ؛ أما سكان مناطق الرمال [illegible] تستمر فى السير ببطء عبر المتاهات الواسعة وبدون توقف ؛ وتقوم [illegible] وتتألف كل مجموعة من شخصين ويسمى الواحد (طواف) ؛ وعلى [illegible] .

أما فى فصل الصيف فان البدو يقاسون الأمرين من حرارته [illegible]

= تبقى فترات طويلة بعيدة عن اى مورد للمياه فتسمى (جازى) للمفرد .. و (جوازى) للجمع .. و (ناش) او نيش (للمفرد) ونواشى للجمع بلهجة قبيلة الرواشد ..

(١) بعد اليوم الخامس فان اللبن بطبيعة الحال يتخثر ؛ اما اذا كانت المسيرة طويلة فان البدو يضيفون اليه الماء .

بمثل هذه التجربه . فلا غرابه والحال هذه أن يكون للبن الناقه تلك الأهميه البالغـــه لأنه عصب حياتهم .

ألم يـــكن النبى صلى الله عليـــه وسلم هو أول من أنشـــاد بلبن الناقة ؟ استمعوا الى الحـــوار الذى دار بينه وبين أحد أصحابه بعد أن عاد الأخير من احدى الولائم .

الرســـول : مـــاذا قدموا لك ؟

صاحب الرسول : لحم الإبل .

الرسول : ذبحهـــا لك مضيفك ؟

صاحب الرسول : وأكلنا أرزا .

الرســـول : لقـــد أكـــرموك .

صاحب الرسول : وأكلنا تمرا .

الرســـول : لقـــد أرضـــوك .

صاحب الرسول : وقدموا لى لبن الناقة : ؟

الرسول : كفى .. لقد أولموك[1] .

فى اليـــوم الرابـــع اســـتأنفنا الرحلة فى الجـــانب الغربى نحـــو تل الغطفية . وكان تلا كبيرا كنا نشاهده من مخيمنا ، قبل خروجنا ووصلنا بعد مسيرة نصف ساعة .

وفى التجـــاويف الجصية لذلك التل المواجـــه للجنـــوب الغربى .

(١) لم اقرأ هذا الحديث فيما قرأت من احاديث نبوية . (المراجع)

شاهدنا آثار مجموعه من المخيمات بالقرب من موارد الماء وهو ما لم يكن مألوفا فى تلك المناطق الرمليه . ولعلها كانت آثار بعض القبائل التى كانت قد وردت الماء خلال الصيف الماضى .

وقد نزل حمد من فوق جمله . دون أن ينيخه كما يفعل البدو وسلم مقوده الى ابن أخيه وذهب هو الى التل . ثم دخل فى احدى فتحاته لكى يبحث ما اذا كانت بعض القبائل الغازية قد نزلت فى ذلك المكان ، ثم عاد من هناك وهو يؤكد بأنه لم يعثر على شىء وان كان قد رأى آثار بن حام (الذى كان أحد أفراد الفريق الذى انتهت مهمته عندى وكان متجها الى منطقه الحبوبة لاستئجار بعض البدو) .. والذى تبين أنه قد مر بتلك المنطقة قبل ثلاثة أيام سابقة .

وقد أخذنا نسرع الخطى . فوصلنا الى عين الشنه التى كنا متجهين اليها وكان من المتوقع أن نحلها قبل ثلاث ساعات من ذلك الوقت ... وكنت فى استقبالنا طليعة الحرس التى كانت قد تقدمتنا الى المنطقة . وكانوا يصيحون : جو .. جو . أى جاءو .. جاءو وكانت الطليعة تتألف من محمد بن مبارك الكربى الذى رافقنى الى عين الماء لفحص الرمال والضفاف . ثم ابتسم وطمأننى على أنه ليس ثمة خطر علينا فى هذه المنطقة . وربما كان يرمى من وراء ذلك الى مداعبتى طمعا فى أن أعطية كمية من الذخيرة . أو ربما كان ذلك على سبيل المزاح منه . وعلى أية حال فيبدو أننا قد نجحنا . وان كنا بقينا نستشعر بأننا لا نزال معرضين للغزو . وقد أخذ حمد على الفور منظارى وتوجه الى قمة بأعلى تل فى المنطقة ، ولم يعد الينا الا فى المساء .

الفصل السادس عشر

عين الشنة - استراحة قبل الاندفاع الى الشمال

كان الوقت قبيل شهر رمضان . وكان القمر بدراً مكتملا . وهو [illegible] في النفس لان عملية الرصد في مثل تلك [illegible] ان ضوء القمر في تلك [illegible] يعتبر [illegible] الذين يتحدون الغزوات والغارات [illegible] . والمرية الوحيدة [illegible] كانت تساعدني على تسجيل قراءتي بسهولة حينما أكون مسترخيا بالقرب من نار المخيم .

[illegible] في تلك الليلة هو لحم الإبل [illegible] وكان الحل الوحيد [illegible] هو ذبحها وأكل [illegible] الوسم في جسم تلك [illegible] يدل على أنها [illegible] من [illegible] ([illegible]) .. الذين [illegible] في إحدى [illegible] الابل .

[illegible] سألت [illegible] الذي ينتمي الى قبيلة الرواشد [illegible] . والذي كان من بين الأشخاص الذين [illegible] ببعض [illegible] عن رأيه في طعم لحم الابل . بالقياس الى لحم البقر .

فأجاب :

أنه أحسن بالطبع .

فسألته : وما رأيك في لحم الضأن ؟

أجاب كلحم البقر تنقصه نكهة لحم الابل .

وما هي الأجزاء المفضلة من لحم الابل ؟

« منظـــر لذبح ناقة »

بالنسبة لصغار السن فهى الأضلاع السفلى . أما بالنسبه لهذه الناقة فالأرجل . وما رأيك فى مخ عظام الفخذ ؟ .. فأجاب أنه أنسهى كل أنواع اللحم ، انتظر وسوف ترى بنفسك . ثم عدت أسأله : وكيف ستعدونه ؟ محمرا أم مشويا (فى المرتفعات يتم شى اللحم على كومة من الحصى . على طريقة العصر الحجرى) .. فأجاب : سوف نشويه على النار ولكن للأسف لا يوجد ملح فلو كان عندنا ملح فسوف تحكم بنفسك على الحساء .. ولكنى قلت لنفسى انما هو الحب الأعمى للحم الابل . غير أنه لابد أن أقول رأيى فى لحم الابل . إنه لحم خشن ومتليف جدا وأن سلقه فى ماء ملح بدون إضافة أى نوع من أنواع الدهون اليه ، فانه سوف يكون كريه الطعم وعسر الهضم .

وأخيرا جاء البدو ببنت شنتوف .. وهى الناقه التى تقرر ذبحها . فأبركوها ثم حفرت حفرتان تحت رجليها الأماميتين ، ثم شدوا جسمها بالحبال ، وبعد أن أمسك أحدهم بذيلها وقام آخر بثنى فكها لتحريك رأسها الى الخلف حتى تفقد كل مقاومة ، قام محمد الخبير بالذبح . أكثر من خبرته بالطقوس السحرية واستل خنجره ، وبعد أن انحنى فوق الناقة بحيث لامس الأرض بوجهه ، طعنها بالنصل فى تجويف العنق . فانفجر سيل من الدماء ، وكان وهو يحز رقبتها يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) بينما كان مستمرا فى حز رقبة الناقة بسكينه حتى غاصت فى قصبتها الهوائية ومنها الى العظم بينما غرقت يده وساعده فى بركة من الدم . وبعد أن أخذت الناقة تترنح سقطت على الأرض .

وما إن تمت عملية الذبح ، حتى كان البدو فى قمة السرور والابتهاج وهم يمنون أنفسهم بوجبة دسمة . ثم بدأوا فى سلخ جلد الناقة وتقطيع أجزائها ، وقسموا لحمها خمسة أكوام بعدد مخيماتنا الخمسة ، وقد وضعت أكوام اللحم على الأرض ثم بعد ذلك تم الإعلان بالطريقة

واحد يمثل مخيمه وفرش أحدهم كوفيته على الأرض ووضعت كل مجموعة منهم خرطوشة الكوفية — كعلامة تميزها . ثم دُويت الكوفية وجرى عزها ، ثم طلب الى أحدهم بأن يتقدم ويختار خرطوشة من تلك الخراطيش . فمن خرجت خرطوشته أولا من حقه اختيار الكوفية التي تروق له . وهكذا تكررت هذه العملية أربع مرات . ومع اختيار الخرطوشة الأخيرة تلاشت آخر قطعة من لحم بنت شنتوف كانت على الأرض .

ثم تفرق البدو بحماس منقطع النظير للبحث عن الحطب لان من عادتهم عند ذبح أى حيوان أن يسرعوا فى طهيه . لأن الطبع العربى [illegible] خوفا من أن يفسد . وقد لاحظت أنه عندما اقتيدت الناقة الى مكان الذبح فانها كانت تئن . ربما لإرضاء شعور أصحابها وهم جلوس أمام نار المخيم صحيح أنهم لن يأكلوا لحم الناقة كله فى يوم واحد . فلابد للاحتفاظ بجزء منه للطوارىء . وقد تم تقطيع الفائض عن الحاجة من اللحم الى قطع تم تجفيفها على نمط اللحم القديد ؛ وقد تم ذلك بتعريض اللحم لحرارة الشمس فوق ظهور الجمال أثناء السير . وكان البدو يقضمون اللحم بين حين وآخر ويرددون على مسامعى أن لحمه لذيذ .

بعد صلاة المغرب اجتمع القوم حول بطن أم شنتوف اللامع . وكانت [illegible] قطره نحو ياردة يحيط به جلد عنق بنت شنتوف . وقد ثقبت مثانة الناقة السائل . وأعلن أنه لذيذ الطعم ؛ ثم أخذ الجميع واحدا بعد الآخر

(المرشدان اللذان عملا معى من مرة : حمد بن عادى وطالب)

يشربون من ذلك السائل ويرددون أنه أفضل بكثير من ماء المناطق الرمليه المالح [1] .

كالعادة لم أنهض من مرقدى مبكراً . ولكنى عرفت من خادمى محمد . بأن البدو بمجرد أن استيقظوا على صوت المؤذن هرعوا الى ذلك السائل يعبون منه عبا . وسط موجه من الحماس والابتهاج . ثم احتفوا لأداء الصلاة .

فى الشمنة حضر أحد المرافقين ومعه حجر يشبه رأس السهم وقال لى أنه عثر عليه بالقرب من العين ، غير أن ذلك لم يكن صحيحا . والحقيقه أن الحجر من منطقة سنام ، وهو يشبه رأس رمح لإحدى قبائل العرب . ولكن البدوى لم يكن يعرف مصدر الحجر . ثم علمت أن مثل ذلك الحجر يوجد فى الرمال ويستعملونه كقداحة لأشعال النار . وعندما عرضت الحجر على محمد بن هادى وطلبت منه أن يبحث لى عن أنواع أخرى لى منه . لم يعر الموضوع اهتماما ، وقال بأنه لا يهتم بالآثار كما أكدلى بأنه يمكن جمع مثل ذلك الحجر من منطقة لاتبعد أكثر من مسيرة يوم واحد من الجهة الغربية ، وأن هناك أنواعا أكثر أهمية من ذلك النوع . وقال بأن تلك الأحجار هى من بقايا العصور الجاهلية ، واسم المكان الذى قال انه توجد به تلك الأحجار والذى يقع فى منطقة رمال الجامعات (شغل المصور) وهو اسم يبدو أن صحته (وادى الصور) .

لم أشأ أن أترك المرافقين وأتوجه الى تلك المنطقة . ولذلك أوفدت اليها حمد ليجمع بعضا من العينات نظير مكافأة معينة وعدته بها وقد

---

(١) .. على نقيض القبائل سكان المنطقة الجنوبية ، فان قبيلة مرة ، كما قال لى حمد ، لاتستسيغ ذلك الشراب الا اذا اضطرت الى شربه عند اشتداد العطش ، أما قبيلة الرواشد فتسميه (الثد) ويبدو أن الثاء هنا حلت محل الفاء ، وهو شيء لاحظته فى كلمات أخرى .

عاد حمد بعد ٣٦ ساعة ومعه حجر مضلع طوله نحو نصف ومتر دائرى متناسق الشكل طوله نحو نصف ونصف . بدا لى أنه يزن حوض إحدى الزوجات القديمة . وذلك بالإضافة إلى حجر آخر تشبه حجر الجن . ولا أشك فى أن الطبيعة قد تدور فى تشكيل مثل هذه الحجرية بتلك الأشكال .. أما الحجران الباقيان فقد تشققا وتهشما غير أنه تبين لى بعد الفحص أنهما قد تعرضا لنوع من الاحتكاك تشابه التى تحدثت بفعل مرور الزمن .

وما إن عاد حمد من تلك المنطقة حتى ألفى بعيدا على الأرض بينما أحد زملاؤه البدو ينظرون إليه فى إعجاب وكأن إحضاره لهذا الحجر معناه مزيد من الحمولات على الجمال وعدد أكبر له . بينما لا أعرف أصل تلك الأحجار . ثم سألته إن كان يعرف هو ومن حوله . فأجاب بأن العالم هو الله . ونكتفى من مخلفات بنى هلال . وعندما سألت الجماعة حتى أحد زملاؤه يهزون رؤوسهم تأييداً لقوله .

إن بنى هلال فى شبه الجزيرة العربية . أو بالأحرى بلاد شمال أفريقيا اسم مشهور لإحدى قبائل العرب القديمة التى انقرضت فى الوقت الحاضر ، والتى تعزى إليها كل الأعمال البطولية فى الماضى . كما أن اسم تلك القبيلة يتردد على شفاه العرب ، كل العرب .

كما أن المواويل الشعبية التى يرددها البدو فى الصحراء الجنوبية تعزى إلى تلك القبيلة كما أنه لا يوجد بدوى واحد إلا ويحفظ ملاحم تلك القبيلة. ويرددها بعفوية . وقد سمعت كثيراً من الفصص عن تلك القبيلة وكلها لا تختلف عن بعضها البعض . وكان لتلك القبيلة بطل اسمه (أبوزيد الهلالى) . قد دُعِىَ كذلك لبس لأنه كان له ولد بهذا الاسم . وإنما اعترافا له بصفات الشجاعة والبطولة التى كان يتحلى بها .. أما عنترة شخصية مجهولة عند سكان الربع الخالى بينما قصص أبوزيد الهلالى

وقصص دياب بن غانم أحـد أقاربه ، وهو بطل آخر من أبطال تلك القبيلة — فقد كان الحديث عنها دائما وكثيرا .

ويعتقد سكان تلك المنطقة بأن مواطن بنى هلال هو (وادى مرضه). وهى المنطقة التى تستوطنها قبيلة (الدحم) ، ولاتزال هناك آثار لبئر الجومة الكبيرة كشاهد على تراثها المجيد كما أن كل فرد فى القافلة بما فيهم الشيخ صالح كان يحفظ مواويل بنى هلال ، وهى تتحدث بإعجاب وحماس وتحكى كيف أن تلك القبيلة كانت تملك ما بين مائة ألف ومائتى ألف من الخيول ، كما تتحدث كذلك عن أتباع أبو زيد الذين كان يصل عددهم الى الفى نسمة ، ولكن الجفاف أصاب موطنهم حيث انقطع المطر لمدة ثلاثين عاما . وأخذت الجمال تأكل شعر بعضها البعض ، ثم نفقت بينما كان أصحابها يحفرون بحثا فى الأرض عن عروق النباتات ليقتاتوا بها حتى أن صبغة الورس على أحـد مرتفعات مرخه بقيت كما هى ، وبعـد سنة من ذلك الحادث ، وعندما اشتدت الضائقة بالناس توجه أبناء شيخ بنى هلال إلى والدهم وقالوا له : إن الأهالى يموتون جوعا ولابد أن نأخذ من الأغنيـاء لنعطى الفقراء ، ولكن والدهم أبى أن يوافقهم على ذلك ، حتى — أنه فضل الجوع لنفسه ، وهكذا خيم الحزن على ربوع تلك القبيلة .

على أن معظم تلك القصص والروايات حدثت بالجيل الثانى من تلك القبيلة ، عندما أصبح بنو هلال مجرد قبيلة من البدو الفقراء يشنون الحروب على سكان رشـا ومليكهم الزناتى .

وكان أبوزيد سـاحرا ، تعلم السحر من أمه التى كانت من الجن ؛ وبسبب ذلك كان لايؤثر فيه الحديد سواء كان سهما أو رمحا أو سيفا ، وقد ظل هكذا الى أن نطق بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله — فتخلى عنه الجن وأصبح مثل كل الناس ، يمكن لكل فرد إذا أراد أن يقتله .

وربما كان بعض تلك الروايات جديرا بالنشر . وسوف أعود إلى تسجيلها فى الفصول التاليه حسبما سمعتها من رواتها حينما كنت هناك .

كان موقعنا فى السنه — التى تقع إلى الشمال الشرقى من حضرموت . على خط عرض ١٩° شمالا . وخط طول ٥٠ر٤٥° شرق . وعلى ارتفاع ٩٩٠ قدما . وكنت وجهتنا الدوحه فى شبه جزيره قطر على الخليج . التى كانت على ارتفاع ٣٣٠ قدما . وكانت أسراب الغربان تطير على تلك المنطقه . وادعى حمد بأنه قد زار تلك المنطقه . ثم أخذ يشير بعصاه فى اتجاه الشرق الشمالى وكان ذلك يتواءم نوعا مع التحليل الفلكى لموقع المنطقه . ولكنى مع ذلك لم أحاول أن أظهر لـــه بأن تحديده كان صحيحا .

وبفضل (الربعه) أى الأمان . من قبيله مرة تبلورت خطه العمل . ولقد تم الاتفاق على أن نخفض عدد أفراد القافله . إلى ١٢ فردا فقط . من أكفأ الذين كانوا فى المجموعه خمسه أصحاب الجمال القويه على حمل المؤن . بالإضافة إلى خمسه من أقوى جمال النقل . غير أنه كان من المستحيل فى نفس الوقت أن نلجأ إلى تخفيض العدد إلى أكثر مما يلزم وذلك تجنبا للطوارىء .. وعلى ذلك الأساس فإن امكانياتى لم تكن تسمح باتخاذ استعدادات إضافية . ولكن البقاء وسط تلك الرمال كان يعنى الموت المحقق . كما كانت حالة الأفراد والإبل الصحية أمراً جوهريا . كذلك فقد كان ضروريا أن تكون المسيرات طويلة ومتواصله . لأن فقد أى ناقـــة أو جمل أو إصابته بمرض . أو تعرض قافلتنا لأى عمليه غدر . أو معارضة من إحدى القبائل . كان يعنى كارثه محققة . وكان أول شىء وضعناه فى اعتبارنا هو أن نقطع تلك المتاهات والأخطار فى أقصر وقت ممكن . وكانت هذه الاعتبارات هى الشغل الشاغل لحمد فى كل يوم .

وعلى أية حال لم نكن متأكدين من نجاحنا فى مهمه عبور الصحراء . فلو كانت طريقنا خالية من المراعى فإننا ســـوف نكون بين خيارين : إمـــا

مواصلة السير والمجازفة بأرواحنا ، أو العودة إلى الوراء للنجاة ، غير أن وجود عناصر ذات قوة بدنية وجمال فى حالة صحية جيدة فى المناطق المتقدمة من خط السير سيكون الحل الأمثل • تلك كانت النقطة التى وصلنا اليها إذ أن الشنة تعتبر من النقاط الرئيسية الاستراتيجية فى عبـور الصحراء ، ونقطة التبادل الأخير لمراحل الرحلة •

إن ما طرأ من تحسين على مخزوننا من المؤن بعد ذبح الناقة ، أخذ يتناقص بعد وصول خمسة من قبيلتى الكرب والمناهيل ، ضيوفاً علينا ، وكانوا قادمين عبر منطقة الرمال (أبوظبى) على مراحل بطيئة ، وكعادة البدو فإنهم لم يفصحوا عن شىء عندما سألتهم عن حالة الطريق الذى سلكوه فى رحلتهم ، فقد أشاروا بأيديهم إلى ناحية من النواحى ، ولهـذا رأيت ألا أكرر عليهم السؤال •

وعلى أية حال فقد كنت أتوقع بأنهم لن يطيلوا الإقامة معنا ، غير أن صحاف التمر وأقداح القهوة التى أخذت تتوالى أغرتهم بالبقاء • وأخيرا تأكدنا أنه طالمـا استمر الرواشد فى سخائهم ذلك ، فإن الضيوف لن يغادروا المخيم •

وقد اقتنع حمد أخيرا بأن الوضع يستدعى أن نقتصد فى المؤونة وعلى الأخص وأن شهر رمضان كان على الأبواب ، ولكن إطعام الطعام يرقى عندهم إلى مرتبة القداسـة فضـلا عن أن حرمان الضيف سيكون مصدر عار على رجال القافلة ، أما نظرة زملائى الى ذلك الموقف الحرج فتتضح لنا من مضمون إحـدى الأساطير التى يعزونها إلى أبوزيد الهلالى •

كان أبوزيد الهلالى فى عصره مشهورا بالكرم ، ولقد ذبح جميع ماكان يملك من إبل لضيوفه من الفقراء والغرباء وأخيرا اجتمعت كل قبائل بنى هلال ليتدارسـوا الأمر وقرروا أن يتبرع كل واحـد منهم بجمـل لأبى

زيد حتى تعـود إليه ثروته من الأبل .. ونفذوا ذلك الاقتراح . غير أن كثرة ضيوف أبى زيد وكرمه الزائد قد أخلى يده من الأبل مرة أخـرى .. وعندئذ تأكد بنو هلال الفائدة من إعطاء أبوزيد ناقة أخرى . ولكنهم قرروا أن يقدموا له ناقة واحدة فقط يستعملها هو وزوجته فى تنقلاتهما غير أنهم اشترطوا عليه بأن يتعهد لهم بعـدم ذبح تلك الناقة مهما كان الأمـر ، الا أنه كان من المؤكـد أنه سيفعل . وقـد وافق أبوزيد على شرطهم .

ثم انقضت شهور وشهور على بنى هلال وهم يرابطون بقطعانهم فى المخيمات ، وفجأة وصلت قافلة من العرب قادمة من مكة وأخـذ أفرادها يسألون كل من يقابلون من الناس عن مخيم أبوزيد . وأخيرا دلوهم عليه فسـاروا اليه حتى وصلوه وعندما سمعهم أبوزيد وهم يسألون عنه . نادى زوجته وقال لها : أعصبى عينى حتى لا أرى وجـوه ضيوفى وأنا لا أستطيع أن أقوم لهم بواجبات الضيافة فأحضرت قطعة من سلال التمر وعصبت بها عينيه .. وبعد برهه سألها : هل استقبل أحـد من الأهالى أولئك الضيوف . فأطلت من المخيم وردت عليه بالنفى ــ فسكت وعاد يسألها : أنظرى هـل استقبل أحـد الضيوف ــ فردت عليه لقد انتقلوا الآن إلى مخيم آخر . وهكذا كان يسأل زوجته بين الحين والآخر وكانت ترد عليه بنفس الجواب حتى غضب ولم يعد يحتمل ذلك الوضع ، فمزق العصابة ، وتناول السكين ونحر الناقة التى كانت لديه عند باب مخيمه . ثم دعا الضيوف للاشتراك فى الوليمـة .

على كل حال فقد كان شعورى نحو أولئك الضيوف الثقلاء الذين نزلوا علينا يختلف عن شعور أبوزيد لأن ضيوفنا كانوا فى طريقنا إلى موطنهم فى المرتفعات الشمالية الشرقية من حضرموت وقد انتهزت الفرصة لكى أسألهم عن حقيقة البئر البركانية والتى قيل أنها المنطقـة البركانية الوحيدة على البر الرئيسى من شبه الجزيرة العربية ــ وقد تحـدث عنها الدكتـور

«هوجارت» ، وقال عنها «جيهان نوما» ، بأنها تلك البئر التى لعنها على• غير أن المرافقين لى فى تلك الرحلة شأنهم فى ذلك شأن المرافقين السابقين أكدوا بعدم وجـــود براكين فى المنطقة على الإطلاق ، وبصفة عامة فإن المنطقة التى تقع فيها البئر تدور حولها كثير من الأساطير والقصص الخرافيه • وأكثر تلك الخرافات شيوعا هى أن البئر مرتع للعفاريت ، حتى أن أحدا لم يستطيع أن يقترب منها إلى الآن •

وقد حاول أحـــد الحضرميين أن يعقد صفقة مع أحـــد أفراد قافلتى ، جمل مقابل بندقية وذخيرة وبعض الريالات ، غير أنه من خلال الضجـــة التى رافقت الصفقة تبين لى أنها كانت تنقصها تلك الوجاهة التى أحاطت بصفقة مماثلة لأبوزيد فى صباه ، كما سمعتها من المرافقين ظهر ذلك اليوم •

كان أبوزيد يتيم الأبوين ، وقد نشأ فى كنف عمه الشيخ حسين بن سرحان • وذات يوم وهـــو صبى كان يرعى قطيعا من جملين وسبع ناقات ومر بجماعة من العرب كان معهم جمل وعلى ظهر الجمـــل سيف ضخم « شحمان » • فسأل أبوزيد جماعة العرب ما إذا كانوا يبيعونه ذلك السيف فأجابوه بنعم ظنا منهم أنه لن يقدر على حمله لأنه كان سيفا كبيرا ثقيـــل الوزن بدرجـــة ظاهره وليس فى قدرة أى انسان أن يستعمل ذلك السيف • فأناخـــوا جملهم •

وتقدم أبوزيد فتناول السيف وهو يئن من ثقله ، ولكنه قال كنت أفضل لو كان أثقل من ذلك ، ولكن لعله يفى بالغرض ، ثم وضع السيف جانبا وتوجه إلى جماله وأحضر منها ناقة ثم جعل أحـــد البعيرين يعتليها [1] • وكان

---

(١) .. ان الجمال مثل الأسود واللاما تضاجع اناثها وهى جالســـة ويعتبر ذلك وضعا نادرا ولكن لابد من وجـــود صاحب البعير اثناء العملية الجنسية لكى يقوم بحفر الأرض تحت اقدام الناقة لتوفير الوضع المريح لها . كما انه هو الذى يقوم بابلاغ تضبيب البعير فى فرج الناقة وذلك على عكس جميع الحيوانات الثديية تقريبا . كما يتعين على صاحب الناقة ان يقوم بابعاد البعير =

هذا واحدا من أهدافه كما انه اختبار للسيف . فإذا قطع البعير ووصل نصله الى الناقة التى كانت تحته ، فإنه السيف الذى يبحث عنه وسوف يشتريه .

وهكذا تناول السيف وهوى به على سنام البعير وهو بارك على الناقه بكل قوته فشطر الجملين أربعه أجزاء . ثم التفت الى العرب وسلمهم البعير الثانى والنوق الست مقابل السيف ، وتقلد السيف وعاد الى عمه فرحا [1] .

كان اليوم هو يوم ٨ يناير ، وكنت وبعض أفراد القافله نتبادل الأحاديث وروايه القصص فراعنا فجأة أن شاهدنا جماعة صغيرة من العرب . فى مكان ما وراء أحد التلال على بعد قليل منا وكان معهم جمالهم فأخذ رجال قافلتى يحثون بنادقهم بالذخيرة ، وكان ذلك مجرد إجراء وقائى . لأننا فى الواقع كنا فى انتظار وصول شيخ قبيلة بنى أمانى ومعه جماعة من الرجال وكانوا يسيرون ببطء وأكد لى المنظار أن القادمين هم الشيخ محمد بن حام وجماعته ، وقد نزلوا من فوق ظهور جمالهم . على مسافة غير بعيدة عنا ،ثم تقدموا إلينا الواحد تلو الآخر . وبدأ تبادل التحية والتقبيل على الأنف .

ثم جلس الجميع على الأرض على شكل دائرة كالمعتاد . ثم بدأت الاستفسارات عن أخبار الصحراء وعن المراعى والقوافل وعن الغارات . وما إلى ذلك من أخبار البدو ، بينما كانت أقداح القهوة وصحاف التمر

= عن الناقة بعد العمليه فاذا لم تنتج السفاد خلال العشرة ايام الاولى سحب صاحب الناقة عن بعير آخر لها . أما علامة الحمل بالنسبه للناقه فتظهر من هز ذيلها عند ركوب صاحبها عليها .

(١) ... هذه من قبيل الروايات الخرافية التى يشيع بين البدو لما فيها من مبالغة وغرابة يستهوى البسطاء ، ويلقى قبولا لدى أمثالهم الذين يعيشون أقرب ما يكونون الى الفطرة .

تدور على الشيوخ . وكان بين القادمين شخص يدعى مسلم • كان قد اشترك معى فى رحلة العام الماضى • ولقد كان قدومه الآن مفاجأة سارة لى. غير أن الشيخ صالح لم يضمه إلى قائمة المرافقين • وقد جاء ليطلب منى أن أشركه فى الرحلة ولو بتقاعد شخصى ليحل محل شخص آخر . وقد ألح على فى ذلك •

والواقع أن مسلم كان نموذجا لشباب البدو وكانت له أسنان كبيرة غير منتظمة . ووسم على الخد[1] . وضفائر طويلة كثيفة تتدلى خلف رأسه• وكان يتحدث كما يتحدث أى بدوى عندما يثيره شىء ما . أى سيل متدفق من الكلام يكرره مرة بعد أخرى دون أن يتلعثم أو يتوقف . ثم انحنى أمامى ومد يده اليمنى فى محاولة لحملى على المواظبة على ضمه إلى رجال القافلة . وكان صوته وهو يتكلم يمكن أن يسمع من مسافة نصف ميل وقد تعود على التحدث بهذه الكيفية عند قيامه بعرض أفكاره . كل ذلك لكى يقنعنى بتحقيق طلبه وعندما كان يتحدث كان يتعهد الله على نفسه أن ما يقول هو الحق . وأنه أفضل رجل فى القافلة وكان يقول أن مصلحته هى مصلحتى ولاغير ذلك •• وكان حديثه نموذجيا ومؤثرا بحيث أننى سجلت ذلك الحديث •

استكملت القافلة كافة عناصرها . وتهيأنا للرحلة . فقد عاد الشيخ صالح هو وأتباعه كما أحضر معه بعض العناصر الجديدة . منهم (طالب المرى) الذى يتولى رعى ابل شيخ قطر وبوصول العناصر الجديده وصل عدد الفريق الى ثلاثة عشر شخصاً . ولقد أصر كل من حمد رفيقنا والشيخ صالح على اضافة طالب الى مجموعتنا . ولاحظت ان الرقم (١٣) لايعتبر

---

(١) •• سلسلة من الخطوط الصغيرة السوداء ترسم على اللثة العليا . واللثة السفلى عما من الأسنان . وهذه عادة منتشرة فى سائر ارجاء جنوب الجزيرة العربية بين الرجال والنساء وتتم رسم تلك الخطوط فى سن الطفولة ويقال انها تمنع تسوس الأسنان الطويلة أو ارتخاءها او سقوطها .

رقما مشئوما فى شبه الجزيرة العربية ، ولهذا كان مقدرا لقافلتنا أن تكون مكونه من ثلاثة عشرة شخصا ، وكان طالب فى الواقع عنصراً له أهميته لانه من الأشخاص الذين عبروا الربع الخالى فى العام الماضى . بينما المسئول عن حماية القافلة لم يعبرها منذ سنوات ، فضلا عن أن أغلبية المرافقين لم يسبق لهم أن مروا بتلك المنطقة ، كما كانت هناك أهمية أخرى بالنسبه لوجود طالب ، فقد زعم بأنه كان يعرف المناطق التى يرابط بها الاخوان فى منطقة جبان وهو الطريق الذى لابد أن نسير فيه . ولكن لابد لنا أن نتجنب مقابلتهم أيا كان الأمر [1] .

والاخوان هم من العناصر الإسلامية المشهورة بالتعصب الدينى والنظرة الإسلامية المتشددة ، ولقد تسموا بهذا الاسم تميزاً عن الفرق الإسلامية الأخرى الذين يعتنقون الأفكار السلفية وعلى الرغم من أن رجال القافلة كانوا من المحافظين (سكان جنوب الجزيرة العربية كلهم من الحنابلة والشوافع) الا أنهم يعتبرون فى نظر الأخوان هراطقة وأصحاب بدع ، أما موقفهم منى كرجل مسيحى ، فلا شك أنه سوف يكون عدائيا . فضلا عن أن الاخوان يخضعون لسلطة الملك ابن سعود الأمر الذى قد يدفعهم الى الاعتداء علينا ، فهم يحرمون التدخين تحريما قاطعا ، وتطبق على المدخن العقوبات ، كما أنهم يعارضون أسلوب حياة البدو ، ويعتبرونه أسلوبا غريبا على الإسلام ولما كان الاخوان المسلمون أنفسهم حديثى العهد بهذا المذهب ، فقد كان طبيعيا أن تتسم تصرفاتهم بهذا التشدد الدينى المذهبى .

وحتى محمد السقطى مساعدى .. الذى لم يكن متعصبا ، قد

---

(١) .. العناصر البدوية التى كنا نخشى منها فى تلك المنطقة هى بنى حجر ونصيلتان من قبيلة مره .. الفهيدة والذهبة .

شرح لى فكرة الاخوان ولكنه مع ذلك لم يكن يقر الطريقة التى يمارس بها البدو دينهم ، وقال عن أفراد القافلة بأنهم غير مطيعين لأوامر الله .

وعندما سألته عن معنى ذلك . قال : لأنهم يعيشون لشهور طويلة بدون ماء وهذا مالا يمكن لأى انسان أن يتحمله ، كما أنهم لايغتسلون من جنابه بعد مضاجعتهم لنسائهم فكيف والحالة تلك تجوز لهم الصلاة ؟.

الفصل السابع عشر

الاندفاع نحو الشمال

فى الرابعه بعد الظهر فى اليوم العاشر من يناير عام ١٩٣١ دقت ساعه الحسفر لنتجه الى الشمال وهكذا غادرت القافله منخفه « الشنه » . والواقع أننى كنت أفضل أن نغادرها مبكرين فى الصباح . غير أننى كنت فى عجله من أمرى والإرهاق بعد يوم صاحب امضيته فى اجراءات إنهاء حسابات المرافقين السابقين وفى صرف سلفيات للأفراد الجدد . وكان ثمه سببان حتمان للتأخير . الأول لعمل الترتيبات اللازمـة لنقل المخيم قبل توزيع حصص الأطعمـة على رجال القافلة . كمـا أن ضيوفنا الحضارم . وأقرب بعض المرافقين البدو الذين حضروا لتوديعنا . ظلوا فى المخيم حتى آخر وقت ممكن طمعا فى الحصـول على شىء من المنافع . ولو أننى قمت بعمليه توزيع الأطعمه فى وجودهم دون أن أعطيهم شيئا منها أو أسمح للمرافقين بأن يقوموا عنى بذلك لاستحال الأمر على . والسبب الثانى أن ربيعه (الأمس) كان يحتم علينـا أن نبدأ الرحيل فى يوم السبت . لأنهم يعتبرون يوم الأحـد يوما مشئوما [1] .

---

(١) .. كنت وانا فى شبه الجزيرة اسمع كثيرا عن تلك المعتقدات (اى ايام السعد وايام النحس) ومن تلك المعتقدات ان اليوم الثانى واليوم الخامس من كل اسبوع هما يومان من ايام النحس .... اما يوم الجمعه فهو من ايام السعد . وهناك بعض مروج من قبيلة مره لا يخرج للسفر او للاغاره يوم الاحد قطعيا . ولاحتى يوم الجمعه قبل الصلاه .. اما اليوم الأول من كل شهر فهو يوم مبارك فى اى يوم من ايام الاسبوع يقع .. انا بدو قبائل الفرا وحضرموت فيؤمنون بكثير من المعتقدات الخرافه التى ربما تعود الى عهود عديده للنحـوم فى شبه الجزيرة العربية .. ومن تلك المعتقدات :

١ ـ خلال الخمسه ايام الأولى عندما يكون القمر فى مدار المغرب يعتبر تلك فترة من فترات النحس لا يقومون فيها باى عمـل كالأسـفار وغـارات الغزو .. الخ .

(فى شمال غرب الدكاكة)

وبعد مرورنا على أول تل من الكثبان العالية كان لابد من وضع أمرين موضع الاعتبار الأول المحافظة على أرواحنا • والثانى معتقدات أهل المنطقة، وهكذا توقفنا فى أول منطقة لقضاء الليل ، وحلت عـدة الركوب من على ظهور الأبل ، ثم قيدت وسرحت لتأكل فى أقرب مرعى هناك ، بينما تجمع أصحابها بجانب أكياس المواد الغذائية انتظارا للحصـول على حصصهم منها • ولقد حصل كل فرد على حصته من السمن . حفظها فى كيس من جلد احـدى الحيوانات التى تشبه الضب ، ويحفظ البدو ذلك الكيس فى جراب تحت مركب الناقة ، ثم وزعت بقية المواد الغذائية على المجموعات الثلاث التى تتألف منها القافلة • وكان منظر الدقيق والأرز والتمر وغيرها مـن المواد الغذائية له تأثير السحر على البدو الذين يمضـون معظم عمرهم لايذوقون تلك الأطعمة • وكان ذلك عاملا مشجعا على فتح أفواههم للدردشة والحديث • وبعد أن أتم صالح توزيع المؤن على القافلة تجمعنا كلنا حوله لكى يحدثنا مرة أخرى عن أبوزيد وحكاياته •

وقد شهد اليوم التالى أول مسيرة جادة فى تاريخ الرحلة ، وكعادتنا فى الأيام الأولى لوجود رجال وجمال جدد فى القافلة فقد كانت المسـيرة قصيرة تخللتها ضجـة كبيرة ، الأمـر الذى كان يتطلب إنهـاء مثل تلك الخلافات التى كانت تقع بين البدو ، ولإعادة تثبيت الحمولات على الجمال كل هذه الأشياء كانت تؤدى إلى تأخيرنا ، وعندما حلّ المسـاء تبين لنا أننا لم نقطع أكثر من اثنى عشر ميلا ، وحول نار المخيم واصل البدو نزاعهم حول الجمال ، والحمولات •• الخ ، وأخيرا توصلنا إلى حل يتم بمقتضاه

= ٢ — تؤخذ منزلة القمر كمرشـد للمسـافرين والحادى عشر والثانى عشر والعشرين تسمى « دوار » وتعتبر ايام سعد بالنسبة للسفر وغيره .

كما أن شبه الدائرة الواقع فى شرق الجنوب الشرقى متسم الى عشرة اقسام بحيث تتوافق مع العشرة أيام الواقعة بين فترة الدوار ، ويعد يومـا مشئوما لا ينصحون بالسفر فيه أو الخروج لقضاء اى امر فى الاتجاه الذى يتطابق مع نفس اليوم اى الاتجاه الثالث من الشرق فى اليوم الثالث والاتجاه الثالث عشر والثانى والعشرين •

تغيير الحمولات يوميا وبانتظام وذلك تحقيقا لمبدأ العدالة فى المعاملة ولقد أدى ذلك الحل إلى إعادة الهدوء الى الركب . وعندما أخذ أحد المرافقين — وكان من الأشخاص المساعدين — يجمع بعض النباتات لبعيره ، أمسك بأحد الأغصان ورفعه بيده ثم قال لى : انظر أيها الصاحب إلى العصن ، وكانت بعض قطرات الماء تنزل من العصن . وقال : ان هذا هو السبب الذى يجعل الجمال تمضى عدة أيام دون أن تتناول شيئا من الماء .

خرجنا مبكرين فى اليوم التالى . وكان اتجاهنا إلى الشمال الشرقى . وبعد أن مررنا بتل اسمه تل أبو خشبه . وصلنا عند منتصف النهار إلى بعض الكثبان المتفرقة تسمى « جسمان » إشارة إلى اسم المنطقة التى توجد بها تلك الكثبان . تلك أنها الحدود الشماليه الغربيه للدكاكه .

وتقع الدكاكه وسط تلك المجموعة من الكثبان الهائلة الحدود الجنوبيه. وتتكون من عدد من السهول الرملية الحمراء الواسعه . ويتفرع منها كثبان صفراء تتفرع الى عدة اتجاهات ويصل ارتفاع تلك المنطقة إلى ١١٠٠ قدم فى الجنوب و ٧٥٠ قدما فى تلك المنطقة . بينما يمتد رأسها الطويل إلى شرق الشمال الشرقى على امتداد مسيرة سبعة أيام وبعد أن قطعنا بعض المسافات فى سيرنا نحو الاتجاه الغربى أخذت المنطقة تزداد وعورة بحيث كانت تتراوح بين ثلاث — قامات فى الشرق إلى ثلاثين قامة فى الشمال .. وأما البئران التوأم « الثويرة والزويرة » فقد كانا — أكثر عمقا من آبار الشمال ، وكانتا تبعدان بنحو مسيرة يوم واحد . من الجهة الغربية ، أما فيما وراء البئرين من الناحية الغربية . فلا توجد مياه أبدا فى منطقة الجميعيات ، والحوبة . والشويكة والتى تمتد حدودها إلى نجران [1] .

---

(١) .... ينحصر طريق الغارات من منطقة الرمال الى حضرموت بين الغرب والشمال الجنوبى والطريق الذى تسلكه هى الدكاكة ، الغرسة وخرخير . ومن هاتين المنطقتين تتجه القبائل الى الغرب على امتداد الحدود الجنوبية للرمال عبر ممر شهير يسمى « شقاق المعاطف » .

(معسكر صغير لمرة)

شهدنا فى ذلك اليوم آثار إحـدى القوافل ، فأخذنا نتبعها ، وكانت القافلة مكونة من قطيع صغير ، وقد تعرّف عليهم صاحب ربعتنا (الأمان) وقال بأنهم من أقاربه وردوا عين المـاء التى فى المنطقة ، وما هى إلا سويعات حتى وصلنا إلى مخيمهم فدعيت إلى الدخول إلى خيمتين صغيرتين للكشف على أحد المرضى ، وكان شيخاً كبير السن . وفى حالة سيئة من الضعف والهزال وكان يشكو من آلام فى معدته ، وهى من الأمراض المتفشية فى المنطقة . ولكن أفرادا من قبيلة الرواشد كانوا يعزون مرض الرجل إلى الزار . الذى هو من أسـوأ أنواع الشياطين ، أما المريض نفسه فقد كان يعتقـد بأن مرضه من عند الله .

وكان العلاج الوحيد الذى استطعت أن أقدمه الى الرجل هو شىء من التمر وان كنت أعتقد بأن التمر هـو آخر شىء يحتاج إليه المريض ، وكانت العادة عند البدو أن تعالج تلك الحالة بتناول شىء من بول الناقة أو لعابها (الذى يقال أنه يطفىء حدة الظمأ) ويتم استخراج ذلك بإدخال مهماز فى بلعومهـا .

ولبول الناقة عندهم فوائد أخرى . فهو يستعمل كغسيل للشعر اعتقادا منهم بأنه يقضى على القمل ، وجميع النسـاء البدويات يستعملنه بهـذه الطريقة ، وبالإضافة الى المريض كانت فى الخيمة امرأتان محجبتان وصبى ، وعلى الرغم من أنهما كانتا محجبتين الا أن ذلك لم يكن يحول بينهما وبين التحدث إلى الرجال ، وكانت إحـدى السيدتين زوجـة للشيخ والأخـرى زوجـة لابنه . أما الصبى فهو الأبن الأصغر للشيخ وكان فى نحـو الرابعة من عمره ورأيته يجرى حـول الخيمة وهو عارى الجسم ، كما أنه لم يكن مختونا ، ثم دخل الى الخيمة يحمل فى يديه أرنبا جريحا وكان معه كلب سلوقى ، لونه بنى غامق .

ويحتفظ جميع أفراد قبيلة مرة بهـذا النوع من الكلاب يصطادون به

الأرانب . والظباء . كما يأكلون لحمها . وهؤلاء على عكس قبيلة الرواشد التى لاتعرف اقتناء الكلاب .. وعندما سرنا فى اتجاه المنطقة الشماليه . كنا نمر من وقت لآخر على آثار أقدام بعض الكلاب . ثم آثار صاحبها البدوى . وفى بعض الأحيان كنا نرى زوجين منها كبيرى الحجم مما يدل على أن الكلاب المذكورة كانت كلابا ضخمة وقوية .

أما الخيمة المزرية التى دخلت فيها فكان سقفها منخفضا جدا . لايسمح إلا بجلوس رجل واحد . وكانت تلك الخيمه مصنوعه من عشرين قطعة من نسيج صوفى بنى وابيض ويبدو أن الصوف البنى كان من وبر الجمل والصوف الأبيض من صوف الماعز الحساوى . وكان كل خيط فى تلك الخيمة من صنع النساء . وبالمناسبة فقد رأيت الإبرة التى يستعملنها فى صنع الخيمة كما رأيت بعض الأوتاد المصنوعة من قرون بقر الوحش .. وكذلك بعض القضبان الحديدية الكبيرة من النوع الذى يستعمل فى حفر الآبار . كما رأيت كذلك حجرا مستديرا من النوع الذى يستعمل فى المرتفعات الشمالية كمطرقة فضلا عن هودجين وعدد من الدلاء الجلديه المعلقة ووعاء من الجلد .

كل تلك الأدوات تشكل الممتلكات المتواضعة للبدو . يضاف إلى دال الممتلكات الثمينة الأخرى التى هى الأسلحة والجمال .

ومن الدكاكة عبرنا الى منطقة سويحب وكانت من أوسع المناطق الرمليه فى تلك البقاع . والمنطقة تستمد اسمها من طبيعتها . فكلمه سحابة تعنى الكثبان المتشابهة وجمعها سواحب وهى عبارة عن سلسلة من التلال الرمليه المتدرجة الشكل تفصل بين كل منها مساحة طولها نصف ميل تقريبا ولها محور رئيسى على الناحية الشمالية . وبين صفوف تلك التلال توجد فجوات رملية حمراء دائرية الشكل . ولم يكن يزيد ارتفاع التل الواحد منها عن خمسين الى ثمانين قدما وذلك على الرغم من ضخامة منحدراتها .

(منظر لرمال صواحب الفسيحة)

وقد قيل لى أن تلك المجموعة من الكثبان تمتد من الجنوب الغربى الى وراء منطقة جسمان مطوقه الزاويه الغربيه للدكاكه ، حيث تلتقى بالكثبان العاليه لمنطقة الجميعيات .

لقد أخذت المراعى تتناقص كلما توجهنا نحـو شمال الشمال الشرقى بعد أن عبرنا مجموعه كثبان منطقه الصواحب عبورا بطيئا . ولقد اقترن اليوم الثالث عشر فى مسيرتنا بالمرور بمجموعه من الكثبان الرمليه الضخمة . كانت تعتبر أهم منطقه مررنا بها وفى المسـاء وصلنا عند بئر البنهاء[1] وفى تلك المنطقة سجل جهاز القياس انخفاضا يصل الى نحو مائتى قـدم خلال مسيرة لاتزيد على تسعة عشر ميلا .

وخلال المسافات التى كانت تتراوح بين الصعود والهبوط ، الى الشرق . كان المـاء شديد الملوحة ولايستطيع أحـد حتى من البدو فى تلك المنطقة أن يشربه بل فى بعض الحالات تمتنع حتى جمالهم عن شربه ،

كان لبن الناقة هو الغذاء الرئيسى غير أنه كان بكميات قليلة ، وذلك لأن الناقتين اللتين حصلت عليهما بعد محاولات كثيرة ، كانتا على وشـك الوضع ، وفى تلك الحالة تقل كمية اللبن فى الناقه ولابد من ارغامها على شرب المـاء — لكى تدر اللبن .والحق أننى كنت أشعر بالتحسن رغم أن وزنى قد نقص بنحـو كيلو جرام .

أما عن عين المـاء التى فى البنهاء فقد دلنا عليها حمـد بن هـادى

---

(١) كان الماء فى تلك المنطقة على عمق قامتين فقط ، ولم يستطع الحساء الذى أعددته أن يوقف ملوحة ذلك الماء . ولا لونه المغبر حتى أننى عدلت منذ ذلك الوقت عن تناول الماء ، الا فى الحالات الاستثنائية ، او عند التوقف ، لأن طعمه كان فى غاية السوء سواء فى الفم او المعدة . . .

(٢) . . سميت البنهاء بهذا الاسم لوقوعها فى وسط الطريق بين عين هادى وعين البواح .

مسئول القافله . لأنه هـو الذى قام بحفرها . وقد سبق أن نوهت بحمـد كدليل نفسه . لان مهمه الدليل فى تلك المناطق الصحراويه لاتتطلب ذاكرة قويه فحسب بل معرفه كذلك بمناطق المياه والمراعى وقدره على فهم أنواع الرمال والابتعاد عما يكمن تحت طبقاتها من آفات وكوارث . وهذا لايعنى ان كل من فى الصحراء يستطيع أن يقوم بهـذه المهمة وهى عمل الدليل . فكثير من هؤلاء يموتون من العطش خصوصـا إن ضلت القافلة طريقها فى فصـل الصيف . ولذلك فإن من الضرورى على أصحاب الجمال إذا ضلت أن يقتفوا آثارها . وأن يعتمد الواحد منهم على الآثار السابقة أو على آثار الجمال الأخرى . فإن ذلك يعد ضمانا للوصول إلى موارد المياه . ولكنه إذا هبت الريح فإنها تمحـو تلك الآثار خصوصا وأن الرياح هى الخطر الذى يداهم سكان الصحراء دائما وأبداً .

فقبل سبع سنوات تقريبا تعرضت إحدى قبائل المهرة من سـكان المرتفعات لغارة قام بها اثنان من قبيلة المناهيل وعادا بعشرة جمال من تلك الغارة ولمـا اكتشف المهرة تلك الحادثة أخذوا يتتبعون آثار المغيرين حتى وصلوا الى منطقة الدحية وهى منطقة لم تكن معروفة لهم من قبل وهكـذا وصـل المهرة إلى بعض عيون المـاء فظنا منهم أن اللصين لابد أن يتوقفا عندها أو يمران بها . غير أن المناهيل كانوا أذكى منهم . فقد تجنبا المرور بالدحيه وواصلا سيرهما نحو الشمال عبر الرمال القاتلة ، وعندما توقفا بالقرب من البئر . جاء أحدهما وملأ القرب بالمـاء . وعاد إلى صاحبه فى المنطقة التى خيما فيها . ومن ذلك المكان استأنفا سيرهما وأما المهرة الذى كان الأمـل يراودهم فى العثور على المغيرين فظلوا يتتبعون آثارهما وكانوا يتصورون أنهما لابد أن يمروا فى طريقهما على أحـد عيون المـاء ليشربا منها ، غير أن الأمـور سارت على عكس ذلك فقد هبت عاصفة رملية ومحت جميع الآثار سـواء تلك التى كانت أمامهم أو خلفهم . وهكذا ضاعوا فى الرمال ، وبعـد مضى ستة أشهر عثر رجل من قبيلة الرواشـد — وكان من المرافقين لى — على سبعة هياكل بشرية الى جانب سبعة من هياكل الجمال .

لقد أعجبت كل الاعجاب بدقة حمـد فى تحديد الاتجاهات التى كنا نسير فيها . وقـد أخذت أراجع البوصله لكى أقارنها بتحليلات حمـد ، فلم أكن أجـد فيها فرقا أكثر من خمس درجات وعلى أية حال فقد كان وجـود الشمس من خلفنا يعرقل تحديد اتجاهنا تحديدا دقيقا • وقـد اكتشفت أن حمـد كان يعتمد فى تحـديد المسافات والمواقع على الممرات الرمليه • وقد كنا فى تلك السـاعة على خط طولى ٥٠ر٤٥° • أما فيما بعد وفى المناطق الرمليه التى لم تكن توجـد فيها مثل تلك المعالم فقد كان الاتجاه كما حدده لى حمـد غاية فى الدقة مما جعلنى أبحث عن أسباب أخـرى لتلك المهاره . وربما كانت التعرجات الواضحة ، على الرمل التى كانت تنشأ عن هبوب الرياح أحـد الأسباب وإن كنت أعتقد فى الواقع أن تلك المهارة ترجع فى المقام الأول الى الموهبة الفطرية التى يمتاز بها الأفراد مثل حمد •

فحمـد لم يذهب الى تلك المناطق منذ سنوات عديدة وبحكم طبيعـة الحياة البدوية لم يكن حمد قد مكث فى تلك المناطق فترة طويلة ، وعلى عكس زملاؤه باستثناء واحد منهم فقد كان يعرف أسماء البروج والكواكب[1] • وعلى أساس تلك الفروض لاتبقى الصحراء بأسرارها ومتاهاتها لغزا أمامنا •

وفينوس هو النجم الوحيد الذى ليس له اسم عندهم ، وكذلك المريخ والمشترى •

---

(١) اسماء الكواكب على الصفحة التالية .

الاسم بالإنجليزية	الاسم بعربيه الربع الخالى
التبـــر	النسر الطائر
ويجـــا	النسر الواقع فسرام الوجـــع
بولريس	نجم القطب ــ الجـدى
جريت بير	السـبع
كبيلـه	نجم آخر يسمى نبات نعش
بلاريس	العيوق العنبرى
الديدان	الثريـــا
أوريجـا	الثور ــ كلب الغنم
أوريـون	ذو الاعنه ــ الغنم
	الجوزاء ــ سعـد
	ثلاثة نجـوم صغيرة تسمى الجمبيه
أشرناه	سهيل ــ سهيل الكاذب[1]

عند وصـولنا الى خط عرض ٢٠° . أبـدى المرافقون اهتمام كبيرا بالمنطقة نظرا لوجود بعض الشجيرات الخضراء ملحية التربة . وكان ذلك النوع من الأشجار التى تعمّر طويلا دون ما حاجـة الى ماء أو الى رى . على عكس الاشجار والنباتات الصحراوية الأخرى . وهذا يمكن السـكان من الاعتماد عليها فى معيشتهم حتى فى فصـول الجفاف . وفى تلك المنطقه

(١) .. ان أسماء النجوم بالمقارنة الى اسمائها عندنا هى كالآتى :
النبر = النسر الطائر ، ريجل = العقرب . وهذا يذكرنا بالحقيقة التى تقول بان كثيرا من الأسماء التى نطلقها على النجوم مشتقة من البابلية نسبة الى الحضارة البابلية وذلك عن طريق العرب . وفيما يلى اسماء بعض النجوم التى حصلت عليها من بعض قاطنى الربع الخالى الذى لم يحدث ان خرج من هذه المنطقة .

الاسم بالانجليزية	الاسم بعربية الربع الخالى
سكوربيو	العقرب
شـــولا	ذيل النجم
فينـــوس	الزهرة

تقيم قبائل المناطق الجبليه ، ولاترحل عنها إلا إذا اضطرت إلى الانسحاب الى المرتفعات الحدودية ، كتحرك قبيله الروانسد إلى منطقه أم الحياة عبر الجنوب الشرقى وواحه مقشن . وكهجره قبيله مره الى الآبار الشماليه فى جبرين أو إلى جفيرة الجبن .

كان السير فى اتجاه الشمال عن الطريق الشرقى قد جعل الرحله أكثر متعه ، فقد أخذت النسمات العليله الخفيفه تهب علينا . وهناك تغير لون أخاديد منطقة سويحب الى اللون الأحمر . كما كانت الكثبان ناعمة تغرى بالتوقف بين وقت وآخر — وذلك لكى نمهد الطريق بأيدينا لتعبر فوقها الجمال . وكانت المناطق جافة وعطشى ، عدا وجود بعض الأغصان الندية تتحرك مع هبوب الريح بموازاة صفوف التلال إشارة الى أن الرياح شمالية شرقية .

بعد الظهر مرت قافلتنا بثلاثة عيون ضحله . هى باحه السلامه . وباحة هجران وباحه جمال ... وقد نبه أفراد القافلة إلى وجود عين على الناحية اليمنى .. ولكنها كانت شديدة الملوحة بحيث لم يستطع أحد منا ان يشرب منها .. كما أعرضت الجمال عنها أيضا .. ولهذا أطلق على تلك العين (أم الخيران) .. وهو الاسم الذى يطلق على عيون الماء المالحة . أما البدو الذين لم يتزودوا بالماء فى الدكاكة ، فقد تزودوا به من بئر جمال . كما شربت القافلة من ذلك الماء لأنه كان ماء حلوا إذا ما قورن بالماء الذى مررنا به سابقاً إذ كان شديد الملوحة ومضر بالمعدة . كذلك فقد كانت المراعى فى تلك المنطقة غير صالحة هى الأخرى .

فى اليوم الثانى عبرنا من منطقة الباحة إلى أم المليسة — فأخذت الكثبان تزداد وعورة ، كما أخذت التلال تختلط فى أشكالها . وتتفرع إلى حلقات عديدة . وقيل إنها تستمر على ذلك الوضع فى اتجاه الشمال على امتداد مسيرة يوم واحد مكونة شكلا على هيئة حرف (S) باللغة الأنجليزية وذلك فى منطقتى الكروسوا واليسا .. حيث تلتقى بكثبان السعفيف شمال خط العرض ٢١ شرقا .

كان الحر شديدا فى تلك المنطقة بالرغم من أننا كنا فى شهر يناير . وللمرة الأولى خلال الرحلة أشعر بإرهاق شديد بسبب حرارة الشمس التى ظلت تلسعنى فى ظهرى قرابة تسع ساعات متواصلة وأنا على ظهر الناقه بالإضافه إلى العطش الشديد الذى كنت أشعر به بعد الشرب من ذلك الماء الملوث . وقد مرّ أكثر من أسبوع دون أن أدون أية ملاحظات عن الرحلة فلم يكن ثمة متسع أو فرصة للقيام بذلك ولو أن المخزون من الأطعمه كان وفيرا ، فربما كنا توقفنا ولكن الأمر كان يتطلب مواصلة السير . كما كان البدو بدورهم يحبذون ذلك حتى نصل بأقصى سرعة ممكنه الى جنوب المرازيق وهى المنطقة التى كنا متجهين اليها على الرغم من الارهاق الشديد الذى حل بالإبل فى تلك المناطق القاحلة .

وقد أخذ خطر الغزو يتناقص كلما تقدمنا فى مسيرتنا فتركنا المناطق الموبوءة وراء ظهورنا حتى أن قبائل الصيعر سبق لها أن توغلت إلى تلك المناطق الشمالية ولكننا الآن وقد أصبحت غالبية الرواشد خلفنا فى الجنوب فقد نلتقى هناك بإحدى قبائل الغزو ولو أنها على أية حال لاتجازف بالتقدم كثيرا وتعريض نفسها إلى خطر قطع خط الرجعة عليها .

إن قبيلتى الرواشد ومرة الجنوبيتين ترى فى قبيلة الصيعر مصدر تهديد ورعب دائم لها فهى تنشىء أبناءها على مبدأ الثأر والانتقام واللجوء إلى الحرب لاسترداد ماتكون قد فقدته من أمتعة وممتلكات . والسبب الرئيسى الذى يدفع بالقبائل إلى عمليات القتل والنهب وإثارة الضغائن والأحقاد القبلية هو سبب اقتصادى فى جوهره . فالقتل هو شريعتها ، والاستيلاء على الإبل هو هدفها وفترات السلام أو الهدنة بين تلك القبائل أقل من فترات الحروب ، فإذا ما نشبت حرب قبلية فعلى الجميع أن يشتركوا فيها ، لأن التخلف دليل على الجبن ذلك أن القتال والموت فى سبيل القبيلة يعتبر بطولة ومجداً . أما الذين يتخلفون عن الحرب ويؤثرون البيت على ساحة الحرب أو يقدمون الأعذار للتنصل من تأدية ذلك الواجب فإنهم فى

نظر القبيله جبناء ولا يحظون بالاحترام وقليلا ما يجدون فتاة يتزوجون منهـا .

لقد أخبرنى كلفوت ابن الشيخ صالح عن حادثة وقعت له مع بعض أفراد قبيله الصيعر وهى حادثة أجد من المناسب أن أسجلها هنا لا لأنها تعطى صورة صادقه عن علاقة القبائل المتناحرة بعضها ببعض فقط ، وإنما لما تثلقيه كذلك من أضواء على سيكلوجية الحياة فى الصحراء .

نشبت حرب بين قبيلتى الرواشـد والصيعر واستمرت لفترة تزيد على العام . وأخيرا قررت قبيلة الصيعر أن تتقدم بمبادرة سلمية ، وكان المتحدث أحـد أعضاء الوفد الذى اشترك فى توقيع هدنة استمرت عاما واحـدا . وعندما خرج الوفد مروا بمناطق قبيلة الصيعر على المرتفعات أملا فى لقاء أحـد من رجالها يضمن لهم الأمان حتى وصولهم إلى مواطن قبيلة الصيعر . ولكن الاستماع الى رواية هـذه الحادثة من كلفوت ، كان أكثر إثارة ـ فقد كان يتكلم ـ ونحن نجلس أمام نار المخيم بحماس شديد، ومن عادة البدوى إذا تحدث أن يحرك يديه وعينيه ، والقصـة كما رواها تتلخص فيما يلى :

فى عصر أحـد الأيام وقت صلاة العصر كنا نجلس على ضفة أحـد الأودية ، وأخذنا نراقب المنطقة فشاهدنا خمسة من البدو بالقرب من مخيمهم وقد سرحوا الجمال لكى ترعى ، ومن ركاب جمالهم استطعنا أن نعرفهم ، وقد تملكنا الطمع رغم أننا كنا فى مهمة محدودة ، الا أننا حتى ذلك الوقت لم نكن قد نفذنا الهدنة ، وبما أننا كنا فى حالة حرب مع قبيلتهم (الصيعر) فقد أيقنا أن الله سبحانه وتعالى قد أوقعهم بين أيدينا ، وكان الوقت قبيل الظلام وانتظرنا حتى يأووا الى مخيمهم للنوم ، وعندئذ نزحف عليهم وهم نيام ونبيدهم عن آخرهم ونستولى على ما معهم من غنائم الا أننا انقسمنا فى الرأى . وكان رأيى أننا كنا فى وضع أفضل منهم لأننا اكتشفناهم قبل أن يعلموا بوجودنا ، وعلى أية حال فإن اثنين من رؤساء وفدنا ، وكان أحدهم

عمى سيف شيخ السعادنه لم يوافقا بحجه أن أولئك قد يكونون من بعض الشخصيات القبلية البارزة فى المنطقة . وأن وجودها فى تلك المناطق المتقدمه دليل على أنهم فى حالة حرب مع بعض القبائل . وبالتالى فلم يكن من المحتمل أن لديهم استعدادا للدخول فى مباحثات للسلم . ولابد لنا أن ننهى مهمتنا هنا وأن نسرع بالعودة . غير أن الكبرياء كان يمنعنا . وكان يشاركنى هذا الرأى اثنان من الشباب ولهذا رفضت فكرة العودة قبل الاستيلاء على جمال أعدائنا . غير أن العناصر المتعقله فينا طالبت بالتروى والحكمه . وطالبوا أن ننتهيا للعودة إلا أننا لم نوافقهم . فتركونا ورحلوا . فقمت أنا وأخت ناقتينا فى احدى المناطق الآمنة وأخذنا نزحف إلى حافة التل وذلك لمراقبة تحركاتهم .

وكما كنا قد توقعنا فإنهم قد سرحوا الجمال وتوجهوا إلى المخيم . ولما كان عددنا قد انخفض الى اثنين فقط وكان هم عددهم خمسه افراد وبالتالى أيقنا أنه من المستحيل أن نتغلب عليهم . ورأينا أن ننتظر حتى منتصف الليل ثم نزحف إليهم ونأخذ جمالهم ونولى الأدبار . حتى إذا أشرق الصباح نكون قد قطعنا مسافة طويلة لا تسمح لهم بمطاردتنا .

وهكذا أدينا صلاة المغرب وعدنا للمراقبة وبقينا هناك ننتظر حتى انطفأت نار مخيمهم . وعندئذ زحفنا بمنتهى الحذر إلى مرابض الجمال . والواقع أنه كان فى استطاعتنا أن نقتلهم جميعا . لو كنا أكثر عددا منهم ولكننا فضلنا الحصول على الجمال والعودة الى مناطقنا ... وحدث أن استيقظ أحد الصيعريين قبل الفجر واكتشف ضياع الجمال فأيقظ زملاءه فجاءوا فى أثرنا على ضوء القمر ولكننا كنا قد قطعنا مسافة طويلة حتى ظهر اليوم التالى . ولما كنا مرهقين . وتصورنا أن الوقت لايزال أمامنا . توقفنا أنا وزميلى لأخذ قسط من الراحة فغلبنا النوم وفجأة استيقظنا . فشاهدت أمامى رجلا على بعد نحو مائة خطوة . وكان من البدو . وكان يصوب بندقيته على فالتفت حولى بسرعة . ولما لم أجد معه أشخاصا

آخرين اعتقدت أنه جاء بمفرده ولهذا قفزت الى منطقة خلف الصخور لأتخذ منها ساترا وسحبت بندقيتى من كيسها[1] • ولكنه أخطأنى فى طلقته •

وفى تلك الأثناء حشـــوت بندقيتى بالدخيره • وقد اعتقدت أن تصرفه ذلك كان من قبيل الدفاع عن النفس أو أنه ربما يكون من الأصدقاء . لعله أحـــد المهرة وظننى واحداً من الصيعريين . لهذا صرخت فيه قائلا : نحن رواشـــد •• فلا تخف منا • فرد قائلا : فى وجهى أنا فلان ابن فلان •• من قبيلة الصيعر ونحن « بعد أن ذكر كل منا فرع قبيلته » • بيننا وبين قبيلة الرواشـــد هدنة . وإن عندكم جمالنا ونحن أقـــوى منكم وورائى مالا يقل عن ثلاثين رجلا ••• فصحت فى وجهه : أمنى على حياتى وبعيرى وبندقيتى ••• فرد قائلا « فى وجهى ••• •• ••• » ثم نهضت ولكن رغم ذلك فان رجال قبيلته الذين جاءوا فى أثره ، ولم يكونوا قد علموا بمـــا حدث بينى وبينه استل أحد أفرادها خنجره وطعننى به فى ساعدى وهنا بصق كلفوت على ساعده وأخذ يرينى موضع الجرح الذى أصيب به ••• بينما طعن الآخر رفيقى بخنجره ولكنه لم يصب الا بجرح بسيط على الجبهة بين العينين ، رغم الدم الكثير الذى ســـال منه •

وعند ذلك والحمد لله تقدم الرجل الذى أمننا على حياتنا وتدخل . وبذلك أنقـــذ أرواحنا •••• فقلت له : إذاً دارت عليكم •• أليس كذلك ؟

وقد أخذوا الناقتين بالإضافة الى جمالهم . كما أخذوا بنادقنا وخناجرنا على الرغم من أنهم قد وعدوا بإعادة الجمـــال والخناجـــر إلينا . وبالفعل أعادوها ، لأنه بعد أن عقدت الهدنة بيننا . أعدت إلى بندقية وجمل آخـــر بدلا من بندقيتى وجملى الأصليين . ولكنى لم أسترجع الخنجر • وهـــذا

---

(١) .. كل فرد من افراد البدو من سكان الربع الخالى يغلف بندقيته بكيس خشن من الجلد لكى يمنع دخول الرمال الى قلب البندقية . وهو يصنع هذا الكيس بنفسه . وهو عادة يكون من جلد بقر الوحش او غيرها من الحيوانات كما يضع على فتحتها عنقودا من الصفائر الجلدية لتزينها . اما الموسرون من عرب عمان فانهم يزينون كعوب بنادقهم بشرائط ذهبية وفضية . وذلك كنوع من اظهار اهميه البندقية والاعتزاز بها .

شيء مخالف للعرف . لأنه لاتوجد اتفاقية تنص على إعادة الأسلاب بين القبائل التى تتوارث العداء فيما بينها • وأن السلام يتم وفق الطرق المتبعة ، وهى أن ما مضى قد مضى « •• ثم واصل كلفوت حديثه فقال ، ولكن قبيلة الصيعر نفسها قد تعرضت لنفس المصير •• فعندما كانت عائدة إلى الشرق • والتقت بإحدى المهرة ومعه زوجته وجمله • تم ذبح الرجل . وأخذوا جمله . ولكنهم ما كادوا يصلوا الى أرض قبيلة المناهيل حتى اصطدموا بفريق مغير . أكثر عددا منهم . من بيت كثير والمهرة • فقتل زعيمهم فى تلك الغارة وعادوا هم فارين ، بعد أن صارت ممتلكاتهم غنائم فى يد ابن طناف وجماعته [1] •

---

(١) •• ابن طناف هو الاسم الوراثى لزعيم قبيلة المناهيل . ويعتبر الزعيم الحالى من اشهر الزعماء الذين يخططون للغارات . وللزعيم دائما حق الأولوية فى اختيار اثنين أو ثلاثة من افضل الجمال التى يتم الاستيلاء عليها ، أو يتم تقسيم الغنائم بالتساوى فيما بينهم .

الفصل الثامن عشر

رحلتنا عبر منطقة الرمال الوسطى

كانت منطقه سويحب غير بعيده عنا . فقد تركنا خلفنا تلك الكثبان الحمراء التى كانت تنعكس فوقها أشعه الشمس لتحيلها إلى قطع بيضاء كالثلج . كما خلفنا وراءنا تلك المراعى الخضراء التى مررنا بها فى بدايه المسيرة ، وعلى خط عرض ٢٠ر٤٤ درجة •

مررنا بحزام رملى ضيق . أعقبته مساحات رمليه شاسعة باهته اللون أشبه بالمحيط . كما كنا قد مررنا على بعض المناطق الخضراء التى يكسوها العشب الصحراوى . وتتناثر فوقها رمال بيضاء ناعمة تدفعها الرياح الجنوبية التى تهب عليها . أما فيما عدا ذلك . فقد كانت المنطقة أمامنا صحراء قاحله لا نبت فيها على الاطلاق . وتمتد مسحات كبيرة فوق مناطق المرازبق والنويحيف • والمنجر . بحيث أصبحت تلك المنطقة مقبرة لكل من يقذف به سوء طالعه اليها •

ورغم ذلك استطاع أحد أفراد قبيلة مرة أن يرعى قطيعا فى تلك المنطقة قبل أربع سنوات . وقد أخبرنى بذلك البدو بشىء من المبالغة . ويعتقدون أن تلك المنطقة كانت فى يوم من الأيام من المناطق الخصبة • وكان ذلك يتضح من منظرها . كما أن ذلك يفسر لنا الحرص المستميت للبدو على الاحتفاظ بتلك المراعى وموارد المياه القليلة التى توجد فى تلك المنطقة . فضلا عن أن ذلك يؤيد الشكوك فى طبيعة بدو الصحراء ومن تلك المنطلق يمكن تفسير ظاهرة الهجرات العربية القديمة بأنها ترجع الى تلك التقلبات المناخية . بحثاً عن الماء والطعام ••• وهى لا تختلف عن هجرات الغزو للاجناس السامية كالبابليين والكنعانيين لسوريا والهكسوس لمصر • وأخيرا الغزو العبرى لفلسطين •

ولقد شاهدنا فى تلك المنطقة أدلة على وجود حياة حيوانيه قديمه . وربما كانت من قبيل الصدف أن اثنين من العينات التى أمكن الحصول عليها فى تلك المنطقة تؤيد ذلك الاحتمال . وكانت إحدى تلك العينتين ثعلب رملى اللون أكبر قليلا من القط وان كان بحجمه الطبيعى . وقد تبين من فحص الأسنان بأن الثعلب من الفئات الجديدة . ولعله كان من الفصيله العربية للثعلب المصرى . وأما العينة الأخرى فقد كانت بيضة نسر عثر عليها فى أحد الأعشاش الضخمة التى تشبه عش الرخ الانجليزى . ولكنه أكبر منه ، كان العش مغطى بسقف من أوراق العشب . لكن الطير نفسه لم نره . أما البيض الذى حصلنا عليه فكان يشبه الى حد كبير بيض النسر الحبشى .

والعرب لا يحللون أكل هذا البيض . وإنما يأكلون بيض الحبارى بشهية متناهية . وقد كنا نصادف تلك الحبارى التى كانت بحجم الديك الرومى فى منطقة الرمال الوسطى الجنوبية . ويمكن للبدو أن يصطادوها إذا مشوا وراءها بخطى بطيئة ، ثم اطبقوا عليها من جميع الجهات . ولكنها تنفر من شخص بمفرده لأنها لاتثق فيه . ولهذا فإن المحاولات العديدة التى بذلناها للحصول على شىء منها لم تسفر الا عن مشاهدة طيور طائرة فى الجو .

إن حياة الطير فى مناطق الرمال ضئيلة جدا وأكثر الطيور تواجدا هى الغربان بجميع أنواعها ، وعلى العموم فالطيور التى كنا نصادفها كانت فرادى أو فى معظم الأحيان أزواجا . وقد شاهدت مرة أربعة حبارى ، وفى المرة الثانية ستة غربان ، ولكن ذلك نادرا ماكان يحدث .

كانت مجموعة العينات التى حصلت عليها لاهدائها لمتحف التاريخ الطبيعى يتكون معظمها من الحشرات الصغيرة والخنافس والعناكب والفراشات ويعسوب واحد كما اشتملت على (فرس النبى) جديد

(الطلب لم يعرف شكله من قبل)

(عش نسر)

وجرادة من نوع جديد[1] .

أما الثعلب و الارنب الذان كانا لونهما لون الرمل فهما من الحيوانات التى تعيش على نطاق واسع وعلى الأخص فى الرمال الجنوبية . كذلك كان هناك الفار الرملى الى جانب القط والذئب البرى . ولسوء الحظ لم أتمكن من صيدهما . أما الذئب فيقال انه صغير الحجم ولونه لون الرمل وهو يعيش بصفة رئيسيه فى منطقة سويحب حيث يقوم هناك بحفر نقوب فى الرمال بمخالبه للحصول على الماء .

أما الزواحف فقد جمعت اثنتى عشرة عينة منها وكلها لها خراطيم بارزه تستخدمها للحفر فى الرمال . وأكثر أنواعها هى السقنقور . ولها جسم مربع الشكل ولونها كلون الرمال وعلى جوانبها علامات سوداء . أما جلدها فلامع ناعم يشبه جلد الحية ولكن ذلك لم يمنع أحد البدو من إدخال الحيوان فى فمه ، وقد جمعت « عظاءات » أكبرها الورل وهو من الزواحف القوية الخبيثة التى يصعب اصطيادها باليد الا بواسطة القبض عليها من وراء رأسها .

والورل على العكس من « العظاءات » الاخرى التى تعيش فى المرتفعات لا يأكلها البدو . وعندما فتح بطن إحدى السحالى من هذا النوع وجد بداخلها سقنقور صغير الحجم . أما عقارب المنطقة فكانت من الأنواع الصغيرة ذات اللون الأخضر الشاحب . على عكس الأنواع التى تعيش فى المرتفعات والمناطق الجبليه وكانت ألوانها سوداء وبيضاء .

ولم أعثر الا على ثلاثة أنواع من الثعابين كلها رملية اللون وهى البواد، والأفعى القرنية . والثعبان . وكان للمكافآت التى أدفعها للبدو أكبر الأثر

---

(١) . . كان عدد العينات التى جمعتها من منطقة الرمال ١٢٥ عينة . ويمكن الاطلاع على ملاحظات الاداريين فى المتحف البريطانى (قسم التاريخ الطبيعى) فى الملحق الثانى .

فى تشجيعهم على بذل أقصى مافى وسعهم لجمع تلك العينات للمتحف .

كما أن تخفيض عدد المرافقين لى فى رحلتى الى المنطقه الشمالية قد هيأ لى الفرصة لدراستهم عن كثب ، وذلك على عكس المجموعات الكبيرة التى كانت تصحبنى فى بداية الرحلة .

ان البدو إذا لم يكونوا من المتعصبين الدينيين — وتلك حاله تجعلهم متحفظين وحذرين — يمكن أن يكونوا مرافقين ظرفاء يحبهم الانسان وبخاصة اذا عرف كيف يستثير حماسهم عن طريق الاشادة بمزايا الجمل . وترديد الأحاديث عنه وعن الركاب والبنادق ، وحتى ولو لم يتجاوب البدوى مع غيره فإنه سرعان ما يألف صاحبه إذا عرف كيف يستثير نخوته . ويستغل ذكائه .. وعندئذ يمكن أن يتحول الى صديق لطيف المعشر ، كما أنه متى أراد شيئا من صاحبه ، فإنه سوف يبذل كل جهده للحصول عليه . وهو دائم الشكوى من المشكلات ، وعلى رأسها أوجاع البطن ، وهو المرض المستوطن فى تلك المنطقة ، أما الحميات فلا وجود لها فى منخفضة الرمال .

وقد سمعت المرافقين يتحدثون عن الملاريا كمرض معد ، وعندما أبديت رأيى فى ذلك الموضوع كان تعليقهم « لا اله الا الله » . وهى العبارة التى يرددونها كلما ذكر شىء غريب . وقد ذكر الشيخ صالح بأن الملاريا منتشرة فى ظفار ، وبالتالى فإن زيارته لظفار كانت مشوبة بالحذر والخوف ، على الرغم من وجود البعوض بكثرة بالقرب من الآبار وعيون المياه فى مناطق الرمال . الا أنه أمضى ليلة قلقة فى ظفار ، ولم يشعر خلالها بارتياح الا بعد مغادرته المدينة .

أما القمل والبراغيث فكانت توجد بكثرة ، وكان من عادة بعض المرافقين أن ينتحوا جانبا فى أية منطقة من المناطق التى نخيم فيها ليفتشوا رؤوسهم بحثا عن القمل . وقد سألنى واحد منهم ما اذا كنت قد اكتشفت

ى قمل فى متاعى . ثم علق قائلا بأن حشايا القش التى يفرشون بها ركاب الإبل لاتجذب القمل والبراغيث . أما الحشايا المزدوجة الفرش التى نستعملها قبائل مرة فهى المرتع الأفضل لأسراب القمل .

وقد حاولت تغيير مجرى الحديث عن القمل الى موضوع أكثر تشويقا . واذا بى أستمع الى حديث تسيق من أحد أفراد قبيلة بنى هلال . الذى سألنى عما اذا كنت أرغب فى الاستماع الى ماحدث بعد ذلك للفتى سىء الحظ عزيز بن خاله . فرحبت بالفكرة . فأخذ الرجل يقص حكاية تضحيه مفتعلة لعزيز لإنقاذ حبيبة والده فقال : كان أبوزيد يحب فتاة اسمها (علية) من قبيلة تسكن بجوارهم .. وذات يوم توجه لزيارتها بصحبة عزيز الذى لم يكن قد رأى الفتاة من قبل . وأثناء الطريق أخذ أبوزيد يمدح محبوبته ويقول لعزيز : انك سوف تراها وعندئذ ستعرف كم هى ذات حسن وجمال فإن جلست مع نسوة فإنها تبدو أطول قامة منهن . وإن وقفت بينهن فإنها تبدو أقصر منهن .

وفى الطريق مرا بإحدى عيون الماء حيث كانت بعض الفتيات تملأ جرارهن . وكانت علية بينهن ، فرآهن عزيز أولا وهن جالسات على حافة العين . وعندما نهضن ليذهبن عرف عزيز من هى فتاة أبوزيد ، وكانت الفتاة مخطوبة لأحد أقاربها ، وفى الليلة المحددة لزفافها الى زوجها الذى لم تكن تحبه أو ترغب فى الزواج منه لأنها فى الحقيقة كانت تحب أبوزيد ، تسلل عزيز الى بيت الزوج وارتدى زى العروس وتزين بحليها ونام فى مكانها . بينما ذهبت هى الى البرية حيث كان أبوزيد فى انتظارها وقضت الليلة بين أحضانه . وعندما دخل زوج علية إلى خدرها وأراد الاقتراب منها وكان يعرفها حق المعرفة كان عزيز يصده عنه ولم يتكلم . ولهذا توجه الزوج فى اليوم التالى إلى الإمام ليشرح له مشكلته ثم قال له إننى غير متأكد ما اذا كانت علية أم غيرها وإنى شخص قوى ولا أعتقد أن أحدا يستطيع أن يغلبنى سوى عزيزا بن خاله ، فأوصاه العالم بأن يعود إلى علية فى الليلة التالية

واذا لم تستجب له . فيقطع من شعر رأسها ويغرس إبرة فى مقدمة الأيسر . فاذا ماتت هى عليه . فسوف يبقى . ما دام ثابت بمقدمة أحمر فإنه سوف يموت وسوف تعرفه من الشعرة .

وهنا أخذ يروح المزرعة فى اتجاه البيت واقترب من غيط محمدنه عندما شغلت فى المرة السابقة وحدق المسجرة التى دق بينهما سد شعره من رأس عزيز ثم غرس إبرة فى إحدى عروق خده ثم خرج .

سقط عزيز تحت الشجر وراح يجرى الى ابيه فى البرية يخبره بما حدث له . فرفع عبة بالأمر . غير أن أبوزيد انتزع شعره من رأسها ثم شغلت بإبرة فى مقدمة حتى يراها فروح عندما تعود اليه فتبتعد الشبهة عنها . وبعد ذلك رحل من أبوزيد وعزيز مكانه ورحلا بينما كانت الإبرة لاتزال فى خد عزيز . لأنه لو حاول إخراجها فسوف ينزف دمه حتى يموت . فرحلا الى سهل فسمع غسال عزيز والده : لأى شىء يصلح هذا المكان ؟ فقال أبوزيد : يصلح لرعى الابل . ثم واصلا سيرهما حتى دخلا فى مكان آخر فيه عرائس . فسأل عزيز والده : ولأى شىء يصلح هذا المكان يا أبى ؟ فرد أبوزيد : أن هذا المكان يصلح ياولدى لتربية الخيل .

ثم واصلا سيرهما الى أن وصلا الى مكان مقبرة . فسأل عزيز أبوزيد. لأى شىء يصلح هذا المكان ؟ ... فرد أبوزيد : أنه مكان يصلح للمقابر . فقال عزيز إذن فدعنا نحيم هنا . واحفر لى قبرا . فقام الاثنين بحفر القبر، وقام أبوزيد بنزع الإبرة من خد عزيز فنزف دمه حتى مات . فقام والده بدفنه فى تلك المقبرة . ثم استأنف أبوزيد سفره حتى وصل إلى مخيمه . فخرجت له أخته أم عزيز فرأته من بعيد بمفرده . فجعلت تبكى وتسأل أين عزيز ... ؟ فأجابها أبوزيد : لقد تم تغيير وجه استولينا على إبل المقبرة وجئت أولا لكى أبشرك بذلك وسوف يأتى عزيز فى أثرى مع الغنائم ..

(نموذج لرمـــال ســـــنام)

ولكن الأيام مرت ولم يأت عزيز ، فقلقت أمه عليه ، ولما انقضت أيام وأيام ، ولم يعد الابن الغائب ، أخذت تمر على الخيام وهى تذرف الدمع على مصير ابنها .

وكذلك كان أبوزيد حزينا عليه وأخذ يتمتم بهذه الأشعار :

لقد جئت إليك أيتها المرأة العجوز .

ببشرى غير سارة

لأنك تعرفين ديارنا

كما يعرف الذئب أين يتجمع القطيع فى الليل

أيها الحزن لوقلت أن عزيزا قد مات فإن أمه ستموت

واذا قلت أنه يعيش فإننى سأكون كاذبا

وهكذا عرفت أم عزيز بأن ابنها قد مات .. وما ان انتهى الفتى المرى من سرد تلك القصة حتى نادى المؤذن للصلاة .. فهرع الجميع لتأديتها .

خرجنا فى ١٩ يناير مبكرين جدا ، وكان اتجاهنا نفس الاتجاه أى الشمال الغربى وبالنظر إلى عدم وجود مراع على الطريق التى كنا نسلكها . ونظرا لاشتداد شدة عطش الابل نتيجة للعشب الملح الطعم الذى أكلوا منه فقد اضطررنا الى الإسراع فى السير . وبعد أن تركنا ام القرابن على يميننا ، تحدث البدو عن وجود مورد ماء على الحدود الشمالية لمنطقة « منجى » ولكننا واصلنا السير حتى بلغنا منطقة « سنام » الجبلية

الرمليه . وكانت رمال تلك المنطقه بيضاء منموجـه السبل . إن اسم سنام وهو اسم تلك المنطقه هو مشتق من اسم سنام الجمل . وهى مشهـورة بحلاوه مياهها نسبيا وآبارها العميقه . فقد كان عمق كل بئر إحـدى عشر قامه كما كانت توجـد آبار أخرى عميقه عمق كل منها خمسه عشره أو سبعه عشرة قامة فى الغرب .

أما الآبار الضحله فى المنطقه الجنوبيه فكان يعاد تغطيتها بعد استعمالها أحيانا . وذلك لمنع العبث بها . وكانت الآبار فى تلك المنطقـه مسقوفـه وعملية تسقيفها تحتاج الى كثير من المهاره والجهد والشجاعه . والواقـع أن الآبار العميقه كثيرا ما يذهب ضحيتها الذين يترودون منها لأن جوانبها رخوة جـدا . وغالبا ما ينزلق الشخص الذى يرتادها فيسقط فيها ويدفن تحت رمالها . وكان السياج الذى يحيط بها عباره عن بعض الأشجار .

وعندما كنا نمر بمنطقه الصفيف . التفت إلى واحد من قبيله مرة وأخبرنى بأن أربعـه من أخوته دفنوا فى تلك المنطقه . اثنان سقطا فى البئر عندما كانا يقومان بتنظيفها . ودفنا تحت رمالها . وعندما حاول الاثنان الآخران انقاذهما سقطا أيضا . واحتواهما البئر .. ان الصفيف مقبرة ولم نعد نذهب الى ذلك المكان .

كان شهر رمضان قد أقبل . وعلى الرغم من أن الهلال لم تتضح رؤيته حتى صباح ٢٠ يناير . فقد تعلقت الآمال على رؤيته فى المسـاء . فتوقفنا فى الوقت المناسب . وكانت العيون تنظر فى الأفق لاكتشاف الهلال . إن حلول شهر رمضان يثير فى نفوس المسلمين حماسا دينيا عظيما . وفى عمان يبدأ شهر رمضان وينتهى فى احتفالات متواصله . حيث تطلق المدافع وتقام الولائم . وكانت تنتظرنا فى رمضـان مفاجأة غير سـارة . فقد أحمـر لون السمـاء فى إحـدى الأمسيات ثم أظلمت الدنيا . وبذلك تعذرت رؤيه الهلال وبالتالى فقد تأجل الصيام الى اليوم التالى .

(استراحة لأداء الصلاة)

كانت محطتنا الثانية هى الفرجة .. على مسيرة تسع ساعات ونصف ، وقد اضطررنا الى الاسراع اليها لنفاد المـاء ، وقبيل نزولنا من على الأبل، وكان الوقت قبيل الغروب أطلقت البنادق فوق رؤوسنا ، ثم ظهر هـلال شاحب فى الأفق ، وبعد أن أخـذ المرافقون يصيحون « الحمـد للـه » أبركوا جمالهم وتوجهوا للصـلاة التى استغرقت منهم وقتا طويلا • بينما غرسـوا بنادقهم فى الرمال •

ثم واصلنا السير وأخذ اتجاهنا ينحرف الى الغرب ، وبقينا الى أن حل الظلام فشاهدنا من على بعد ضوء نار اهتدينا بها الى المكان الذى كنـا سنخيم فيه ، ونظرا لأن المرافقين على سفر فانه يجوز لهم أن يصوموا أو أن يؤجلوا صومهم الى ما بعد عودتهم الى مساكنهم [١] ولكن أحـد من البدو لم يفطر ، وقد التزم الجميع بالصـوم كما فعل الجميع فى مقشن قبل عام مضى أثناء الرحلة السابقة ، أما فيما يتعلق بالصـلاة فقد كانـوا يصلون صـلاة المسافر أى ثلاث مرات فى اليوم بدلا من خمس [٢] ، أمـا الأمر الذى لم يكن يتناسب مع ذلك الشعور الدينى الكبير فهو نظام الأكل الذى تغير فى رمضـان ، فبعد أن كان موعد العشاء بعد صـلاة العشاء ، أصبح الأفطار بعد صلاة المغرب ويتم طعام الصباح قبل الفجر ، وذلك بالنسبة الى شهر رمضـان فقط •

---

(١) ... ان قبيلة الصبعر — على حد راى قبيلة الرواشد — كمرجع فى هذا الشأن .. لايمكن ان يعول عليها نظرا لطبيعة العلاقة بينهما لأنهم لايصلون او يصومون ، وهم يسخرون من الرواشد اذا صلوا .. هذا على الرغم من انهم يحلفون اليمين (بالله) ويزعمون انهم يؤمنون بالله ويرددون دائما كلمة (الله يعلم) كما يزعمون ان اسلافهم انتذوا الرسول عليه الصلاة والسلام من ايدى الكفار الذين كانوا سيذبحونه . وعلى هـذا الأساس .. فانهم يزعمون بأن الرسـول اعفاهم واعفى اولادهم من الصلاة ، (من الطبيعى ان هذه الاقـوال لا نصيب لها من الصحة) .

(٢) .. يجوز للمسافر ان يجمع بين صلاتى الظهر والعصر ، كما يجوز له ان يجمع بين المغرب والعشاء (اى يصلى كل صلاتين فى وقت واحد) .. مع قصر الصلاة الرباعية الركعات الى ركعتين فقط .

وقد يؤدى البحث عن مناطق الرعى الى تأجيل الصيام فى رمضان . غير أن نظام الصحراء كان يختلف عن ذلك . فقد يستفيد البدو من التزامهم بالصوم عند قيامهم بأى غارة أما بعدها فيجوز لهم الإفطار . كما تمارس قبائل الصحراء قوانين غريبة فيما يتعلق بالعلاقات الزوجية كما يحدث فى رمضان الذى تحل فيه العلاقات الجنسية اذا ما توفر ماء الاغتسال . أما فى غير شهر رمضان فإن البدو لايلقون أهمية كبرى على الوضوء والطهارة كما تفرضها الشريعة الإسلامية فإن كانوا فى منطقة لا يتوفر فيها الماء فإنهم يتيممون بالتراب ولكنهم لايفعلون ذلك بعد الاتصال الجنسى .

ورغم أنه لايوجد فى تعاليم الشريعة الإسلامية ما يحرم الزواج فى رمضان كما لا يوجد قانون يمنع ذلك . فإن مثل تلك الزيجات نادرة فى منطقة الرمال أو لاوجود لها إطلاقا .. ويعتمد سكان الصحراء على الأشهر القمرية وإن كانت تلك الأشهر لها أسمائها الخاصة عندهم وليس على أساس التقويم الإسلامى المعروف [1] . وعلى سبيل المثال فإن كلمة محرم ليست معروفة عندهم . والسنة تبدأ عندهم اعتبارا من شهر رمضان أو شهر ذى الحجة .

هنا فى منطقة سنام . عند خط عرض ٢١٫٣٠° يقل فيها سمك الرمال . وللمرة الأولى يظهر فيها سطح الأرض الصلب على هيئة رقع مستديرة متناثرة على المنطقة .

لقد عثر بعض البدو على بعض شظايا وقطع من زجاج قديم فاتم

---

(١) .. ان اشهر السنة عند سكان الرمال هى كالآتى : — رمضان ، عيد الفطر الأول ، عيد الفطر الثانى ، عرفه (شهر الحج) ، عاشوراء (شهر الزكاة) ، صفر ، ثم الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، مثاليل (احيانا ثم الرابع ، ويسمى قوام) رجب ، قويصره . وقويصة ومثاليل تعتبر من الأشهر المشئومة للقيام بالغارات أو أى عمل ، ورمضان يدخل ضمن ذلك الا فى بدايته .

(فى منطقة عبيلة القاحلة الباردة)

اللون فى مكان ما بين تلك المناطق وعندما أخذت أنظر فيما حولى لم أجد أثرا لأى أنقاض فيما عدا أخاديد الرمال — وقد ساورنى الشك فى أن تكون المنطقة شهدت قيام بعض المستوطنات [١] قديما ، ورجحت أن تكون تلك القطع لبعض الأوانى الفخارية التى كانوا يحفظون فيها الدبس (العسل الأسود) ، ربما يكون بعض الأعراب قد أحضروها خلال شهر من شهور رمضان قبل أن تعرف الجزيرة العربية الصفائح المعدنية • ومن ناحية أخرى فإنه من المحتمل وجود آثار فى المنطقة •

ويتحدث بعض أفراد قبيلة مرة عن وجود بقايا أساسات لقلعة قديمة هناك مطمورة تحت الرمال ، كما يقال عن وجود بقايا أثرية لعين ماء فى أم الحديد منها قطعتان كبيرتان من النوع الذى يعرف باسم حجر الحديد والذى سميت العين باسمه • غير أنه من المحتمل أن تكون تلك الآثار بقايا صواعق جوية ، ولقد عثر أحد البدو فى البوحة بمنطقة سويحب على أحد تلك القطع وقد سماها حجر الحديد ربما لثقلها وقد تعزر الكشف عن طبيعتها فى البداية ، لعدم وجود تناسق فى شكلها وكانت زواياها حادة الأطراف لأن شظايا الصواعق تكون عادة مستديرة وفيها ثقوب كثيرة • أما العينة التى عثر عليها كانت شظية لصاعقة كبيرة انشطرت إلى أجزاء خلال مرورها عبر الغلاف الجوى [٢] •

عند وصولنا الى الفرجة [٣] قاد البدو جمالنا الى مناطق الرعى وقد أتيحت لى الفرصة لجمع المعلومات والبيانات والإحصاءات اللازمة للخريطة تشمل الأسماء والاتجاهات والأبعاد ومناطق الرى التى لابد من

---

(١) .. سلوى ، اسقاك ، مباك .. معالم اثرية قديمة فى شبه جزيرة قطر وتنسب الى الفوارس — اى الفرش وهى الآن فى ايدى الاخوان ولهذا فقد تعذر مشاهدتها وفحصها .

(٢) .. جاء هذا الوصف فى بيان للمستر كامبل سميث .

(٣) .. سميت الفرجة باسم فرج .. وهو الرجل الذى قام بحفرها وهو من قبائل مرة والمعروف انه نفس الشخص الذى حفر بئر الشنه .

تسجيلها أثناء الرحله وتحديدها بطريقه المثلثات الرياضيه • ولكن البدو بطبيعتهم يخيفون ذرعا بالأسئلة . وكانت أفضل طريقه للحصول على المعلومات الهامه منهم هى دفعهم للكلام فى الموضوعات التى تروق لهم • وكانت مناسبة أخرى للحديث عن أبوزيد وأخويه يوسف وبريجه . واعتراض الجن لطريقهم : وتقول القصة :

فى أحد الأيام خرج أبوزيد ويوسف وبريجة فى رحله وفى الليل توقفوا عند أحد المستوطنات حيث كان يعيش رجل وأمه وعنزتهما . فقال لهم الرجل : سأكون سعيدا لو أنكم وافقتم على أن أشترك معكم فى هذه الرحله . ولكنهم رفضوا طلبه وقالوا له أنت لاتستطيع أن تؤدى الأعمال التى قد تطلب منا أثناء الطريق . ولولا ذلك لأخذناك معنا • •ولكن الرجل أراد أن يثبت لهم مقدرته وكفاءته فتوجه الى أحد أشجار السمر وعند اقترابه منها انتزع ساقها من التربه بيديه كما لو كانت شجرة هشة ضعيفه الأغصان ثم قذف بها جانبا وقال لهم : ألست قويا كما ترون ؟ فوافقوه على طلبه وغادر الأربعة الى وجهتهم •

وفى الطريق التقوا بفتاة تسوق أمامها شاة وتحمل على رأسها اناء فيه أرز وأدام من الزبد وكانت الفتاة كريمه شيخ البلدة القريبه منهم فسألوها عن وجهتها فأجابت بأنها ذاهبة لتقديم هذا القربان إلى جن فى أحد الأوديه البعيدة وعرفوا من الفتاة أن الجن قد فرض عليهم تقديم مثل هذه القرابين وإلا فإن الجن سيدمر مدينتهم بأكملها . وكان أبوزيد ورفاقه جياع وكانت رائحة الأرز تزيد من شهيتهم للطعام ولذلك طلبوا من الفتاة أن تعطيهم ما كانت تحمله لكى يأكلوا وقالوا لها أعطينا الشاه لكى نذبحها والأرز لكى نأكله ونحن نضمن لكى أن الجن لن يجرؤ على الاعتداء عليكم وعلى بلدكم •

فقالت الفتاة : لا أستطيع هذا لأن الجن سوف يمنعون الماء عنا

وعندئذ سنهلك جميعا ولكنهم لم يأبهوا لكلامها وأخذوا منها الشاة وذبحوها ثم أكلوها . وبعد أن انتهوا من ذلك بدأوا — يفكرون فى أمر الجان . فاتفقوا فيما بينهم على مراقبه الجن فى تلك الليلة وأخذوا يتناوبون فيما بينهم لمراقبته . . وفى الليلة الأولى كان الدور على الرجل القوى الذى اقتلع شجرة السمر من مكانها وعندما ذهب الرجل للقيام بالمراقبة واقترب من الموقع الذى يقيم فيه الجن .. خرج له الجن فى صورة ثعبان ضخم وقال له : أواه .. أنت الذى أكلت طعامى . فارتعد الرجل من الخوف وعاد ادراجه الى أصحابه . أبوزيد وأخويه يوسف وبريجه وقال لهم أن الجن سوف يبتلعكم ثم تركهم وولى الأدبار .

بعدها توجه يوسف وكان يحمل السيف والترس والعصا . وما إن سمع الجن خطوات القادم يقترب حتى فغرفاه الكبير ، ولكن يوسف بادر الى أدخال السيف والعصا بشكل متعارض فى فمه الكبير . حتى أن السيف أصاب لسانه ووصل الى فكه الأعلى ، بينما وقفت العصى بين الفكين فلم يعد الجن قادرا على قفل فمه أو القيام بأى حركة ، وبذلك استطاع يوسف أن يستكمل فترة المراقبة المحددة ، ثم جاء دور زميله بعد أن انسحب هو وعاد إلى صحبه .

وجاء الدور على بريجه الذى كان أبيض البشرة وعندما خلع ملابسه كلها وظهرت بشرته البيضاء الشفافة لم يستطع الجن أن يراه بسبب بشرته البيضاء فأخذ الجن يتحسس طريقه الى ضحيته دون جدوى فارتطم رأسه بحائط وفقئت من جراء ذلك احدى عينيه ، وهكذا انتهت نوبة المراقبة الثالثة .

وأخيرا جاء دور أبوزيد وعندما اقترب من الجن قال له : اقفل عينك الثانية أيها الجن ومد رقبتك وافتح فمك حتى أدخله وأصبح وجبتك هذه الليلة . ففعل الجن ما طلبه منه أبوزيد وعندئذ استل أبوزيد سيفه وضربه ضربة قاتلة على عنقه فخر صريعا ، ثم بلل يده من دم الجن وجرى بسرعة

إلى قصر شيخ البلد ثم قفز قفزة عاليه وضرب يده الملطخه بالدم عن الحائط عند مدخل القصر فعلق بعض دم الجن بالحائط . ثم رجع الى أخويه والشيخ الذين كانوا فى انتظاره ..

وعندما اشرق الصباح راى أهل البلده بقعه الدماء فى الشارع وآثار يد الرجل على جدار الحصن فقام الشيخ ودعا أهل البلدة . وطلب منهم ان يبحثوا عن الرجل الذى قتل الجن وأقسم بانه سوف ينصبه شيخا على البلدة .. يسلم اليه الحصن ، وتقدم كثيرون وادعوا أنهم الذين قتلوا الجن ، ولكن الشيخ طلب من كل واحد منهم أن يقفز على الحائط ويلمس براحته مكان الدم الموجود فوق باب الحصن فلم يستطع أحد منهم ان يفعل ذلك .

وفى تلك الأثناء حضر بريجه ويوسف الى البلدة ليكتشفا الحقيقة وتركا أبوزيد مع الفتاة والأبل فى البادية ، وعندما علم الشيخ بوصول هذين الغريبين طلب احضارهما اليه وقال لهما بأن البلدة كانت تحت رحمة الجن والآن تخلصت منه فلم يعد تقديم القرابين ضروريا وسألهم من منكم الذى أنقذنا من ذلك الجن . أخبرانى وسوف أعينه فى قصرى . فرد الرجلان بانهما لايعرفانه . ولكن الشيخ لم يصدقهما وطلب منهما أن يقفزا الى أعلى باب القصر ليرى اذا كان أحدهما هو الذى قتل الجن . ففعلا ما أمرهما به ولكن أصابعهما لم تصلا الى بقعة الدم الذى كان على الحائط . وعندئذ تأكد الشيخ أنهما لم يقتلا الجن ، ثم التفت اليهما الحاكم وسألهما : وأين بقية رفاقكما ؟ ، فأجاباه وقد خشيا عواقب الأمور : أن هناك عبدا — وبالمصادفة كان أبوزيد أسود البشرة — وأن العبد المذكور خارج البلدة مع الجمال فرد عليهما الشيخ : سوف أحجزكما حتى يحضر العبد ، ثم أصدر الشيخ أمره بأن تتوجه فتاة سوداء الى أبوزيد لاحضاره ومعها جمل . وقال للفتاة السوداء : عندما تصلين الى مكان أبوزيد اطلبى منه بأن يركب خلفك ، فإن كان عبدا فسيمتثل لأمرك ، وان كان حرا فإنه بالجزم سوف

يرفض أن يحضر إلى هنا وهـو راكب فى الخلف وانما سـوف يصر على الركوب أمامك وأنت خلفه •

وهكذا ذهبت الجارية الى أبوزيد فى البادية ، وقالت له إننى مرسله من قبل الحاكم إليك وهو يطلب منك المثول بين يديه ، وعليك أن تركب خلفى، ولكنه دفعها جانبا وركب أمامها حتى وصـلا الى الحـاكم ونزل من على الجمـل •

قال الحاكم الى أبوزيد : اقفز أيها العبد ، وضع يدك فوق بقعة الد النى فوق ــ الباب ، فرد عليه أبوزيد : إننى عبد فكيف أستطيع ذلك ؟ إننى أعتذر عن ذلك •

فقال الحاكم لأبوزيد : عليك أن تفعل ما آمرك ب ، وهكذا قفز أبوزيد حتى وصلت يده الى أعلى من بقعة الدم التى فوق الباب ، فعرف الحاكم والناس أن ابوزيد هو الرجل الذى قتل الجن •

وهنا التفت الحاكم إلى الأهالى وقال لهم : إنه أفضـل شخص يتولى الحكم • إنه الرجل الذى خلصنا من الجن وسيكون حاكما عليكم ، ثم التفت الى أبوزيد وقال له : إن هذا الحصن ملك لك •• غير أن أبوزيد أجاب : إننى لا أريد المـال ولا السلطة ، وإنما أفضل الحرية لأذهب حيث أشاء ، وهكذا زودوا أبوزيد ورفاقه بالخيول والكنوز ، ومن كل أرزاق الله ، فرحل هو وأخوته وهم فى منتهى السعادة والانشراح •

وقبل أن ينتهى محدثى من سرد القصـة ، شاهدنا بعض الجمـان وهى عائدة من الرمال وخرجت أنا وحمد لاستقبالها ، وعندما مررنا على بعض آثار أقدام جمال ، تبين لنا أن منطقة الفرجـة من المناطق المشهورة بالآبار فى المنطقة وقد اكتشف صاحبى آثارا لأربعة من الجمال التى كانت

تسير فى صف واحد ، فالتفت إلىّ وسألنى مازحا عن أحسن جمل منها فى نظرى . ولكنى كنت مخطئا فى رأيى فاعتذرت إليه ، فقال حمد : انظر الى ذلك الجمل المقيد الأرجل انه من أفضل الجمال ولكن ليس ذلك الأعرج وكان يعنى الناقة التى كنت أركبها ، أما عن الثالث فقد قال : إن آثارة تدل على أنه كان عائدا من المرتفعات ، ألا ترى آثار المشى الوعر على أقدامه ؟

إن الجمال التى تعيش فترة طويلة فى المناطق الرملية تكون آثار اقدامها رقيقة ثم أشار الى الجمل الرابع وقال إنه وليدها . إن ناقتك تعتبر كبيرة فى السن بالمقارنة للجمال الصغيرة ، انظر إلى الآثار العميقة لأرجلها الخلفية الصغيرة وهكذا .. وهكذا .. على أن ذلك لم يكن أهم شىء بالنسبة لخبرة حمد بالجمال وهى الخبرة التى يشاركه فيها معظم البدو بدرجات متفاوته ، وهى اقتفاء الأثر والتعرف على نوعيات الأبل والجمال من خلال البصمات التى تتركها فى سيرها ، ومن تحديده هوية هذه الجمال . وبموجبها يستطيع سكان الصحراء أن يتأكدوا ما إذا كانت المنطقة مأمونة أو غير مأمونة .

إن اقتفاء الأثر فى شبه الجزيرة العربية يعتبر علماً قائماً بذاته وفقا لعلم البصمات المعمول به فى الغرب فإن علم اقتفاء الأثر يعتبر طريقة مضمونة للكشف عن صاحبه . أما فى المناطق الأكثر تعقيدا فى عمان مثلا ، فالمحاكمات تعقد لمثل تلك المناسبات على الرغم من أن « القفار » أى مقتفى الأثر ، يتمتع بمواهب لا نظير لها فى العالم للكشف عن الآثار سواء بالنسبة للانسان أو الحيوان .

وقد وقعت جريمة قتل أثناء عملى فى مسقط تتلخص بأن أحد التجار الصينيين جاء الى مسقط لشراء بعض اللؤلؤ وغيره من مستخرجات البحر ، وفى إحدى الليالى هاجمه أحد المواطنين واغتاله بينما كان نائما فى بيته ، ويبدو أن القاتل قد أصيب بحالة ذعر أثناء ارتكابه الجريمة ، لأنه قفز من

سطح البيت الى الأرض أثناء فراره ، وقد ترك آثارا لقدمه فى الطريق المؤدية الى مسكن القتيل ، وعند اكتشاف الجريمة فى صباح اليوم التالى ، تم تغطية أثر القاتل ، وأقيمت حراسة عليه لمنع الجمهور من الاقتراب منه، وقد طلبت الحكومة من داخلية البلاد استدعاء أحد خبراء الأثر وقد مرت أيام كانت أعصاب الناس متوترة خلالها وذلك لبشاعة الجريمة ، وقد تم ذبح القتيل بنصل حاد من الجهتين ، وحتى ذلك الوقت لم يكن القاتل قد اكتشف .

وعند وصول الخبير زار موقع الأثر أكثر من مرة وكان يقضى بضعة دقائق وهو مكب على الموقع لدراسته والتأكد من خطوط الأثر . وفى اليوم التالى طلب مجلس الوزراء حضور جميع المواطنين والمرور أمام الخبير ، وقد تم ذلك بالفعل حتى أن جميع المناطق اشتركت فى ذلك الاستعراض الى أن أطلق الخبير الإشارة .

لقد كان القاتل شابا فى العشرين من عمره ، وأحد خدم القصر ، فهو إذاً لم يكن شخصا عاديا حتى يمكن توجيه التهمة إليه بسهولة ، ورغم ذلك فقد صدر الأمر باعتقاله وإيداعه السجن ولكن عند استجوابه أنكر انكارا قاطعا علمه بتلك الجريمة وادعى أنه برىء . ولما أرسلت ملابسه الى المحلل العام فى بومباى لم يعثر على بقع دم . غير أنه كانت توجد أدله واقعية أخرى ، دعمت رأى الخبير ، فقد كان المتهم مشهورا بسوء الخلق . وكان يسكن المنزل المواجه لبيت القتيل ، ومن ذلك يتبين أنه كان فى استطاعته مراقبة حركات ضحيته مراقبة تامة كما كان فى استطاعته أن يقفز من نافذته إلى سطح بيت القتيل ، ولكن لم يكن فى استطاعته أن يعود فيقفز الى منزله نظرا لارتفاع منزله عن بين القتيل .

كما بحث الصيدلى الهندى فى آثار القدم ، فتبين له أن فى وسطها موضع أثر لحجر مكسور ، وقرر أن الرجل الذى قفز من السطح على

الحجر لابد وأن يكون فيه أثر جرح فى قدمه اليمنى وقد جىء بالقاتل إلى . وطلبت منه أن يرينى أسفل قدمه فأسرع برفع الرجل اليسرى . ولكن بفحص القدم اليمنى أثبت وجـود قطع فيها ، كمـا أن المقياس الذى استعملته ، أكـد هو الآخر موضع القدم بعـد مقارنته بأثر الجرح فى قدم المتهم ، وقد حكم على المتهم بعقوبة الاعدام ونفذ فيه الحكم رميا بالرصاص وهكذا لم تذهب جهـود خبير الأثر سـدى .

ولكن هكذا أصبحت بعد مضى ستة أشهر على تلك الجريمة فى الربع الخالى لأتعلم من سكانه اقتفاء الأثر فى تلك الصحراء المهيبة ، ولكن بالنسبة لرجُل البادية فقد كان الموضـوع فى غاية البساطة ، وأما بالنسبة لأوروبى مثلى ، فإن له انطباعات أخرى ترتبط بسحر بعض السطور الجميلة — أو الاختراعات الباهرة — كاهتزاز الأغصان عند هبوب الريح — أما البدوى فإن انطباعاته هى صـورة مصغرة للأشياء المحيطة به ، فإشارته بعصـاه إلى الشمس وهى تغرب ، أو إلى أسراب الطيور وهى تطـير فى صفوف متناسقة بالمقارنة إلى ذوات الأربع وهى تدب على الأرض ، والفئران بأشكالها المختلفة ، وهى تدلف الى جحورها داخل أكمات العشب ، وتهيل على تلك الجحور أكوام التربة الحمراء ، وكذا التواءات مشية السحالى التى تشبه أعمال الزخرفة العربية الدقيقة ، وهى فى طريقها إلى بعض النباتات لتدرأ عن نفسها الجـوع ثم تأخذ فى الرقص فرحة بذلك ، وأخيرا المرح الـذى يحس به الإنسـان وهو يرى الأغصان تتمايل فوق بعضها البعض بفعـل هبوب الريح .

كان الجـو قارس البرودة فى اليوم التالى ، وكان خط سيرنا فى البداية نحـو الشرق فى وجـه رياح شمالية عاتية ، ولحسن الحظ كان معطفى الثقيل معى ورأينا نسراً كبيراً يحـوم فوق رؤوسنا ثم أخذنا نسير بسرعة مع اتجاه الريح فوصلنا إلى مخيم أحد قبائل مرة ، كان عندهم خمسون جملا

اسود . ويرجع سبب وجود خيام سوداء إلى وجود جمال سوداء ، على عكس الحيوانات الثديية المتوحشة التى تكتسب لونها من لون البيئة المحيطة بها . لقد قمنا بحركة التفاف فى مسيرتنا لكى نبتعد عن تلك القبيلة ، وهى وان كانت من القبائل الصديقة إلا أنه رؤى أن يبقى موضوع وجودى سرا حتى لايتمخض عن نتائج سيئة .

كان الشيخ صالح وهو يسير بجانبى يرتعش من البرد ، ولكنه لم يتذمر من تلك الحالة لأن التذمر يعتبر معصية للخالق الذى يعلم كل شىء ، وقد شرحت للشيخ صالح مدى شدة البرد عندنا فى بريطانيا . فالتفت إلى مبارك ليقول له : هل تسمع ما يقول الصاحب ؟ إن المياه فى بلاد الوزير تتجمد فى الشتاء لدرجة أنه يمكن للناس والخيول والحمير أن تمشى فوقها من شدة تجمدها .. ثم قال تأكيدا لاستغرابه من ذلك « لا اله الا الله » . ولكننى أحسست فى كلام الشيخ صالح نوعا من التخوف من أن أكون طليعة لإحدى الفرق التى جاءت إلى بلادهم الجميلة كى تفسدها ، إن ساعات الجوع الطويلة التى أمضيناها فى المسيرة أصبحت غير محتملة فقد انخفضت درجة الحرارة الى ٤٠° فهرنهيت ، ولما لم يكن لدينا خيام أو أية وسائل أخرى نتقى بها البرد فقد اضطررت الى النوم بكامل ملابسى مع أغطية صوفية فوقى . فى اليوم الثانى والعشرين من يناير ونحن داخل كثبان الرمال الحمراء هبت علينا عاصفة رملية .

كنا جالسين أمام نار المخيم بعد العشاء قبل ليلتين من هبوب العاصفة وقد شهدت المنطقة نزول الندى بكثافة لم أعهدها منذ غادرنا جبال القرا ؛ وقد أخذت تهب علينا فى تلك الليلة رياح شمالية باردة ولكن لم يكن ثمة احتمال لهبوب عاصفة رملية شديدة . وفجأة جاءت العاصفة وأخذت تهب من كل الاتجاهات — فبادرنا إلى تغطية وجوهنا لنحميها من الرمال ثم هرع رجال القافلة إلى الجمال لاحضارها من مراعيها لأن العواصف الرملية هى العدو الأكبر للجمال ثم أخذت العاصفة تزداد شدة وعنفا . أما البدو فأخذوا

يلتصقون بعضهم ببعض ويغطون أجسامهم بكل ما كان لديهم من ملابس التماساً للدفء ، فذهبت إلى سريرى وأنا فى منتهى النشاط . غير أن هدير العاصفة وبرودة قدمى حالت بينى وبين النوم . وعندما كشفت الغطاء عن وجهى شعرت بالرمال توخزنى فى وجهى كما لو كانت نصالا أو سكاكين حادة.

انخفضت درجة الحرارة الى ٣٧ درجة فهرنهيت بالترموميتر الجاف و ٣٥ درجة بالترموميتر السائل وقد غفوت إغفاءة قصيرة قبل الفجر ثم استيقظت لآخذ ركابى وأمتعتى التى كانت مطمورة فى الرمال وأخيرا انكسرت حدة العاصفة فأيقظت رجالى الذين وجدتهم ملتصقين بعضهم ببعض يرتعدون — من البرد . ولكنهم نهضوا وقادوا الجمال التى كانت هى الأخرى ترتعد من البرد فأخذت تجرجر أقدامها وهى تسير لتأكل من العلف .

كانت تلك الليلة كارثة بالنسبة لى ، لقد نفذ الرمل إلى بعض أجهزتى وأصيبت الكاميرا السينمائية بخلل كما تعطلت أجهزة القياس مما اضطرنى إلى اجراء عملية الرصد بطريقتين مختلفتين . ولم نكن نعرف فى ذلك الوقت أيهما كانت صحيحة الى أن انتهت الرحلة .

وقد سمعت أحد البدو وهو يصرخ قائلا ، عندى لكم أخبار سارة .. عندى لكم أخبار سارة وكان يعنى بتلك البشرى الرياح الشمالية الحادة التى هبت ، وانخفاض درجة الحرارة فيها إلى خمس درجات فهرنهيت ، أى إلى درجة التجمد ، وعندئذ أخذ الشيخ صالح يردد الأغنية التالية اطمئن اطمئن .. إن الريح لن تستمر طويلا .... وكان يردد تلك الأغنية البدوية لكى يحث بعيره أو ناقته على السير بسرعة .

أخذت كثبان الرمال الحمراء تتقلص أمامنا لندخل بعدها الى المنطقة الفضاء التى تسمى سنام ، واقتربنا من بئر الجحيشة ، لقد كان اليوم

شديد البرودة فى السهل وقد اكتسى الأفق بضباب أبيض ، مر علينا وتركنا ، وكن زملائى يرتعدون من البرد وهم بملابسهم القليلة .

وهنا صاح بعض الزملاء قائلين : أبرك الجمل أيها الصاحب .. أبرك عقبه .. وكنا بالقرب من عين الدريسة ، حيث وجدنا بعض الحطب وبعض العشب ، وهنا أدركنا أننا توقفنا لقضاء يوم . وكانت عيوننا قد امتلأت بالرمل وكذلك الكتب والكراسات ، الخلاصـــة أن الرمل قد تسلل إلى كل شىء . ولذلك فقد تعذر علىَّ أن أكتب أية ملاحظات ، فجلست فى استرخاء داخل دوامات الرمل والبرد آملا أن يتحسن الجـــو .

أخذ البدو يجمعون الحطب من الأكمات الصغيرة ويكومونه فى حزم . ولقد كان المكان من المناطق التى تكثر فيها الأعشاب والأكمات والتى لم أر وعندما تقدم النهار اشتدت حرارة الشمس وخفت حدة الرياح الى حد ما وعندما تقدم النهار اشتدت حرارة الشمس وخفت حدة الرياح الى حد ما ثم أخذت الجمال تتحرك ببطء الى المراعى القليلة القريبة ، ولكن ما إن عادت الرياح تهب حتى أعيدت الجمال الى مرابطها خوفا عليها من الضياع ، لأن الرياح محت الآثار تماما .

إن حنين الجمال الى موطنها إذا صحّ التعبير ، فإنه من الأشـــياء المثيرة . فالجمل تسيطر عليه باستمرار غريزة العودة إلى موطنه الأصلى وإلى القطيع الذى كان يعايشه . ولكن يحـــدث أن تفقد الجمال هذا الإحساس اذا استمرت فى السير فترة طويلة ، غير أن ذلك الحنين يعاودها وإذا توقفت فى مكان ما ولم تعقل ، فإنها حتماً ستعود إلى المكان الذى كانت تعيش فيه . أما صاحبها فهـــو لايعنى شيئا بالنسبة لها ، وهى لاتألفه ولاتحاول أبدا أن ترتبط به ولا تعرف عنه سوى صوته الذى يناديها به ومع ذلك فهى تعتمد عليه اعتمادا كاملا فى مشربها ، لأنها لاتستطيع بنفسها أن تدبر هذا الأمر . حتى فى مناطق المياه الضحلة . فالجمال معروفة بالغباء ، إذا استثنينا معرفتها

بالاتجاهات التى تعودت السير فيها ، هذا على الرغم من أنها بالنسبة لصاحبها تعد نعمة من نعم الله .

قال الشيخ صالح : .. أيها الصاحب : لو أنك سرحت عقبه [١] . فإنها سوف تتوجه هى وبقية زملائها الى الدكاكه موطنها الأصلى اهتداء بالنجوم .

فسألته : ولكن كيف تهتدى الى عيون الماء ؟

فأجاب إنها سوف تهيم على وجوهها بدون ماء الى أن تصل ، إذا كان الفصل شتاء ، اما اذا كان الفصل صيفا فإنها لابد وأن تهلك فى تلك الرحلة . وقد حاولت التأكد مما قاله الشيخ صالح خلال اليومين الأخيرين ، عندما انضمت إلى قافلتنا ناقة أخرى وكانت تسير فى مقدمة القافلة لأنها أخذت تجرى وتقفز إلى أن تقدمت القافلة ، وكنا نسير فى اتجاه قطر وهى المنطقة التى جاءت منها ، وربما كان الشوق هو الذى دفعها إلى مناطق البلح والأسماك ، وهى الأطعمة التى فقدتها فى منطقة الرمال . وكان من حسن حظها أن الفصل كان شتاء [٢] ، وقد التفت الىّ أحد أفراد قبيلة مرة

---

(١) .. لكل ناقة أو جمل فى المنطقة اسم يميزها عن غيرها من انواع الجمال ، أما لغير اصحابها فانها تعرف بأحد التعريفات التسعة الآتية وذلك تبعا لسنها : فالناقة التى من سن شهر الى سبعة اشهر تسمى (حوار) اى رضيعة ، ومن سن سبعة اشهر الى سنتين تسمى « الانفريد » اى التى تأكل بنفسها . والناقة التى من سن عامين تسمى (بنت لبون) والذكر منها (ابن لبون) وفى سن الثالثة تسمى (المضربة) وهى السن التى يمكن للبعير أن يصاحبها ، وبنت اربع سنوات تسمى الجدة والجدة هى الناقة التى فى سن الجمل ، والسنة الخامسة تسمى (الثنية) وفى سن السادسة تسمى (الرباية) وفى سن السابعة تسمى (السديس) ، وفى سن الثامنة شغل الناقة أو النوق .

(٢) .. ان الناقة الحبلى تسمى (المدنى) بلهجة قبيلة الرواشد ، والجاهة بلهجة قبيلة مرة ، وفترة الحمل هى اثنا عشر شهرا ، وقد تطول الى ثلاثة عشر شهرا . ولكن بالنسبة للفترة الأخيرة فيندر أن يبقى الوليد على قيد الحياة ، ماں بقيت فانها تسمى (سهام) ، أما الناقة قبل أن تلد تسمى (بكرة) وتسمى قبيلية مرة ذكر الابل والناقة (قعود) و (حاشى) .

وقال : لاتدع ناقتك تأكل من ذلك العشب ، وكنا ساعتها نمر بأحد السهول الخضراء لأن تلك المنطقة يسكنها الجن ...

ثم تكلم الشيخ صالح فأكد قوله وقال : بأن تلك المنطقة تعتبر من المناطق المشئومة وكان يعنى منطقة « الحرة والبنيان » ، أما المناطق الأخرى فلا ضرر منها ، وقيل لى بأنه قد نفق فى تلك المنطقة خمسة من الابل فى ليلة واحدة ، كما مرضت ناقتان وجف اللبن فى ضرعيهما .

كذلك سمعت عن اعتقاد آخر عن الجن ، وهو أنه يستطيع أن يتلف المزروعات ، وقد حدث هذا فى منطقة مقشن حيث تلفت مجموعة كبيرة من الأحراش ، حتى أن المرافقين الذين كانوا دائما يحرصون على جمع الأعشاب الخضراء الطرية لأطعام جمالهم باليد ، امتنعوا فى تلك المنطقة عن ذلك ، كما أنهم أصبحوا لايمارسون الصيد أو القنص فى تلك المنطقة [1] . أما قبائل الكنير فعندهم اعتقاد غريب بأن إطعام أى جمل باليد فى منطقة مقشن يعتبر من الأعمال المشئومة .

كانت بئر البنيان المشهورة على بعد مسيرة يوم واحد من ذلك المكان ، وبعد ساعة ونصف لمغادرتنا للمراعى بمنطقة الحد ، توغلنا فى منطقة خيوط البريد أى عند التلال ارحمراء ، وهى الحدود الشمالية لمنطقة سناد ، كانت الريح قد هدأت وانقشع الغبار عن سهل ناعم تتناثر فوقه كثبان وردية اللون تسمى « حمارور » ، وهى على عكس السهول البيضاء التى عبرناها أخيرا ، ومررنا فى طريقنا على أراضى خضراء تمتد على طول القنوات الحجرية الواقعة على التلال ، بينما كانت جمالنا تنتزع من حين وآخر بعض الأغصان أثناء سيرها . ولكننا لم نكن نشجعها على ذلك بسبب ملوحة التربة،

---

(١) .. من المعتقدات الغريبة المنتشرة بين قبيلة المناصير هى انهم لايأكلون الأرنب او غيره من الحيوانات اذا كانت قد اطلق عليها الرصاص واصابها فى راسها . اى اذا كان الرصاص قد دخل الى المخ .

فقد تضرها ان لم تكن قد اعتادت عليها ، وقد ذكر أحد قبائل المناصير وكان يشير بيده إلى الجهة الشرقية . بأن المناصير لاتوجد لديهم مراع أخرى . وهم يربون جمالهم على تلك الأعشاب التى تؤدى إلى نمو مثل ذلك السنام فيها ، ثم أخذ يحرك كوعه ويده لكى يصور لنا بطريقته الخاصه حجم السنام الذى كان يصفه لنا وبالتالى حجم الجمل .

بعد ذلك دخلنا منطقة قيد الذعن . وكانت سهلا يتناثر عليه عدد من التلال الحمراء العالية والمنخفضة بالإضافة إلى بعض النباتات التى تنمو تحت الرمال . ومنها انتقلنا إلى منطقة أخرى من التلال الحمراء . وخلال سيرنا توقفنا للتزود بالماء من عين البنيان ، وأخذت الجمال تمشى ببطء كما تفعل عادة عندما ينهكها التعب . وكان الصيام قد ترك آثاره على وجوه الصائمين كما كانت المراعى الملحة تترك هى الأخرى آثارها على الجمال بالإضافة إلى الإرهاق الذى عم الجميع من طول المسيرة وشدة الرياح الشمالية الباردة .

وكان أول من وصل إلى عين الماء حمد وأنا فقال لى حمد : اشرب أيها الصاحب .. إن ماء منطقة البنيان عذب ، وحتى لو لم يكن الشهر الذى كنا فيه هو شهر رمضان فإن حمد لم يكن ليشرب ، فمن تقاليد البدو أنه إذا استمر فى السير لمدة يوم دون شرب — فليس من حق أحد أن يشرب قبل أن يكتمل وصول كل أفراد القافلة لكى يشرب الجميع معا ، وهذا التقليد يغذيهم بالمشاعر الأخوية والإنسانية .

كانت عين البنيان من نوع يختلف عن عيون الماء فى سحنه الرمال الجنوبية التى كانت عبارة عن حفر صغيرة ، وعندما بدأ رجل القافلة يدخلون المنطقة بدت على وجوههم تعبيرات جديدة فقد كانت السعادة ظاهرة على وجوههم . وأخذوا يطلقون الصيحات ابتهاجا بوصولهم إلى تلك العين . بينما أخذت جمالهم تمد أعناقها إلى فتحات المياه لتأخذ كفايتها منه .

كان انعدام المراعى فى تلك المنطقة الجرداء حائلا دون التوقف ، حيث بدأت القافلة بعد أن انتهت الجمال من شربها تستعد من جديد لاستئناف السير ، وكنت أسير وراء القافلة ولكن سرعان ما توقفنا عن السير لنسمح لرحال القافلة بتأدية صلاة المغرب ، ولكننا وجدنا بعض الصعوبات فى تتبع طليعة القافلة . كما أن الظلام ضاعف من تلك الصعوبات ، وعن طريق النجم القطبى الذى كان على الجهة الشمالية منا استطعنا مواصلة الرحلة خلال الظلام • وبعد ساعة سمعت صيحة من خلفى ، وعندما التفت رأيت وميضا لنار فى الجهة الشرقية منا ، فدرنا وتوقفنا عن السير ، وكانت الساعة السابعة مساء ، وكنت متعبا إلى أقصى حد ، بعد مسيرة عشر ساعات ونصف متواصلة . وكان عزائى فى ذلك هو إدراكى أن المجاهل الوسطى للربع الخالى قد غدت خلفنا بينما كان البحر على بعد مائة ميل إلى الشمال ، وأخيرا فقد بدا النجاح يلوح فى الأفق •

الفصل التاسع عشر

الوصول إلى البنيان - وقفة لاسترجاع مراحل الرحلة

كان وصولنا إلى البنيان يعنى وصولنا إلى الأطراف الشمالية للربع الخالى[1] . ولقد رأيت من الافضل فى تلك المناسبه أن أقطع الحديث عن الرحلة لأتحدث عن تلك المنطقة وتسميتها وتركيبها وعن النواحى الاجتماعيه لحياة سكانها كما عايشتها من خلال رحلاتى إليها .

من الناحية الجيولوجية - يقسم الربع الخالى شبه الجزيره العربيه إلى قسمين - القسم الغربى الذى يؤلف المساحة الكبرى منه ويشمل جزءا من القارة الإفريقية ويفصله عنها منخفض وادى البحر الأحمر . وقد نشأت عن ذلك مرتفعات صخرية بلغ ارتفاعها الآلاف من الأقدام . إلا أن تلك المرتفعات لم تتعرض داخل حدودها لاضطرابات جيولوجيه كبيرة . وحتى الصخور البركانية على الجانب الغربى من تلك المرتفعات قد تكونت دون أن تصاحبها اضطرابات جيولوجية حادة . مما لم ينشأ عنه أيه قمم بركانية . والخلاصة أن تلك المنطقة ظلت هادئة نسبيا من الاضطرابات عبر مراحل طويلة من تاريخها الجيولوجى . أما المنطقه الشرقيه التى هى عمان فإنها تؤلف من ناحية أخرى جزءا من مجموعة الكتل الجبليه الهائلة التى ظهرت بقوة الضغط الجيولوجى من الشمال ضد الجزء الأكبر استقرارا وهو شبه الجزيرة الأم . فى الوقت الذى كانت التقلبات الأرضية تعمل على تشكيل السلاسل الجبلية الكبرى فى الهند وفارس[2] .

---

(١) .. يعبر البنيان من خط الطول ٥١ شرقا . الحدود الشماليه للرمال . اما من الشرق فمواصل الرمال امتدادها شمالا عن طريق الباطن وولواوكونا ولونا حتى شواطىء الخليج . أما الى الغرب فهى تمتد عن طريق الحوب والحصورة والأحساء (راجع الخريطة) ولكن تلك المناطق لاتعتبر فى رأى اصحابها من مناطق الرمال .

(٢) .. راجع مقالات (طبقات الأرض ونشوؤها فى عمان واجزاء من جنوب شرق الجزيره) . مجلة الجمعيه الجيولوجيه ١٩٢٨ تقلم الدكتور ح . م ليس .

أما ظفار التى كانت نقطة الانطلاق للرحلة فإنها تدخل ضمن التركيب الجيولوجى للجزء الأكبر من سهل شبه الجزيرة العربيه . فعلى امتداد الشاطىء تظهر كتل الجرانيت وغيرها من الصخور البللوريه ، التى تشكل القاعدة العريضة لشبه الجزيرة العربيه . وفوق تلك الصخور توجد الصخور الرملية الحمراء التى تؤلف المرتفعات السفلى لجبال القرا . والتى تشبه الصخور الرملية فى بلاد النوبة وسيناء بمصر وفى شرق الأردن. وفوق تلك الصخور بدورها نشأت قمم جبال القرا كمخلفات للعصور الطباشيرية والأيسونية ، غير أن الواجهة الجنوبية للربع هى فى الحقيقه بمثابة جرف كبير يؤلف أطراف السهل الرملى الأعلى ويأخذ فى الانحدار تدريجيا حتى أطراف الرمال عند المنطقة التى عثر فيها على المتحجرات الأيسونية .

أما حزام الرمال الأكبر الواقع شمالا إلى مسافة تمتد نحو ٣٠٠ ميل وأكثر فليس فيه ما يدل على أنه مرجع لأى عصر معين ، ذلك على الرغم من أن عينات الرمال التى أحضرتها توجد بها نسب من الجير الأبيض والوردى ، الأمر الذى يشير الى أن الرمال لم تنتقل الى تلك المنطقة من مكان بعيد والا لاختفى الجير من كسور المرو الأصلب .

أما على الطرف الشمالى من الرمال حتى شمال منطقة البنيان فقد عثرت على متحجرات بحرية تنتمى إلى نفس المرحلة التاريخية مثل تلك التى اكتشفتها فى المنطقة الجنوبية ، غير أنه كان من المتعذر التأكيد من خلال رحلة واحدة ما إذا كان البحر الأيسونى امتد فى وقت من الأوقات إلى المنطقة الواقعة بين قطر وظفار ، إلى أن جاءت الرمال التى زحفت اليها من الشرق فردمتها ؟ أو ما إذا كان الجزء الممتد إلى مسافة مائة ميل على جانبى الربع الخالى هى المنطقة التى اكتشفت فيها المتحجرات التى تشكل الحدود الشمالية والجنوبية للبحر الأيسونى .. ومن المحتمل أن تكون الأرضية الأساسية للرمال قد نشأت من تركيبات جيرية معينة تعود فى تاريخه

إلى العصر الايسونى أو الطباشيرى . . فى نفس الفترة التى برزت الصخور النجيرية لبلاد النوبة ، والتى تكونت بالتالى منها .

كنت قد أشرت إلى أن الربع الخالى كان منخفضا موقعه بين نجد الأعلى عربا . وسلسلة الجبال العمانية شرقا . ومن المحتمل أن يكون ذلك المنخفض قد تكون فى نفس المرحلة التاريخية التى تكونت فيها المرتفعات العمانيـــة . وذلك من خلال العصرين الطباشيرى والعصر الذى يليه . ومما يثير الاهتمام وإنما له سلبياته . . هو التكوين الطبوغرافى للمنطقة على امتداد طرق الرحاء التى سلكتها وهو عدم وجود تعرجات كبيرة يمكن أن تؤدى إلى نشوء معالم ذات أهمية فيها ففى سلسلة جبال القرا بالذات يبلغ أعلى ارتفاع ألفى قدم ، ومنه تبدأ الجبال فى الانخفاض تدريجيا حتى ارتفاع ١١٠٠ قدم عند حافة الرمال بحيث لايزيد ارتفاع المنخفض هناك على ٩٠٠ قدم فى كل مائة ميل . وكذلك الحال بالنسبة للطرف الجنوبى . بحيث لايتجاوز الارتفاع ١١٠٠ قدم فى شمال البنيان . ثم يتدرج فى الانخفاض إلى ٩٠٠ قدم فى كل ثلاثمائة ميل تقريبا وإلى شمال منطقة البنيان . فإن الانخفاض يحتفظ بمعدله عند الناحية المواجهة للبحر . وقـــد لاحظت فيما يتعلق بمنطقة الرمال [1] بأن الطرف الجنوبى منها هو أعلى منطقة فيها .

ومن هناك تنحرف شمالا . وحسب قول سكان المنطقة أن انحرافهـــا يبدأ من خط طول ٤٩° ثم مرة أخرى من خط طول ٥٣° .

---

(١) . . فيما يلى ملخص لتشكلات الرمال الأساسية كما وجدتها فى رحلتى من الجنوب الى الشمال :

(أ) ارض رملية حمراء مرتفعة ٢٠٠ ميل .

(ب) مناطق رملية مرتفعة أقل وعورة مع وجود تلال على شـــكل حدوة الحصـــان ٣٠ ميلا .

(جـ) تلال بيضاء متوازية تتخللها وديان حمراء ١٠٠ ميل .

(د) اراض رملية بيضاء منبسطة او متعرجة قليلا ٧٠ ميلا .

(هـ) اراض رملية بيضاء منبسطة او متعرجة قليلا تتخللها جبال حمراء ٥٠ ميـــلا .

(و) مرتفعات قاحلة وتلال حمراء ١٠٠ ميل .

وتمتد تلك الأجنحة الى ثلاثة اتجاهات داخل الرمال ، وان الاعتقاد بأن منطقة الرمال منطقة خالية من المياه اعتقاد لا أساس له من الصحة فالمـاء وان كان شديد الملوحة إلا أنه موجود على أية حال فى الشرق من المنطقة على درجة ٥١ [١] شرقا على امتداد المناطق الوسطى — فى منخفضات سويحب . وفى غيرها من المناطق . وهناك وفرة من المياه تحت طبقات الأرض ولكنها ملحة بدرجة تجعلها غير صالحة للشرب ، والعيون والآبار لا تحمل أسماء مشهورة وأما مناطق الميـاه الأخرى الصالحه للشرب فإن لها أسماء مشهورة بها . وفى أغلب الأحيان فإنها تسمى بأسماء الذين حفروها ، وعلى كل حال فإن الجمال تقوم بعملية تنقية مثل تلك المياه ، فهى تشرب من تلك المياه والسكان يشربون من لبنها .

وتوجد المياه العذبة فى الأطراف الشرقية من منطقتى الدكاكة الغربيـة وسنام . وكان عمق بعض آبار الماء يصـل إلى ثلاث عشرة قامة وأكثر . غير أن مياه تلك الآبار غير مضمونة لأنها قد تجف كما حـدث فى منطقـة الطريقة . أما الآبار الملحة فتقع فى أقصى الأطراف الشرقية من خط سـير الرحلة ولكن ماءها ضحل . كآبار منطقة اليوجة التى لا تنضب مياهها ، وهذا كما يبدو يؤكد ما يقوله العرب بأن المرتفعات الرملية والغربية والجنوبية الغربية مناطق جافة قاحلة ليس فيها ماء على الإطلاق .

---

(١) .. التحليلات الكيميائية للعناصر التى تحتوى عليها المياه التى شربت منها مبينه فى الملحق الثانى.

=

أما أسماء الإقليمية للرمل فإن أغلبها مشتق من طابعها الطبوغرافى أو من الآبار أو النباتات الهامة [1] فى بعض الأحوال أو من العلاقه بينهـ وبين الجمال .

ـ ومواقع المناطق النباتية من الجنوب الى الشمال هى كالآتى :

المنطقة	الحياة النباتية	خط عـرض		ارتفاع	
		من	الى	من	الى
١ ، ٢	زهـر برحـان ابالـه (١)	١٨ر٣٠	٢٠ر٣	١١٠٠	٥٥٠
٣ ، ٤ ، ٥	الحـد	٢٠ر٠٠	٢٣ر٠٠	٦٠٠	٢٥٠
٦ ٠ ٥	عـدة	٢٢ر٤٠	٢٤ر٠٠	٢٧٥	١٢٥
٧	شنان	١٢ر٢٢	٢٤ر٣٠	٢٠٠	س ل

اما الشعب فهو القسيس والحرم الذى ينمو فى المناطق الرملية الحمراء بالمناطق ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦

(١) .. باله هو اكثر الاعشاب التى توجد فى منطقة الرمال واكثرها فائدة للسكان ذلك ان منه يصنع سرج الجمل وادوات الخيام . كما انه يصلح وقودا للنار وذلك على عكس الحد والشنان .

وقد سبق ان اشرت الى موضوع الدكاكة وسويحب وسنام . وكذلك بالنسبة للمناطق التالية :

البـواح : جمع باحه ، وهى عين ضحلة للمياه .
منجـر : مشتقة من المنجور ، وهى عين ماء فى منطقة صخرية .
حد(الجمده) : منطقة ينمو فيها نبات الحد بكثرة .
خلة عجمان : وهى منطقة لا ينمو فيها نبات الحد .
ام مطله : منطقة ام الفوقة ، وهى لا ينمو فيها لانبات الحد ولا نبات الزهـر .
الجـوب : منخفض يشبه الوادى ـ منطقة بنيان ـ جبرين .
جيبـان : جمع جوب .
جفورة : مفرد جفر ، وهو الثقب العميق .
الشويكلة : ربلط كيس الضرع .
طوال : من طول وهى البئر العميقة جدا ، وهذه الكلمة دارجة فى سنام الغربية .
عقال : عقال الجمل ، وتعنى ايضا عين الماء الصغيرة فى جيبان الشرقية .

إن أسلوب الحياة فى منطقه الربع الخالى وهو أسلوب يعتمد على المراعى المؤقته وموارد المياه الضئيلة أو الملحة — أسلوب بدائى قبلى • فهى حياه سذة من الناحيه الاقتصادية وغير مستقرة من الناحية السياسيه ، وإن كانت من الناحية الاجتماعية حياة ثابتة لاتغير فيها •

ورخاء كل قبيله يقاس بما تملكه من جمال وعددها ، أما مصادر الدخل أو الثروة فهى المراعى وتقاس رجوله أفراد كل قبيلة بما تستطيع أن تستولى عليه من جمال القبائل الأخرى التى تناصبها العداء •

ومن هنا فإن الجمال نوعان : الجمال الحلوب ، وهى بمثابة الأصـــول للثروة واختياطيها والجمال الأخل وهى تستخدم للركوب وتمثل رأس المـــال المستثمر ، ويساوى الجمل من الفئة الأولى نحو ١٠٠ ريال ، ومن الفئة الثانية من ٢٠٠ الى ٤٠٠ ريال للنوع الأجـــود •• والجمـــال الحلوب لا تعرف الركوب اطلاقا وكل مهمتها هى الإنجاب وأدرار اللبن ومن هنا فإن الأنثى هى المفضلة ، وهى تحظى بكثير من العنايه والرعاية من السكان ، بينمـــا الذكر من الجمال يعد من الكماليات وبالتالى فإنه نادراً ما يعيش بعد السنة الأولى حيث يفضل ذبحه ، وقد يتم ذبحه بعد ولادته مباشرة ، بل وقبل أن تراه الأم ليكون وجبة لأصحابه •

ويكفى جملان أو ثلاثة لخدمة قطيع مكون من خمسين ناقة كما تستخدم الذكور فى نقل الأمتعة والحمولات الثقيلة أثناء التنقل وعندما ترعى الأبل تتفرق إلى مجموعات فى مناطق مجهولة • بينما يتولى أصحاب الابل الاشراف عليها كل بمفرده بالنسبة لمجموعته • وعند الانتهاء يعـــودون بالأبل إلى مناطقها خوفا من الغارات أو الاعتداءات التى قد تفاجئها من الهضاب إذا توغلت فى المناطق غير المأمونه على الحدود الجنوبية كما حدث فى الشتاء الماضى •

وتعتبر قبائل مرة والمناصير والمناهيل اكثر القبائل امتلاكا للجمال ، ثم تاتى بعد ذلك قبيلة الصيعر إلى حد ما ، أما قبائل الرواشـــد فقد تدهورت ملكيتها فى الاعوام الاخيرة نتيجة لمـا تعرضت له الجمال من اعتداءات من قبائل الصيعر ـــ وعلى هذا الأساس فإن من يملك خمس جمال يعتبر ميسور الحال عند قبيلة الرواشد ، اما إذا زادت الملكية عن عشرين جملا فيعد من الأغنياء واذا ارتفعت الملكية الى ١٠٠ رأس فيعد أصحابها من كبار الأثرياء ، أما بالنسبة لقبائل مرة فإن متوسط الملكية يزيد عن ذلك كثيرا وقد تحدث إلىّ أحد البدو عن معدلات الثروة بالنسبة للجمال وكان يتحدث وهو يبتسم ، على غرار ما يحدث عندنا فى الغرب ، عندما نتحدث عن القصص فى العهد القديم . فقد تناول الرجل حفنة من الرمال وتركها تتساقط من خلال أصابعه وهـــو يقول : والله أن فلانا ابن فلان عنده ٣٠٠ رأس ورغم تلك الثروة فإنه ليس من الشيوخ ، أو عنده أموال أو ممتلكات أكثر منى .

فسألته وماذا تفعلون باللبن ؟ فأجاب : من عنده لبن كثير فسوف يكون عنده ضيوف كثيرون كما أن عليه لجيرانه حق ، فضلا عن الذين يطرقون بابه. أما ما يفيض من اللبن فإنهم يسقونه لصغار الإبل .

ومن وبر الجمل يحصل البدو على كل حاجاتهم المنزلية كالنسيج الذى تصنع منه الخيـــام والحبـــال وأحزمـــة الركائب وغيرها من الحاجيات وتصنع نســـاء البدو ملابسهن ، لأن حياكة الملابس مقصـــورة على النساء دون الرجال ، على عكس حلب الناقة الذى هو مهمة الرجال بعكس قص وبر النوق كما جرت العادة بالنسبة لقبيلتى الرواشـــد والعوامر اللتين يعارض رجالها قيام النساء بحلب الإبل وذلك على عكس قبائل مرة والمناصير والصيعر وقبائل سهول حضرموت التى لاتعانى من تلك العقدة ، وهناك نوعان من ركاب الإبل : الركاب المزدوج ويسمى (الشـــداد) ومكانه فوق سنام البعير واستعمال هـــذا النوع من الركاب مألوف فى شبه الجزيرة العربية وعلى

الاخص بين قبائل مرة والصيعر وحرب • أما بقيه القبائل وفى عمان بل وفى مناطق جنوب شرق الجزيرة العربيه فإنهم يستعملون نوعا اخـــر يسمى الرانه • وهو نوع خفيف الوزن (بلا أعمدة) تغطيه قطعة من جلد الماعز يوضع خلف سنام الناقة •

ومن هنا يتضح لنا بأن الركاب يتنوع جغرافيا ، فإلى الغرب من خط سـير الرحله تستعمل القبائل النـوع الأول بينما قبائل المنطقه الشرقية تستعمل الرانه . وبالمثل فإن هناك لهجتين عربيتين فى منطقة الرمال ، والفرق بينهما يعود إلى منطقة كل قبيلة فهناك اللهجة الشمالية أو لهجـة قبائل مـرة ، كمـا أن هناك لهجـة قبائل الرواشـد أو سـكان الجنـوب والأخيرة يتكلم بها عوامر [1] المنطقة الشمالية الشرقية ، والفوارق الرئيسية بين لهجـة الشمال ولهجة الجنوب هى فوارق تكمن فى الكلمات [2] • كمـا أن هناك فرقا كبيرا فى النطق بها ، وقـد تطوع حمـد بن هـادى فأفاد

---

(١) .. أن قبيلتى الكثيرى والعامرى وهما من سلالة قبيلة الرواشـد والعوامر هم كما يقولون من أبناء واخوة حمدان . والكلمة التى كان يرددها الشيخ صالح دائما هى سنن العوامر والكثيرية وكذلك قبائل حضرموت لهـا لهجاتها الخاصة .

(٢) ..

	الرواشـد	مـرة
الرغيف	: جروش	غدامة
القط الوحشى	: جوانحه	أدفـة
الهضبة	: جـاده	حديبه
عدة الحفر	: اتيـله	الهـيم

وقد اشرنا سابقا الى احلال الجيم محل الياء عند قبائل الرواشد ولاتستعمل الشين مكان الكاف فى اى جزء من هذه المنطقة ، وان كانت تلك اللفظة دارجة بين قبائل الاخوان وهى « المطير » . والظيبة وعجمان والدواسر .. الخ ، أما الجيم فتحل محل القاف عندهم ولكن البدو لا ينطقونها بتلك الصورة .

بمعلومات هامه وهى أن لهجه قبيلته لهجه مميزه عن لهجة القبائل الأخـرى لأنها لهجه تنتمى فى أصلها إلى الجاهليه . ولكنه عندما كان مع بعض مـن أفراد قبيلته عاد فصحح ذلك الرأى حيث اتفق الجميع على ان أصلهم من عجمان وهى تكلمه مشتقه من يام غير أن أصل القبيلة من ناحية الأم هو من الجن « أجارك الله » .

وعلى الرغم من تعدد الزوجات — الا أنه يندر أن يكون للبدوى اكثر من زوجه واحدة على الرغم من أن أغنياء البدو قد يتزوجون بأكثر من واحدة . أما بعد طلاق لأحدى زوجاتهم أو بالجمع بينهن ولايمكن لرجل او امرأه أن يقيم خارج نطاق الزوجية . بل أن ذلك يعد من الأمور المرفوضه فى مجتمع قبلى تخضع فيه مصلحة الفرد لمصلحه القبيلة أو من يرئها والتى يعتبر قانونها الأخلاقى الصـارم محصلة خبرة طويلة وعميقة الجـذور متحررة من تلك الافتراضات الفلسفية لدعاة العزوبة . فمن الناحيه النظرية يصبح الزواج قانونيا إذا ما تم أمام القاضى [1] . أو من ينوب عنه .

وقد جرت العادة على أن يصحب عقد القران احتفالات كبيرة الغرض منها تقنين الزواج وتوثيق عراه . فيقوم الخطيب ووكيل الزوجه وهو فى الأغلب والدها أو شقيقها بالحضور أمام القاضى [2] . لأنه ليس من العاده أن يذهب القاضى إلى منزل العريس فى المناطق الصحراوية . وهناك طريقه أخرى تتم بها مثل تلك الأمور . إذ يمكن لبعض رجل القبيلة ممن سبق لهم أن

---

(١) .. عند السنيلة يعهـد بتفسـير الشريعة الاسلامية الى العلمـاء ، اما بين الشيعة فى ايران والعراق فان الامام او نائبه هو الذى يتولى ذلك الامر ، ونظام الكهنوت غريب عن الاسلام . والتقسة للغلاة فهى شىء ممقوت ومكروه وعلى الأخص بين الجماعة الوهابية .

(٢) .. قبيلة المناصير تذهب الى أبو ظبى .
قبيلة العوامر تذهب الى عبرى وضنك والبريمى .
قبيلة الرواشد تذهب الى ظفار والربذة .
كل مرة تذهب الى الهفوف أو جبرين .

تتلمذوا على يد أحـد القضاة أن ينوبوا عن القاضى فى اتمام عقد القران . وبذلك يعتبر الزواج قانونيا . وهذا النظام معمول به فى المناطق النائيه من الربع الخالى ، كما يمكن أن يتوارثوا هذه الصلاحية عن الآباء .

وبعد إتمام العقد يتعين على الزوج أن يدفع المهر المتفق عليه لوالد الزوجـة مع تقديم بعض المجوهرات والحلى وذلك بالإضافـة إلى خاتم الزواج الذى يقوم العريس بتقديمه للعروس ليلة زفافها إليه (وبالنسبة لقبائل الرواشـد فيتعين على العريس أن يقيم وليمة قبل أن يدخل عـلى زوجته) ..

وتعتبر القبلة على الأنف هى مقدمة للدخـول على الزوجـة وينظر الرجـل إلى المرأة على أنها جـزء من متاع البيت ، وربما كان ذلك طبيعيا بالنسبة للبيئة الصحراوية ، حيث تعتبر القوة البدنية المطلقة والصرامـة والطابع العدوانى هى المزايا التى تفرضها البيئة وتكافىء صاحبها عليها . ويحق للرجل أن يضرب المرأة متى شـاء ، وقـد أكد لى ذلك بعض أفراد قبيلة مرة ، أما قبائل الرواشـد فلا تقر هذه العادة . وتدور السياسـة فى الربع الخالى حول محـور واحـد « العلاقات القبلية » فبموجب الاعتبارات الجغرافية تنقسم القبائل إلى قبائل منطقة الرمال . وجيرانهم قبائل الهضبة الشرقية ، ثم قبائل الهضبة الجنوبية . أما السكان الأصليون للرمال كمـا أوضحت ذلك فى هذا البحث فهى قبائل مرة والتى تقطن الشمال والشمـال الغربى . وقبائل المناصير والعوامر والتى تقطن الشمال الشرقى ، وقبائل الرواشـد وبيت يمانى التى تقطن المنطقة الجنوبية .

ومنذ نحو عشرين عاما كانت تلك القبائل فى صراع بعضها مع البعض . فقد كانت قبائل مرة والمناصير — قبيلتين متعاديتين . كما كان الصراع القبلى بين قبائل العوامر والمناصير على درجـة أشـد ، وقد كان العوامر فى وقت من الأوقات من أعظم قبائل الربع الخـالى ، ويعتبرون السكان الأصليين

لمناطق الدكاكه وسويحب والغانم ، وهى المناطق التى تسكنها حاليا قبائل الرواشـــد ، غير أن الصراعات غير المتكافئه بينهم وبين المناصير أدت الى انهاكهم كما كان بين قبائل مرة والرواشـــد الكثير من الحزازات القديمـــة ، ورغم ذلك أصبح الســـلام يســـود منطقة الرمال بأسرها .

انه الســـلام الذى فرضه عاهل الجزيرة العربيه عن طريق نائبه الفوى ابن جلوى فى الهفوف على تلك القبائل المتصارعه من قديم الزمـــان . ليس عن طريق السيطرة المباشرة . لأن ذلك مستحيل . وانما عن طريق المكانة الشخصية لعاهل الجزيرة العربية الملك عبد العزيز آل سعود ، فالايمـــان بقوة هذا الرجل وطالعه السعيد قد اكتسح تلك المنطقه وذلك لحسن إدارته وقوة نفوذه . حيث أوجدت تلك المزايا شعورا لديهم بمهابته وليس الحب له . وحتى ذلك الوقت لم يكن مرافقى حمـــد بن هادى قد قدم فروض الولاء لعاهل الجزيرة . ولكنه لم يكن يتردد عن إظهار شعور الاحترام لهذا العاهل العظيم . فقد كان يعتقد بأن الحـــاكم فى الرياض . يملك كل الصلاحيات لتجريده من ممتلكاته أو تحريض أعدائه عليه .

وعلى أساس تلك المقومات كان السلام يســـود منطقة الرمل . وهكذا كانت القبائل بدرجـــة أو بأخرى مرتبطة بابن ســـعـــود ، وتدفع له زكاة رمزية ، ونظير تلك الزكاة كانت تعيش فى أمان . فمن الناحية النظرية لم تكن تلك الزكاة تزيد عن ريال واحد عن كل رأس من الجمل سنويا ، أما مـــن الناحية العملية فلم تكن قبائل الرواشد تملك شيئا من المـــال . وبحـــكم وجودها فى المناطق البعيدة فإنها لم تكن مضطرة إلى دفع الزكاة . وإن كانت ترسل فى كل عام جملا واحد لابن سعود . تعبيرا عن ولائها لعاهل الجزيرة . وعلى أية حال فعندما كانت الامطار تهطل على الأجزاء الشمالية من الرمل وبالتالى تنزح القبائل اليها ، فإن جباة الزكاة السعوديين . كانوا يطالبونهم بدفع الزكاة ، فتضطر القبائل لبيع بعض الجمال لتسديد ماكان يستحق عليها من زكاة .

ورغم وهن الروابط مع الرياض فإن القبائل لم تكن تبدى تذمرا من ذلك الوضـــع وكأنها تدين بالمثل العربى القائل « سلطان مستبد خير من نزاع دائم » . وهو مثل ربما نشـــأ فى إحـــدى البيئات الحضرية ، وهى تفضل ألف مرة حريتها . على سلام يأتى على حسابها ، ذلك شعور متأصل فيها . وكانت تعتقد بأن الســـلام القائم ســـوف يستمر ، ما استمر حكم الرياض . ومن المؤكد أن الدم سيعود ليسيل من جديد ، كمـــا ستعـــود الصراعات القبلية الى سابق عهدها بمجرد أن يزول نفوذ الرياض عن منطقة الهفوف ، إن تلك النزعة بين سكان الربع الخالى ليست غريبة . فإن المدارس السياسية أمامها الكثير مـــن الأمثلة فى التـــاريخ الحـــديث للإمبراطورية البريطانية .

ومن منطلق ماكان يســـود تلك المنطقة من هدوء الأوضاع القبلية لقيام حكم معتدل توفرت لدى الشجاعة الكافية لكى أقوم بتلك المخاطرة لعمق الربع الخالى .

إن الأوضاع السياسية فى منطقة الهضاب الجنوبية قـــد تأثرت هى الأخرى بقيام حكم ابن سعود . وإن كان ذلك التأثير يتغير من فترة إلى أخـــرى .

ففى تلك المنطقة تتجمع القبائل من انتماءاتها الوراثية إلى الأصلين القبليين فى إطار الهنائى والغافرى الذى تحدثنا عنه سابقا . ومن تلك القبائل العوامر والحراسيس وغفار ، وتنحدر من قبيلة الدروع [1] . وآل بوشامس وتنحـــدر من الغافرية ، غير أن الخلافات والمنازعات بين تلك القبائل لاتنعكس على مناطق الرمال .

---

(١) .. من المعروف أن قبيلتى الدروع والمناهيل تنحدر افرادها من أصل واحد . ولكنهما الآن ونتيجة لأسباب غير معروفة ينتمون اسميا الى أصلين مختلفين .

وفيما يختص بالوضع السياسى فى المناطق الجنوبية فهو متحرر تحررا كاملا من نفوذ ابن سعود ، والقبائل الرئيسية فى تلك المناطق هى : الصيعر ، والمناهيل ، وبيت كثير والمهرة ، ثم القبائل الأقل أهمية كالكرب ، وبام ، وسعد ، وليسيين . فهى قبائل لها السيادة على مناطقها وتعتبر الصيعر أكبر القبائل سطوة ونفوذا ، وقد ينشأ تحالف بين الصيعر وكرب . أما القبائل الأخرى فقد تتحالف مؤقتا أثناء عمليات الغزو ، إلا أنه لاتوجد فى المنطقة حروب طويلة ومنظمة ، لأن ذلك متعذر بسبب قلة الذخيرة ، حيث لايملك الفرد من تلك القبائل عادة أكثر من عشرين خرطوشة من الذخيرة ، وهو يحرص على ألا يبددها ، ما لم يكن ذاهبا الى إحدى المناطق الساحلية ليبيع بعض نوقه هناك . وحتى الحروب التى تنشأ بين تلك القبائل فهى حروب متقطعة همها الوحيد الاستيلاء على الغنائم . وقبيله الصيعر هى اليوم تمثل الخطر الأكبر على استتباب الأمن فى الرمال الجنوبية ، وذلك نظراً إلى القوة العددية حيث يقارب تعداد أفرادها قرابه الألفين من الرجال المسلحين ، كما أن وجود مواطن لها بعيدا عن متناول القبائل الأخرى يضاعف من قوتها . ولقد رفضت قبيلة الصيعر حتى ذلك الوقت استقبال مبعوث الملك عبد العزيز بن سعود .

الفصل العشرون

من البنيان إلى البحر - المرحلة الأخيرة

أمضينا سحابه يوم ٢٨ يناير نستريح من الرحله بمنطقه البنيان . بعد مسيرة متواصله امتدت ١٨ يوما عبر بحر الرمال الوسطى . فقد كنا فى أمس الحاجـــة إلى الراحه لتجديد نشاط أفراد الرحله وكذا الجمال فتجمعنا كلنا حول نار المخيم فى تلك الليلة . وقد عرفنا أن فترة الراحـــه تلك هى الوقفة الأخيرة للقافله . فقد كنا نقترب من نهاية الرحلة . فألفيت نفسى فى حاجـــة إلى أن أتحرر من قيود الرحلة التى التزمت بها سابقا .

كان الكشاف الكهربائى الذى أحمله معى موضع استغراب وإعجـــاب المرافقين وكانوا يسألوننى باستمرار ما إذا كان ذلك الكشاف يصلح لاكتشاف الجمل المسروقة ليلا أم لا ــ كان ذلك موضوعا هاماً بالنسبة للبدو . وعندما قام أحدهم بوضع راحته على ضوء المصباح اكتشف أن المصباح لم يكن ساخنا . فزف الخبر العجيب إلى زملائه على الفور ، فحذوا حذوه فى لمس المصباح . وعندما كانوا يضعون أيديهم عليه . كان نور المصباح المركز يكشف لهم عن عظام أصابعهم . فأخذوا يصرخون فى دهشة واستغراب من ذلك المنظر ويرددون عبارة « لا إله إلا الله » وربما كانوا يقولون فى أنفسهم . إن البلد التى جاء منها الصاحب بلد عجيب ولم أر أى فائدة من إقناعهم بأننى لست الشخص الذى صنع ذلك الكشاف . ألم نصنع نحن أشياء أكثر روعة وإثارة من المصباح « أعنى البنادق والذخيرة » ؟

وهنا سألنى أحد البدو . وهو يربت على بندقيته . أين تصنع البنادق ؟
فرد آخر بأنها تصنع فى بلاد الكفرة .

ولكننى صححت كلامه وقلت لهم : نحن مؤمنون ولسنا كفارا .

ولكنه سألنى سؤالا آخر : هل إذا جئنا لبلدكم نجد الأمان • وهل ستتكفلون بحمايتنا من أى اعتداء ؟

فأجبته : إنكم فى بلدنا لا تحتاجون إلى مثل تلك الكفالة أو الحماية •
ثم سألنى حمد : لنفرض أن أحدا من الأفراد اعتدى على • وقتلنى وكنت أنت الكفيل فكيف ستتصرفون ؟

فأجبته : لايمكن لأى شخص أن يعتدى عليك • لأن الناس فى بلادى لايحملون أسلحة • وربما اعتقدوا — عندما سمعوا إجابتى أن بلدا كبلدى لايصلح فى نظر البدو ، لغير العبيد والفساد ولكنى تركتهم وشأنهم يضربون أخماسا فى أسداس •

ثم عاد حمد يسأل : وهل يوجد عندكم لبن الإبل ؟ فأجبته بأنه لايوجد عندنا جمال ••••••

فعاد مرة أخرى يسأل : إذا أى شىء عندكم ؟؟ أجبته بأننا عندنا خراف وبقر ، ولكننا نصنع السفن والبنادق وأشياء أخرى من الحديد الذى يستخرج من الأرض •

فتدخل الشيخ صالح وقال : لقد سمعت أحد المناصير من أبو ظبى يقول بأنه فى أحد الأيام دخل أحد المسيحيين على مجلس الشيخ وأخبره بأنهم فى بلده يصنعون من قضيب مثل العصا خمس بنادق •

فردد البدو الحاضرون : لا إله إلا الله •

ثم تناول المصباح من يدى بدوى آخر وقال : « يا الله • إنه ثقيل الوزن وقال ثالث وهو يتناوله من يد زميله « إنه ثقيل فعلا » ••• وهنا

قال الشيخ صالح : إن المسيحيين ليسوا قوما بسطاء ، إن داخل المصباح قوة . وكلمة القوة لها احترامها عندهم أكثر من الرصاصة لأن القوة فى اعتقادهم تقتل الناس .

فصححت الحديث وقلت : إنها تقتل الأشرار فقط أى المجرمين ، فعلق البدو على ذلك بقولهم أجل .. هذا صحيح كل الصحة « العين بالعين والسن بالسن » إنها شريعة الله . ولكن أليس عندكم غدية ؟

فأجبت : كلا ، فردوا قائلين : معنى ذلك أن أخا القتيل أو ابن عمه لايستفيد ولا بريال واحد كغدية ؟

قلت : أجل ولا بريال واحد .

لقد أحسست من خلال الحوار هذا أننى قد تغلبت عليهم .

ثم عاد البدو فكرروا الأسئلة : وقال أحدهم : أليس عندكم حماية ؟

قلت لا إن زعيمنا رجل قوى ولايجرؤ أى شخص أن يمنح حمايته لقاتل ، ولكن الشيخ صالح علق على ذلك قائلا : إن الحماية عندنا شىء مقدس مالم ترتبط الجريمة بفضيحة العار . مثل تخلى الكفيل عن حماية المكفول . ما أحسنه من شخص ذلك الذى يمنع حمايته عن شخص قتل أحد أعدائه ... فصاح البدو بصوت واحد : نعم والله نعم ، وسألنى أحد المرافقين : فى أى اتجاه تقع بلدكم أيها الصاحب ؟ ، فأشرت إلى اتجاه الشمال الغربى ، وسألنى أحدهم : وكم تبعد من هنا ؟

فقلت : نحو مسيرة عام من شهر رمضان إلى شهر رمضان ، أى عام واحد .

فصاح البدو بصوت واحد : لا إله إلا الله .

وسألنى صالح : وعلى أى اتجاه من مكه نقع بلدكم ؟ وهو أحد الذين سبق لهم أن سافروا لأداء فريضه الحج . فأشرت مره أخرى للاتجاه السابق وربما تقع قليلا إلى الشمال .

ثم قال : وكم تبعد من هناك ؟ . قلت : بحوالى المسافه التى تبعدها من هنـــا .

فصـــاح البدو : لا إله إلا الله .

ثم قال إذن هى خلف البحر أيها الصاحب .

فقلت له : أجل هى خلف البحر .

ثم قال : وأى شىء ورائها ؟

فأجبت : البحـــر أيضا .

ثم قال صالح : وأين يقع بحر برليمول أيها الصاحب ؟

فأجبت : أنت تعنى بحر الرمول ؟

ثم التفت صالح يقول لزملائه أن الدنيا تنتهى عند ذلك البحر ووراءه لايوجد أى شىء انه البحر السابع والأخير والله أعلم .

لقد شعرت بأننى قد أخذت نصيبى من الكلام ردا على أسئلتهم ولهذا تحولت إلى مستمع لقصـــة أخرى أخذوا يحكونها لى عن دياب بن غانم .

كان دياب بن غانم من أكابر بنى هلال . وإن كان يشبه الخدم فى لون بشرته وملامحه . وكان لونه سبباً فى إنقاذه من الأسر فى اليوم الذى قتل

فيه يوسف وأخـــذ زميلا دياب وبريجه أسيرين وكان دياب لايساوى شيئا فى نظرهم لســـواد لونه . وعهدوا إلى دياب بالاشتراك مع البنائين فى ترميم قلعه الزناتى خليفة . ولكنه كان يتصنع الغباء بحيث أنه عندما كان يضع الحجر على البناء مكان الحجر ينزلق وتهـــوى الحجارة إلى الخارج فى الصحراء واعتقد سادته بأن دياب لا يصلح لذلك العمل ، وكلفوه بالإشراف عـــلى المواشى . وسلّموها إليه . ولكنه أهمل فى سقايتها حتى كادت أن تمـــوت عطشا . ولمـــا أبلغ ذلك لسادته ورأوا انه لا يصلح حتى لرعاية الماشية . أرسلوه مع بعض الحمير . لاحضار الحطب والعشب ، وهنا اقتطع دياب عودين طويلين من إحدى الأشجار . وسن طرفيهما ثم غرسهما فى مؤخرتى الحمارين ليضع عليهما الحطب . وهكذا عاد إلى سادته بحمولة كبيرة مـــن الحطب ، وقد استحسنوا جهده فى البداية ولكنهم بعد ذلك فوجئوا بأن الحمارين قد نفقا وأخذوا يفكرون فى أمر دياب من جديد فاقتنعوا بأنه ضعيف العقل . وأنه لايصلح لأى شىء إلا رعاية الجمال ، ولذلك قرروا إرساله ليرعى جمال بنى هلال التى استولوا عليها عند أسرهم له ولرفاقه . وبذلك القرار تحققت أمنية دياب .

وبمرور الأيام تحسنت حال الجمال وهكذا حاز دياب رضا سادته وفى كل مرة كان يبتعد بالجمال أكثر وأكثر . كما كان يطيل البقاء مع الجمال فى البادية ، دون أن يثير شكوك سادته ، حتى جاء اليوم الذى ابتعـــد إلى المنطقة التى تمكن منها من الفرار والعودة إلى بنى هلال مع الجمال ، وفى طريقه إلى بنى هلال كان يركب جمله بطريقة معكوسة حتى لا يثير شبهة المارة من رجال القوافل ، كما وضع ترابا على فخذه ورأسه ، وبتلك الطريقة استطاع الوصول إلى مسقط رأسه عند بنى هلال [1] ، وبعد أن استمع الشيخ حسين إلى قصـــة دياب . وضع خطة لتخليص أبوزيد وبريجة من

---

(١) .. انـ أروى هذه القصة كما سمعتها ولكن لم افهم القصد منها ولم يتسع الوقت للاـ ـسار من محدثى ، حتى لا اقطع عليه حبل الحديث .

الأسر ، وفى الوقت المحدد انطلقت القبيلة حتى وصلت الى بحيرة تفوح منها روائح زكية ، وتتفرع منها ثلاثة أودية . وكان أكابر بنى هلال قد اجتمعوا للتشاور فيما بينهم ، وقرروا أن يتركوا النساء والماشية مع ستين فارسا ، ولكنهم فى صباح اليوم التالى غيروا الخطة وقرروا ألا يتركوا الفرسان وإنما فضلوا أن يتركوا دياب بن غانم بدلا من الفرسان ، وقال الشيخ دياب : إن الجمال والنساء فى حمايتك . وعليك حمايتها ولو كلفك ذلك حياتك ، ثم ودعوه وانطلق القوم إلى بلاد الزناتى خليفه وودعهم دياب بقوله : إذا ضاع أى فرد من هؤلاء فإن حياتى تحل لكم .

حدث فى تلك الليلة أن زار الوادى أحد الجان لكى يرى الناس الذين كانوا يخيمون هناك . وكان الجان يحمل فى يده الهائلة رمحا وأخذ يفتش فى جمال بنى هلال عن أكبر الجمال وأحسنها ، وعندما اختار بغيته طعن الجمل بالرمح ثم حمله على كتفه وعاد إلى مخبأة ، وكرر تلك العملية فى اليوم التالى وهكذا فقد جمل آخر من الجمال . ولكن عندما جاء الجان فى الليلة الثالثة دب الفزع فى المخيم لأن زوجة دياب شاهدت الجان ولكنها خافت أن تبوح بذلك خشية أن ينتقم الجان منها ، وعندما أحس دياب بصمت زوجته أصيب بالحيرة . وسألها عن السبب فلم تجبه . ولكنه سحب سيفه وضربها ضربة خفيفة وقال لها : أخبرينى عما تعرفينه وإلا فسوف اذبحك. فأخبرته بما فعل الجان وكيف أنه ظهر من إحدى الأودية وأخذ يطعن الجمال بالرمح ثم يحملها معه ، .

فى صباح اليوم التالى أرسل دياب خادمه لاستطلاع أخبار الجان ومكان اقامته فوصل الخادم إلى بئر تكونت من سقوط أحد الشهب ورأى الجان بداخلها وبقايا لحم الجمال على فمه . فعاد وأخبر دياب بما رأى ، فركب دياب مهره وجاء إلى البئر . وعندما اقترب منها خرج الجان يتباهى بعضلاته ويستعرض بجسمه الضخم المخيف . وصاح الجان : أوها ياديا بن غانم هل جئت لتأكل أو لتذبح ؟ فرد دياب ، لقد جئت من

أجل ان آكلك وأذبحك وفجأة اسنل دياب سيفه وانهال به على الجان فقطعه تقطيعا بحيث سقط بعضه فى البئر وسقط الباقى منه خارج البئر ، ولكن النصف الأعلى من الجن صاح فى دياب ، أضربنى مرة أخرى ولكن دياب رد عليه :

ما أثنّى

وقد كان دياب يعرف ما كان يقصده الجن ، وهو أن ضربة الجان ضربة واحدة تقضى عليه ، أما اذا ضربه ضربتين فإنهما تخرجان منه جنيين حيين . فعاد دياب الى مخيمه فوجد القوم قد عادوا ولكن لم يكن يعرف للأسف ان ثلاثة من أبنائه قد سقطوا قتلى من بينهم عمر بن الخفيات من أشهر أبطال بنى هلال ، فدب الفزع فى القوم ، فمن منهم الذى يجرؤ على إبلاغ دياب بذلك الخبر المفزع خشية أن يوجه إليه دياب ضربة تقضى عليه لو سمع بذلك الخبر المحزن ، فسيف دياب لايخطىء أبدا ، فإذا ضرب به شخصا فلابد أن ينفذ فى لحمه ، لأن سيف دياب إذا لم يصب لحم انسان فإن دياب يموت على الفور . ولهذا لم يكن فى القوم من كانت لديه الجرأة لإبلاغ دياب بالخبر وأخيرا قرروا أن يعهدوا بذلك إلى الخادم دليان ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن دليان مجرد عبد فان قتل فهو عبد لا أكثر ولا أقل ، وإن أبقاه حياً فهو ليس أكثر من عبد .

فطلب دليان أسرع مهر لديهم فأعطوه له فتوجه الى دار دياب ونزل بعيدا عن البيت فصاح دياب فى دليان : يا دليان أخبرنى أنا الأسود ، كيف كانت المعركة ، وكيف قاتل أولادى — وكيف كان مصيرهم ؟ فرد عليه دليان منشدا :

لقد أستشهد خيرة أبنائنا وجمالنا •

وكان ابنك وابن خفيات منهم •

حقا كانوا أشجع رجال قبيلتهم وعصرهم •

وعندما كان يهم بالعودة استل دياب رمحه وسدده اليه ، غير أن دليان كان أسرع منه فقد احنى رأسه فانطلق الرمح بعيدا عنه وأصاب رأس أفعى ، كانت فى ذلك المكان فى تلك اللحظة •

العظمة للـــه « •• صاح دياب ــ لقد أخطأ رمحى هذه المرة ، ولابد من ملاحقة دليان أينما ذهب ، ولكن دليان صاح فيه « سلمنى » •• وأمنى على نفسى وســـوف أخبرك بما يسرك •

دياب : فى وجهى •

دليان : إن سيفك قد أصاب لحما •

دياب : الحمد للـــه ولتحيى أنت •

كانت وجهتنا منطقة رمـــال الربع الخالى فخرجنا مبكرين ، وفى تلك المنطقة كانت تحركاتنا سرية ، وكنا نقوم باستطلاع المنطقة ونفتشها يوميا خوفاً من الأخوان المتشددين الذين لم يكونوا ينادون بمحاربة الكفر فحسب بل والمنحرفين عن الإسلام ، وقد أصر رجال القافلة على عدم التجول فى المنطقة ، كما نصحونى بعدم تدوين ملاحظاتى خصوصا فى المنطقة الواقعة بين الموقع الذى كنا فيه وساحل البحر فلو حـــدث أن دخلنا إلى المناطق المشتبه فيها فمن الأفضل ألا نتوغل أو نجازف بدخول المناطق المجهولـــة لنا خلال النهار ، وأن يكون تحركنا ليلا تحت ستار الظلام •

ومن حسن الحظ . أننى لم اضطر إلى السير فى الطريق الثانى لأننا كنا فى شهر رمضان . وفى هذا الوقت تنسحب مجموعات البدو إلى المناطق الداخلية مثل الجوب والجفورة لتمضيه شهر الصوم هناك . وعندئذ صاح حمد فينا : لقد وقانا الله شرهم [1] .

من خط سيرنا يمر من سهل حجرى . وكانت أحجاره تتألف من اللونين الكفورى والعفيفى . ومن هذا المكان انحرفت مسيرتنا عبر مستنقعات ملحيه تنتشر فوقها بقع رخوة هنا وهناك . ولسوء الحظ فإن الأمطار التى هطلت أخيرا على المكان لم تفلح فى تغيير طبيعة المنطقه إلى حقول تجذب إليها قطعان الإبل . كما يحدث دائما فى مثل تلك المناسبات . ومن تلك المنطقه انتقلنا إلى منطقه رملية أخرى كان بها منخفض يشبه الوادى فيه بعض النباتات وكنا نتجه الى نفس المكان لنخيم فيه . ولكن ظهر أن المنطقه كانت مأوى للوحوش وغيرها من الحيوانات المفترسه التى تعيش على السفوح ، كما عرفنا ذلك من آثار أقدام لبعضها .

كان الطريق الذى كنا سوف نسير فيه خلال الأيام القليلة التاليه لا يختلف فى طبيعته عن المنطقة التى مررنا بها . فقد كانت هناك سلاسل من المرتفعات ومستنقعات الملح وكثبان الرمال . كما كان هناك منخفض توجد به بعض المزروعات كمنطقة دبى التى كانت على بعد مسيرة نصف يوم . وكانت سفوحه مغطاة بطبقة من الأحجار الكلسية والأحجار السوداء أو البيضاء أو الخضراء أو الحمراء . كانت واضحة فى ضوء الشمس . أما مستنقعات الملح الساحلية فكانت تكسوها طبقة من المحار باعداد لاتحصى وكنت لاتزال فى المرحلة الأولى من التحجر — أما كثبان الرمال التى كانت فى المنطقة فكانت تجمع بين اللونين الأخضر الفاتح والقرمزى الأبيض ،

---

(١) .. ان لفظة شر بمعنى عندهم آية مشكلة او مصيبة ، كالمرض والغزو .. الخ .

وكان العشب يكسو بعضها والبعض الاخر عليه أكوام من الكلس . وقد قمنا بحفر آبارلنا فى تلك المنطقة بالذات .

قبل وصولنا إلى لزنه . مررنا بسهل ضخم وكان الوحيد فى المنطقه ويمتد شرقا وغربا على امتداد النظر ، وكان مرتفعا من الناحيه الجنوبية الى نحو مائتى قدم ، ثم يبدأ فى الانخفاض على الناحية الشمالية ليتحول إلى تلال رملية جرداء ، وقد شاهدنا على تلك التلال كثيرا من الجعارين السوداء اللون كانت تزحف على أوراق وأغصان العشب ، وهى أول نباتات تنمو بعد هطول المطر . وقد ظهر بأن عشب تلك المنطقة تدر أفضل أنواع اللبن من النوق عندما تأكل منه ، وكان المكان يغرى بالتوقف من حين إلى آخر للاستراحة ورعى الجمال .

فى ذلك الوقت تسلم طالب وهو من قبائل مرة الشمالية عمل حمد كدليل للقافلة المتجهة الى الشمال حيث توجد منطقة حلوين « ورغم أنه لم يكن دليلا كفئا . فلم يكن هناك من هو أفضل منه دراية بالمنطقة ، فقد ثبت ان معلوماته عن الاتجاهات وعيون الماء كانت خاطئة وعندما أخذت أناقشة فى ذلك ، أقسم بالذى خلقه وخلق الشمس بأنه صادق ، والواقع أننى لم أكن أشك فى أنه لم يكن يكذب علينا ، غير أن مناطق الرعى والحطب التى ذكر بأننا سنصل إليها لم تظهر ، وكانت تلك الموضوعات هى شغلنا الشاغل فى كل مساء قبل المبيت ، وأخيرا تذمر بقية القافلة من هذه الحالة وصاح أحدهم : « ياعرب .. ليس أمامنا إلا الجوع والبرد .. » .

بعد ذلك انحرفنا فى مسيرنا فى اتجاه الشرق بحيث تحول التل الضخم المسمى بـ « علامة النخلة » والذى كان يقع على يميننا إلى الجهة الشمالية ، وما إن غربت الشمس حتى خلفنا ذلك التل وراءنا ؛ والواقع أننا ابتعدنا إلى حد كبير عن وجهتنا الأصلية ، فى محاولات للبحث عن الطعام والدفء فى الليل ، ولو أن الفصل كان صيفا ، بما يستتبع ذلك من جفاف

وحرارة لكنا قد هلكنا ، وإن واحداً من كل عشرة من البدو هو الذى يصلح أن يكون مرشداً أما صلاحيتهم كمصدر للمعلومات فإن النسبة هى ١ : ٥٠ ، وكانت الشكوك المتبادلة بين أفراد قبائل الرواشـــد ومرة من الأمور الملحوظه فى قافلتنا .

ويبدو أن كلا الطرفين لم يكونا واثقين من أن حاله السلام بينهما قد تمتد لفترة طويلة ، ولذا كان كل طرف منهما لايبوح بشئون منطلقته ، وعندما يحدث أحيانا أن يرتجل فرد من قبيلة مرة ليفحص بئرا ، أو يتأكد من وجود مرعى . فإن الفرد من القبيلة الأخرى لايصاحبه أو يسأله عند عودته عمـا رآى . ولابد لأى شخص يريد القيام برحلة كالرحلة التى قمنا بها أن يسعى لجمع المعلومات اللازمة قبل البدء فى الرحلة ، ثم يقارنها بالمعلومات التى يحصل عليها من البدو .

كن كل يوم لايختلف عن سابقه ، فقبل شروق الشمس بساعة كنت أستيقظ على صوت مرزوق وهو ينادى الجماعة لصلاة الصبح . وما ان ينتهى من الآذان حتى يصيح الجميع « آمين » وكان الشيخ صالح دائمـا يوبخ ابنه « كلفوت » الذى كانت حالته الصحية سيئة وكسولا فى نفس الوقت ويقول له : انهض ياكلفوت .. ألا تسمع الآذان ؟ انهض للصلاة .

بعد أن أدى البدو الصلاة . تفرقوا وساقوا جمالهم إلى أقرب المراعى، ثم عادوا ليتناولوا إفطارهم المكوّن من بعض التمر وقليل من المـاء الملح . ولم يتذوقوا شيئا من الطعام خلال الإحدى عشر ساعة التى تلت ذلك ، وخلال رمضان ، لم يكونوا يشربون الماء فى النهار ، ورغم ذلك كانوا فى أحسن صحة ونشاط ، أما وجبة طعامى التى كانت تجمع بين الإفطار والغذاء والتى أتناولها فى الساعات الأولى بعد شروق الشمس فقد كانت تتألف من بعض اللبن وطبق من الشعير وهى الوجبة التى لم تتغير خلال ٥٨ يوما على التوالى .

كان المرعى فى تلك المنطقه جيدا . وقد أعطيت لنفسى الحرية فى أن أتناول وجبتى على مهل وأن أدون ملاحظاتى عن الرحله وعما جمعته من عينات للمتحف الطبيعى قبل أن أستأنف السفر . أما اذا كان المخيم خاليا من العشب والمرعى . فعندئذ يتعين على أن أنهى وجبتى بسرعه وأركب ناقتى . فعلى كل حال فاننا سوف نضطر إلى التوقف عند ظهور أول مرعى فى طريقنا ، وكانت جمال النقل تتقدم القافلة دائما .

وهكذا كان البدوى وهو يلتقط عصاه بين اصبعى قدمه ، وهو يسوق ناقة الحمولات لكى يبركها وهو يقول : خى .. خى ، ويربت بعصاه على مؤخرتها فى حنان ، وقد ينضم اليه زميل آخر ليساعده فى تحميل وحزم الأمتعة فاذا بدا من الناقة ما يعبر عن احتجاجها على الحمولة يأخذ الاثنان فى انشاد احدى أغانى القافلة ربما لتهدئتها . وكان بقية البدو يتحركون فى كل اتجاه وهم يتمتمون ببضعة أدعية وتضرعات لعالم الغيب . أما قبيله الرواشد فانها تدعو بالدعاء التـالى :

بسم الله الرحمن الرحيم بمغفـــــرتك

على الله اعتمادنا سهل لنا طريقنا

والسلام على الجماعة ونجنـــــــا

يـــارب ...

بينما يردد فرد آخر من الجماعة : لا شريك لك .. لا اله الا الله ولا راد لقضـائك .

بدأنا الرحيل فى الصباح . وكالعادة قطعنا الثلاثة أميال الأولى سيرا على الأقدام ، وكنت أول من ركب ناقته فيما عدا بن حم شيخ قبيلة بيت

أمنى واحد أبطأها على الرغم من أنه كان أعرج لإصابته بطلقة نارية فى قدمـــــه •

إن الحجم الكبير للناقة وحركتها البطيئة توحى كأنها كما لو كانت تسير فى جنازة . ولكن خفة دم البدوى الذى يقودها ، كانت تدل على أنها كانت تسير بمعدل ثلاثة أميال فى الساعة . وعندما تبرك فان رأسها يتحرك من جهة الى أخرى . وتفتح فمها عندما يقترب منها راكبها . لأنها مدربة على النهوض على الفور بمجرد اعتلاء صاحبها لظهرها ولذلك فان على راكب الناقة اذا أراد الركوب أن يقفز بسرعة خلال جزء من الثانية . وبعد أن يركبها ويقودها . فاذا بركت مرة أخرى فان عليه أن يضربها مرة أخرى ضربة خفيفة لكى تنهض من جديد . ولكن طالما كانت عصا صاحب الناقة مثبتة فى الأرض . أو أن بندقيته ملقاة على الأرض بجانبها . فان الناقة تبقى باركة فى مكانها ، وما يكاد صاحبها يتناول بندقيته وعصاه حتى تتحرك •

وعندما يكون الراكب فوق الناقة فهى تطأطأ رأسها ولا تحتاج لأكثر من بضع ضربات خفيفة بالعصا وبعض التمتمات لتطيع أوامره . والناقة أثناء سيرها قد تمد رقبتها لتتناول أى شىء تمر عليه فى الطريق . حتى أنها قد تأكل العظام من الأرض وتأخذ فى مضغها . ما لم يردعها راكبها عن ذلك فى أغلب الأحيـــان •

وهكذا يظل البدوى يهتز فوق الناقة لساعات طويلة ولا يتحرك من مكانه الا أحيانا فإذا كان الركاب عمانيا فيكون الركوب بفرد الساقين ثم ثنى الرجلين تحت الفخذ فى وضع انحنائى أو من أحد جانبيها . بينما تتدلى رجلاه أحدهما فوق الأخرى . أما اذا كان الركاب مزدوجا فان الراكب يستطيع أن يغير من وضع ركوبه أثناء وجوده فوق الناقة . وهذا النوع من الركاب هو المنتشر بين قبائل مرة . وهو الذى يناسب الأوروبيين أيضا • لأن الراكب بتلك الطريقة يمكنه أن يمد رجليه فوق كتفى الجمل ، ومعظم

البدو يسيرون عراة الرؤوس ، والضفائر الضخمة تتدلى خلف رؤوسهم وهى تقيهم حرارة الشمس ، وأحيانا عندما يمتطون الجمال ، يستلون خناجرهم ويحكمون بها ضفائرهم من غير حياء أو خجل .

ان البدوى عموما يحمل بندقيته فى احدى يديه عند الركوب ، أما قبائل الرواشد فانهم يحملون بنادقهم فى أكياسها ، أما قبائل مرة ، فان البندقية تتدلى من الكتف الى الجنب كما تطرز كعوب البنادق بخيوط مزركشة تتدلى منهـــا .

ان البدوى عادة مرافق ظريف ، وهو على الدوام يتمتم ببعض الأغانى ، ولكنه أحيانا يرفع صوته دون اشعار سابق لزملائه الذين يبادرون الى مشاركته الغناء ، وأحيانا يشترك اثنان فى الغناء فى وقت واحد ، وتختلف الأغانى البدوية من قبيلة الى أخرى ، وقد دفعنى الفضول الى تدوين كل أغنية سمعتها وذلك بقدر ما تسمح به النوتة الموسيقية الأوروبية وكثيرا ما كان المرافقون يختبرون قوة بعضهم البعض فيحاول أحدهم ارغام زميله على مصارعته أثناء سير القافلة ويكون مصير الخاسر أن يسقط من على ظهر الجمل من ارتفاع لا يقل عن عشرة أقدام على الأرض .

وكان حمد هو أقوى رجل فى القافلة . وقد قمت بمحاولتين لمصارعته ثم بمحاولة أخرى ولكننى لم أتغلب عليه ، على الرغم من أننى كنت أطول منه . وطريقة نزول البدوى من على الناقة تتم عادة باطلاق عقالها دون ابراكها ، ويحدث نفس الشىء عند امتطائها فتتكور بشكل مثير ثم يمسك بها الراكب من أعلى الركبة حيث يضع أصابع قدميه ثم ينقل نفسه فوق ركبتها وبعد ذلك يثبت على ظهرها ويتخذ وضعه الطبيعى فوقها .

عن طريق تلك الحركات الاكروباتية تمكنت من جمع العينات التى

حصلت عليها عن حيوانات المنطقة ، وكنت بين كل لحظة وأخرى ينادى علىّ أحدهم « نمونة »[1] أيها الصاحب وقد يجرى نحوى أحد هؤلاء البدو ومعه أحد الكائنات الصغيرة التى يريد وضعها فى الزجاجة المخبرية ، وفى أكثر الأحيان كان لابد من رواية قصة عن تلك الحشرة .

وذات يوم جيء الىّ بدودة قبيحة الشكل تعيش داخل أنف الجمل ولا تخرج منه الا اذا عطس وقد علّق أحد البدو عليها بقوله : انه لولا تلك الدودة لما سخر الجمل لخدمة الانسان ، ولبقى متوحشا كالذئب أو الظبى يطارده الناس ليصطادوه ويأكلوه .

وذات يوم أحضر أحد البدو عنكبوتا رمليا مثل الذى يقال أنه نسج بيته على باب غار حراء ليحمى النبى صلى الله عليه وسلم من أعدائه الكفار .

وكان المرافقون مواظبين على الصلاة وعلى الأخص الشيخ صالح الذى كان يسألنى كلما حان الوقت لصلاة العصر : هل حان وقت الصلاة ؟ ، فأرد عليه بعد أن أنظر الى ساعتى وانبهه الى أننا قريبون من بعض المراعى ، لأن مواعيد الصلاة[2] . فى الواقع كانت تتحدد على ضوء وجود مناطق الرعى ، وفى المساء يتفرق الجمع على مسافات تمتد ميلا أو أكثر حيث يؤدون الصلاة فرادى وجماعات فى أى مكان يعثرون عليه ويكون صالحا لأداء الصلاة ، ولكنهم لم يكونوا يتقيدون بصلاة الجماعة التى يؤدونها داخل المخيمات وعند قيام البدوى بأداء الصلاة فان ناقته تسرح بعيدا عنه ، ولكن بعد عشر دقائق ينادى عليها باسمها ويخاطبها : آه .. آه ..

---

(١) .. « نمونة » كلمة معناها (عينة) ولكن البدوى ينطقها (ليمونة) واحيانا ينطقها (مونة) الأمر الذى يعبر عن تكيف العبارة للهجة الصحراوية .

(٢) .. أن البدو لا يعرفون اى نوع من أنواع التوقيت وطريقتهم فى تحديد الوقت هى الفترات التى تفصل بين الصلوات عموما وان التوقيت عندهم بالمسافات الزمنية .

فتلتفت هى اليه ، وتنتظره أن يقترب منها ليعودها . وعندما تنحرف بعض الجمال عن صف القافلة يخاطبها أصحابها بكلمات مثل : أوه ــ أوه أو را ــ را ..

أثناء الرحلة كان الصمت يخيم فى بعض الأحيان على أفراد القافلة ثم تسمع فجأة أحد البدو يقطع ذلك الصمت بالعبارة التقليدية « لا اله الا الله » .. ولكن ما ان يتم ترديد تلك العبارة حتى يرد عليه بقية المرافقين بالمثل . فاذا قلت لهم يوما بأن الطقس بارد فان الرد الذى لا يتغير عندهم هو أن ذلك من تقدير الله .. وأن تفسير العوامل الطبيعية بغير ذلك الأسلوب يعتبر باطلا ومناف للعقيدة . فكل شىء عندهم بأمر الله وتقديره . ولم أجد ايمانا أعمق من ذلك الايمان بحتمية الأحداث . فالقتل والغارات والمرض هى كلها من فعل القدرة الإلهية ولكل انسان ساعته المقدرة ، على انه بالرغم من تلك الروح القدرية التى تسيطر عليهم فانهم لحظات مرح ينطلقون فيها . فكثيرا ما يتذكر أحدهم أنشودة أو مقطعا من قصيدة عن أبو زيد أو دياب بن غانم أو غيرهما من الأبطال الأسطوريين فيقوم بترديدها .

وذات مرة جاءنى الشيخ صالح وكان ينشد احدى الأغنيات عن بنى هلال قالوها فى بعض خصومهم ، وتقول تلك الأغنية :

أن هؤلاء ليسوا أكثر من عصافير

وبو زيد سدرة

أرغمناهم على الفرار ليعودوا الى حظيرته

ان عضة الذئب لها دواء

أما طعنة أبو زيـد فليس لهـــا دواء

لقد سال الدم كما يسيل الماء من الدلو

تخرج الدلو من البئر ممتلئة ثم تسكب بسرعة

•• وقد رد عليه أحد زملائه فى القافلة : وتسكب بسرعة •• أى أنه يردد المقطع الأخير من الأنشودة . ثم التفت الى وقال ان أبو زيد من أهل الجنة • ولكن بدويا آخر صاح يقول :

أو بوزيد •• أو بوزيد

لو خرج سيفك من غمدة فان الجبناء لن يبقوا أحياء

كم من الآبار التى مررت بها ولم تتوقف عندها

وفى الليل بعد غروب شمس النهار

كم من الآبار التى مرت بها الجمال وهى عطشى

فى ضوء النهار عندما تغمض العيـــون للنوم

ولكنى اعترفت لهم بأننى أفضل النثر العربى على الشعر ، وعندئذ تقدم أحد البدو وأبدى رغبته ليقص على حكاية عن الحرب التى دارت رحاها بين دياب بن غانم وعلان •

كان علان خادما للزناتى . وكان بنو هلال يخافونه أكثر من أى عدو

آخر ، لأن كل من بارزه كان يسقط قتيلا . لذلك طلبوا من أبو زيد بأن يقتل لهم جواد علان • غير أن أبو زيد كان قد قطع عهدا على نفسه بالا يمس علان ، لأنه عندما كان أسيرا عند الزناتى جاء اليه علان وطلب منه أن يتعهدا بالا يعتدى أى منهما على الآخر • وقد تعهد أبو زيد لعلان بذلك •

وقد جرت العادة عندهم بأن يعين كل طرف واحدا من أبطاله لمبارزة خصمه أمام قصر الزناتى ، وكان علان بطل جماعة الزناتى . فكان كل من حدثته نفسه بمبارزة علان فان ذلك المنافس يسقط قتيلا • وهكذا سقط ثلاثة من أبناء دياب بن غانم قتلى بالاضافة الى الرابع عمر بن الخفيات . محبوب الملايين ، وكان علان يركب جوادا لم يكن له نظير على الاطلاق وعندما كان ذلك الجواد يقترب من خيول بنى هلال فانها تصاب بالهلع ولا يقوى فرسانها على مواجهة ذلك الجواد وكانت طريقة علان فى قهر خصومه هى السلسلة الحديدية التى كان يتقلدها وكان فى طرف السلسلة كلاّب (خطاف) ، وكان يلقى بتلك السلسلة على خصمه فيسحبه من سرجه ثم يقطع رأسه •

واجتمع بنو هلال للتشاور فيما بينهم واستقر رأيهم على أن يكلفوا دياب بن غانم بمبارزة علان ، لأن أبو زيد لم يكن على استعداد للدخـــول فى معركة فســده . وأن دياب هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ذلك . فأرسلوا له رسولا فحضر • فأخذ دياب ثلاثة قمصان وغلاها فى ماء ثم ارتداها بدلا من الدروع • ثم أولج لفافات من القطن فى أذنى جواده حتى لا يسمع مشية جواد علان أثناء المبارزة ، وقد تم ذلك كله أمام قصر الزناتى ويفصله عنه خندق مائى • وكان من عادة علان بعد أن يقطع رأس مبارزه أن يقفز من فوق الخندق الى القصر •

ولمـــا اقترب الخصمان أحدهما من الآخر من الجهتين حتى صهل جو .

علان صهيله المعروف • فما كان من دياب الا أن استدار بمهره وعاد راجع الى قومه بنى هلال لكى يدفع بخصمه الى ملاحقته بعيدا عن الحصن . وقد لاحظه علان بسرعة فطنته • وعندما اقترب منه بمسافة تسمح له بتوجيه حربته الخاصة الى بسالته . وعلقت السلسلة بثوب دياب . ولكنها بدلا من أن تسحبه معها . مزقت فقط قطعة صغيرة من قميصه . ثم كرر علان المحاولة ولكنها لم تنجح . فكرر المحاولة . ولكن النتيجة كانت واحدة . وعندها ارتبك علان وراح يتفحص خلاخيله دياب . وعندما وصل جواد علان بالقرب من حافة الخندق سهل سهلته المعروفة ولكن جواد دياب الذى لم يكن يسمع صهيل جواد علان قفز وراؤه على الفور وهكذا وصل الاثنان أمام القلعة وعندئذ التفت علان الذى كان متسربلا بالدروع ولم تكن تظهر منه سوى عينيه الى ناحية خصمه ليحدد مكانه • وفى تلك المحاولة أطلق دياب رمحه على علان فنفذ من عينيه ثم الى رأسه ثم استقر فى حائط الحصن • وعندما كان علان يلفظ أنفاسه الأخيرة نظر الى دياب وسأله : هل أنت ذئب أم ذئاب ؟ لأن أحد المنجمين كان قد أخبره بأن نهايته سوف تكون على يد شخص اسمه قريب من ذلك الاسم •

فأجابه دياب : أنا دياب •••

فقال علان وهو يلفظ النفس الأخير : أوفى الحساب •

كان الجو لينى ١ ، ٢ فبراير جافا باردا . وقد استبعدت قبيل الفجر على صوت المؤذن وكان البدر مكتملا فى السماء وكان المشترى بالغرب منه يبدو قزما • وكان قبل أسبوعين يتضاءل الهلال أمامه •

ومن عمليه رصد الكواكب السيارة عبر السماء . نعلم تحديد الوقت • فالبرج فى ذلك الليلة كان برج الأسد والمحل الذين كان مثل المشترى قريبين من القمر . وبعده السنبله والقوس ثم العقرب الذى بعد من الكواكب الهامه من الشرق لقربه من موضع الزهره التى غرقت من حلال

مرافقتى لها خلال الليالى السابقه أنها هى الأخرى تقترب منه . وعند منتصف الليل نهضت لأشاهد النجم القطبى . ولكنى اكتشفت أن تركيب المرصد وهو عمليه لابد منها بعد كل وعثه أو استراحه . عدت عمليه متعذره .. أما رصد النجوم (وهو العمل الذى كنت أقوم به طوال الرحله) فقد تعذر على القيام بها فى تلك الليله لوجود أحد البدو غريبا من مكانى . وكان يصلى صلاة نافلة .

فى الصباح بدا الأفق الشرقى وكأنه يسبح فى بحيره من الدم . ومن خلال السحب الأرجوانية التى كانت تبدو وكأنها سلاسل صخريه . كانت النجوم خلالها تبهت ثم تختفى عن الأنظار .

بكرنا فى الخروج بعد أن عدنا من نفس طريق الليلة السابقه أى فى اتجاه كثبان اسخله الهائلة خسرنا عبر أخاديد من الرمال . كانت فى بعض الأحيان تحجب المنطقه وراءنا وقد تسلقت قمة بعض الكثبان وكان معى اثنان من المرافقين هما حمد وطالب . وعندما بلغنا القمة ألقينا منها نظره على شاطىء الخليج . كان اليوم مشمسا ومنعشا وكان المنظر فى تلك المنطقة آية فى الجمال والابداع .. صحراء من كثبان منخفضة تمتد غربا حتى مسكن القبائل فى الجفورة وشرقا عبر بعض التلال القاحلة الى البحر . أما الصحراء الواسعة الهائلة للربع الخالى فكانت وراءنا تمتد الى مسيره أسابيع . أما الى الأمام فقد بقى أمامنا مسيرة أربعة أيام حتى نصل الى المناطق المأهولة . وقد نزلنا . ولقد سجل جهاز قياس الارتفاعات أننا كنا تحت سطح البحر وكان الحال فى اليوم السابق غير مختلف عنه طوال اليوم التالى . وبعد أن قطعنا بعض التلال الرملية وصلنا الى سبخة المناصير . وهى احدى مستنقعات الملح ؛ وتبلغ مساحتها عدة أميال مربعة وتتناثر فوقها أعداد هائلة من المحار الذى لاتزال فى مراحلها الأولى من التحجر .

تركنا المنطقة الساحلية بعد مسيرة يوم واحد على يميننا . ثم اتجهنا

عين مـــاء « حالوين »

بحيرة جديدة « سبخة عمرة »

شمالا عبر منطقه صخرية قفراء . وقد سمعنا عواء ذئب بالغرب من جرف منطقه غهود . حيث تمكنت من جمع مجموعه أخرى من المحار وهى فى مراحل متقدمة من التحجر . وعند وصولنا الى عين « خفوس » نشب خلاف بين أفراد القافله على مياه تلك العين وما اذا كانت صالحة لشرب الابل أو غير صالحة . وكانت الغلبه للرأى المؤيد للشرب منها . وقد انتهزت فرصه الخمسين دقيقه التى توقفنا لاجراء عمليه الرصد من فوق قمم الجبال والتى قيل انها تحل على الساحل وهى محاولة جريئه تصورت أنه يمكننى القيام بها ، خصوصا وأن يوم صرف المرتبات قد أصبح وشيكا كما تصورت أننى بعد تلك الأسابيع الطويله التى أمضيتها مع المرافقين قد أصبحت موضع ثقتهم . وفى اليوم التالى انحرفت قليلا من شمال المنطقة الى شرقها . الأمر الذى أدى بنا الى التغلغل داخل تلك المتاهات الحجرية . ثم بعد مسيرة ستة أيام شاهدت أمامى بحيرة كبيرة فضية اللون ، وعرفت من البدوى الذى كان يرافقنى أننا على وشك أن نمر من الجهة اليمنى على أرض سبخة تسمى « سبخة عمره » . فتصورت أنها قد تكون احدى مستنقعات الملح . شأنها شان المناطق السبخة التى مررنا بها فى الأيام الأخيرة .

غير أن تلك السبخة وكان يبلغ طولها نحو سبعة أميال وعرضها نحو ميل ، قد أثارت دهشتى . فعندما اقتربنا من طرفها الجنوبى عثرت على محارتين من محار البحر ومن هناك اتجهنا الى سهل صخرى منخفض على الجانب الغربى من السبخة . وقد بدا الساحل الجنوبى للمنخفض أشبه بسلسلة من المنخفضات الرملية . وقد وقفت لألتقط صورة لذلك المكان كما تعودت ، وكانت الشمس قبالتى والسماء غائمة .

وقد كانت حدود ذلك المنخفض والذى يبلغ عرضه نحو عشرين قدما تبدو كأنها مسلح من الثلج . ولما كانت المنطقة بعيدة عنا . فقد استحال علىّ أن أتبين أين تبدأ المنطقة الملحية وأين تنتهى ، وعلى امتداد نحو ستة أقدام من الضفة رأيت أسرابا من الجراد الأبيض كانت ميتة وجافة . وربما

كان ذلك الجراد من النوع الأحمر الذى تأكله العرب ويعتبرونه من المأكولات الشهية .

ان الجراد يزحف فى أسراب هائلة فى فصل الربيع . حيث تلقى بنفسها عند أول بحيرة ماء تجدها حيث تموت هناك .

وكانت المنطقة توحى بأن مياه البحيرة قد بدأت تجف . ولكن الدليلين اللذين كانا يصحبانى لم يؤيدا ذلك الرأى . وقد كانا الشخصين الوحيدين اللذين سبق لهما زيارة تلك المنطقة .

وكانت درجة انحدار السهل طفيفة جدا بحيث ان أقل كميه من المطر . أو التبخرات التى تحدث فى الصيف . قد يؤديان الى تغيرات فى مستوى ذلك السهل .

تركنا البحيرة متجهين نحو الشمال الشرقى الى جبل عديد . الذى كانت توجد خلفه احدى الهضاب . ومنه عبرنا سهلا صخريا الى أحد مستنقعات الملح الكبيرة . وقد قيل لى أن ذلك المستنقع يمتد غربا الى ساحل قطر عبر مناطق أسكاك وسلوى . وهى مناطق أثرية . ولوجود بحيرة الملح . والأدلة التى كشفت عنها مجموعة المحار التى حصلت عليها بالاضافة الى تسجيلات المرصد . يمكن القول بأن شبه جزيرة قطر كانت الى وقت بعيد منخفضا داخل البحر[1] . مما أدى الى أن تصبح قطر جزيرة كالبحرين[2] . وان كانت أكبر منها حجما بكثير .

---

(١) .. من الجائز ان يكون موقع ميناء جرهه الميناء الفارسى القديم الذى أشار اليه البطليموس هو داخل المنطقة على مسافة بضعة أيام وليس فى البحرين أو تحت البحر كما ذكر .

(٢) .. ان اسم البحرين يطلق اصلا على كل المنطقة من الدوحة الى القطيف . أما الجزر التى تسمى اليوم بالبحرين . فقد كانت تعرف قديما باسم « اوال » .

آخر مستقى لنا فى « النمايجة »

توقفت القافله عند السهل لكى يؤدى أفرادها صلاه العصر . وعند ترجلى اكتشفت بأن عقبه (وهو اسم باغتى) قد أعجبت بالمنطقه وأبت أن تذهب بمفردها . بل أخذت تحن تعبيرا عن رغبتها فى أن تصاحبها بنت ريمـان • رفيقتها فى القافله . ولكن ذلك الجهل بأصول معامله الجمال قد عرضنى لانتقاد شديد من المرافقين . خصوصا فى تلك اللحظه التى كانوا يؤدون فيها الصلاة ويتضرعون الى الله . فقد أخطأت فى الاشاره التى كان ينبغى على أن أعطيها للناقة لأنها كانت متعودة على أن تنهض بخبطات خفيفه على فخذها . ولكنى خبطتها فوق رقبتها وبالتالى فلم تنهض وبقيت فى مكانها . والجمل من الحيوانات العنيده التى قد تنفعل اذا أثارها أى تصرف . غير أنه يستحيل على أحد من البدو أن يترك عصاه بالقرب من ناقته . لأن مثل ذلك التصرف قد يفسد طباعها . واذا غضب البدوى من ناقته فان أقصى ما يفعله هو توبيخها ببعض العبـارات مثل : هاى ليأتك مرض الخراش •• أو •• ليأتك الموت حقا أو باطلا •• أو •• ليحملوك أحمالا ثقيلة •• ولكنه فى الحقيقة لا يعنى شيئا من ذلك التوبيخ .

فالبدوى متعلق بناقته تعلقا شديدا . حتى وان لم تبادله ذلك الشعور . وعندما تتعثر الناقه أثناء سيرها يخاطبها صاحبها بالعبارات التاليه : الله يسلمك •• الله يكفيكى الشر •• وعندما يقطع صاحب الناقه عدة أميال فى الصحراء بحثا عن ناقته ضالة فانه يردد العبارات التـالية . الله يبارك فيك •• يا حيا بيش •• يا فلانه[1] . ولقد أدى اكتشافنا لآثار قافلة لقبيلة المناصير مرت من تلك المنطقة الى الاسراع فى السير . لأن حمد المرى لم يكن يرغب فى لقاء تلك القبيلة . وبسبب وجود بعض الجمال التى كانت ترعى بالقرب منا . قررنا أن يسبقنا طالب الذى كان من أحد القبائل غير المعادية للمناصير وذلك لاستطلاع أخبار المنطقة التى كنا متوجهين اليها وأوصيناه أن يخفى أخبارنا عنهم اذا اقتضى الأمر . بينما سلكت بقية

---

(١) طريقة قبيلة مرة فى الترحيب بالقادم هى « مرحبا وما شاء الله » .. اما المناصير فعبارتهم هى « مرحبا بكم » .

القافلة طريقا آخر حتى تتفادى المناصير •

وأثناء ذلك قال لى سهيل :

اننى أريد منك شيئا واحد أيها الصاحب •

وسألت : ما هـو ؟ •

فرد : أريد تبغا •

ولكننى قلت له : اننا الآن فى شهر رمضان •

فأجاب : ان التبغ هو الشىء الوحيد الذى لا يمكننى ان استغنى عنه فقد أصوم عن كل شىء الا التبغ • والله إنه حرام . ولكن ماذا يستطيع الانسان أن يفعل ؟ اننى لا أستعمله الا فى هذا الشـــهر •

ولكن المحافظين سوف يحكمون على سهيل بأنه قد أفطر فى شهر رمضان ومن ثم فلا أهمية اطلاقا لامتناعه عن تناول الأشياء الأخرى . وكان سهيل الشخص الوحيد الذى يدخن بين المرافقين . وهو لم يستغل فرصة جواز الافطار فى رمضان أثناء السفر . وانما كان يصوم ويصوم باخلاص . ولو حدث أن وبخه بعض المتفرقين . فسوف يتقبل منهم ذلك التوبيخ • وقد سمعته مرة يقول « الله يرحمنى » وكنا نسير ضمن القافلة •

أما طالب الذى سبق القافلة للوقوف على حقيقة الجمال المجهولة . فقد عاد الآن . وقبل أن يصل الى المخيم بنحو مائة ياردة صاح قائلا : هل صليتم •• هل صليتم ؟ •

فأجابوه جميعا : أجل •• صلينا والحمد لله •

وعندما اقترب صاح قائلا : يا حياكم •• يا حيا بكم •• عندى خبر سار بمشيئة الله •

(قلعة شيخ قطر بالدوحة)

هنا تجمع أفراد القافلة للاستطلاع الى أخبار الصحراء ، وبعد بضع دقائق عاد الشيخ صالح ليمتطى ناقته وكان بجانبى فأيد قوله : خبر سار والحمـد لله .

أما عن ذلك الخبر السار فهو أن الملك عبد العزيز بن سعود فى الرياض . وجميع الولاة فى مدنهم ، ولايزالون يحكمون .

وقال ثالث : الحمد لله .

وفى الفجورة الآن حياه ، وهو يقصد أن فيها مراع بسبب هطول الأمطار فى الفترة القريبة الماضية فرد البدو جميعا : الحمد لله ، لأن توفر المراعى فى المنطقة سوف يتيح لهم أن يحصلوا على الاستجمام والراحة ورعى جمالهم لعدة أسابيع استعدادا لمسيرة العودة الطويلة .

والواقع أن الأمطار كانت تهطل فى نفس المكان الذى نخيم فيه ، وقد شاهدت بالقرب منا بومة تقف على أحد الصخور تتلصص بعينيها ، فاقترب أحد البدو منها وأطلق عليها النـار غير أن الطلقة أخطأتها ، ولكنها عادت لتقف فى مواجهة فوهة بندقية أحد البدو . ولكنها لم تذهب الا بعد أن أخطأتها الطلقة الثانية .

وقد اكتشف رجال القافلة فيما بعد أثر أقدام بعض الحمير ، وكنا قد مررنا بماء عين رزجة العميقة ، وهو المكان الذى تتزود منه الطبقات الموسرة بالمـاء فى الدوحة . وبالسير الوئيد على نفس الطريق ، شاهدنا على بعد قطيعا كبيرا من الجمال وهى ترعى العشب الأمر الذى أكد لنا بأن أفضل المراعى توجد فى تلك المنطقة . وللمرة الثانية سبقنا طالب للاستطلاع بينما أخذ بقية أفراد القافلة يتبادلون الحديث ويمنون أنفسهم بقرب حصولهم على وجبة من اللبن ولكن ذلك الأمل تبدد ، وان كان طالب قد عاد الينـا ببعض التمر الذى حصل عليه من أحد الرعاة الذى كان يرعى أحد القطعان ،

وعلى تصورت أن إحضار طالب للتمر كان يعنى حرمان الراعى الفقير من الجزء الأكبر من قوته . لأن التمر الذى أحضره كان باقيا لكل أفراد القافلة فى تلك الليلة . ولكن تقاليد الصحراء وقوانينها تحتم أن يعطى الانسان بسخاء مما عنده لضيوفه أو لعابرى الطريق . حتى ولو بقى هو جائعا لا يجد شيئا لاشباع جوعه .

لقد كانت ليلة مظلمة قاسية . اذ لم نجد حطبا فى المنطقة للوقود . فيما عدا بعض روث الجمال الذى أشعلنا فيه النار . وقد استمر رذاذ المطر طوال الليل . فاستيقظت من نومى لأكتشف أن جميع أغطيتى الصوفية مبللة . ولهذا اضطررت أن أتناول طعام الافطار تحت مكتب المخيم . ولكنه كان الافطار الأخير لى فى الصحراء . وبالتالى فمهما ساءت الأمور فى تلك المرحلة فان الانسان يستطيع أن يتحملها بتفاؤل وسعادة .

كنا على وشك الوصول . وقد أخذ أفراد القافلة يتقدمون بخطى حثيثة وهم يرددون أغنية عن بعض عيون الماء فى الوقت الذى كانت الجمال الظمآنة وكأنها تنصت فى شغف لأخبار رحلتنا .. لقد خلفنا وراءنا آخر التلال الرملية . وبعد أن قطعنا الأخدود الذى كان أمامنا شاهدنا وسط السهل الحجرى منطقة البعيجة . حيث قررنا أن نشرب للمرة الأخيرة . فى صحراء الربع الخالى . ومن هناك شاهدنا قلاع الدوحة وهى تطل على مياه الخليج . وأخيرا وبعد نصف ساعة تحقق الحلم ودخلنا الى بهو الحصن بعد أن تم لنا اجتياز الربع الخـــالى .

انتهـــى

— ❊ —

فهرست

كتاب « البلاد السعيدة »

الموضوع		الصفحة
مقدمة المؤلف		٧
الفصل الأول	: بداية تبشر بالخير ومراجعة مبكرة للرحلة	١٢
الفصل الثانى	: ظفار والكرم العربى	٢٢
الفصل الثالث	: رقصة الشيطان وعملية فحص الجماجم	٣٥
الفصل الرابع	: فى جبال القرا وعين أرزات	٥٢
الفصل الخامس	: المخلفات القديمة وقرابين الدم	٦٦
الفصل السادس	: جبال القرا : الضباع ــ عقائد العلاج والختان	٨٦
الفصل السابع	: جبال القرا : الحسد وطقوس النار	١٠٨
الفصل الثامن	: جبال القرا : تحيات الوداع	١٢٦
الفصل التاسع	: الساعات الأخيرة فى ظفار	١٤٤
الفصل العاشر	: عبر التلال الى بحر الرمال	١٥٦
الفصل الحادى عشر	: النجود : الحياة على المرتفعات القبلية	١٨٣

الموضـــــــــوع	الصفحة
الفصل الثانى عشر : اســتئناف الرحــلة على الطــرف الجنوبى للرمــال	٢٠٦
الفصل الثالث عشر : عبر طريق الكثبان الرملية : فى منطقة عرق الدحيــة	٢٢٨
الفصل الرابع عشر : ملاحظات جغرافية على الربع الخالى	٢٥٣
الفصل الخامس عشر : عبر رمال الدكاكة : المجموعة الثانية من الجمـــال.	٢٥٩
الفصل السادس عشر : عين الشنة : استراحة قبل الاندفاع الى الشـــمال	٢٨٠
الفصل السابع عشر : الاندفاع نحو الشــمال	٢٩٨
الفصل الثامن عشر : رحلتنا عبر منطقة الرمال الوسطى	٣١٩
الفصل التاسع عشر : الوصول إلى البنيان : وقفة لاسترجاع مراحل الرحـــلة	٣٥٤
الفصل العشـــرون : من البنيان الى البحر : المرحلة الأخيرة	٣٦٧

فهرس الصور والرسوم

الصورة	الصفحة
نخيل جوز الهند فى ظفار	١٥
منظر لشارع فى ظفار	٢٣
قلعة السلطان	٢٧
جماعة من قبيلة يافع	٣٧
جماعة من قبيلة شاهارا	٣٩
أفراد من قبيلة راشد ومهرا	٤١
بعض آثار بليد	٥٧
رجل وثعبان	٦١
جبال القرا تشرف على وادى نهاز	٦٧
كهوف وصخور فى جبال القرا	٧١
صخور وكهوف أخرى بجبال القرا	٧٣
منظر آخر من جبال القرا	٨١
الجلد للمتحف واللحم لعلى الضبعان	٨٩
تسريحة الشعر للمرأة	١٠٣

الصـــــــــــــورة	الصفحة
تسريحة الشعر للفتيات	١٠٣
مروج ورياض	١١٧
عيون مياه خايونت	١١٩
وادى الريوث	١٢٩
فى سهول وادى أريوث	١٣٣
الشيخ صالح بن كلوت	١٤٩
أشجار اللبان البرية	١٦٥
خطوط فى عدة أودية نقشت فى أشكال زخرفية على الصخور	١٧١
نصب تذكارية ثلاثية المظهر	١٧٥
مجموعة من الرجال الجبليين	١٨٥
شاب من بيت أمانى	١٨٩
أنواع من النخيل البرى فى احدى الغابات	١٩٣
منظر لأعالى أحد الوديان	١٩٧
وقفة فى منتصف الوادى	٢٠١
منظر لرمال الجنوب	٢٠٧

الصـــــــــــورة	الصفحة
وقفة للبحث عن المراعى فى الحدود الجنوبية القاحلة	٢٠٩
الجمل بن الصـــحراء	٢١٩
سلسلة كثبان رملية	٢٣٥
مواقع من الجبس بين رمال الجنوب	٢٤٣
بئر عند خور زاهية	٢٤٥
مســـيرة فى الدكاكة	٢٦٧
رمال الدكاكة الحقيقية	٢٧١
منظر لذبح ناقة	٢٨١
المرشـــدان : حمـــد وطالب	٢٨٥
فى شمال غرب الدكاكة	٢٩٩
معســـكر صغير لمـــرة	٣٠٣
منظر لرمال صواحب الفسيحة	٣٠٧
ثعلب لم يعرف شكله من قبل	٣٢١
عش نســـــر	٣٢٣
نمـــوذج لرمـــال ســـنام	٣٢٩

الصـــــــــورة	الصفحة
استراحة لأداء الصلاة	٣٣٣
فى منطقة عبيلة القاحلة الباردة	٣٣٧
عين ماء جالوين	٣٨٧
بحيرة جديدة (سبخة عمرة)	٣٨٩
آخر مسقى فى النعيجة	٣٩٣
قلعة شيخ قطر بالدوحة	٣٩٧

سلطنة عمان
وزارة التراث القومى
المكتبة
الرقم العام : ٨٤٣ ح
الرقم الخاص :

رقم الايداع ٤٧٠٨ لسنة ١٩٨١

٦ شارع البرامونى - عابدين - القاهرة ت: ٩١٤٨٨١